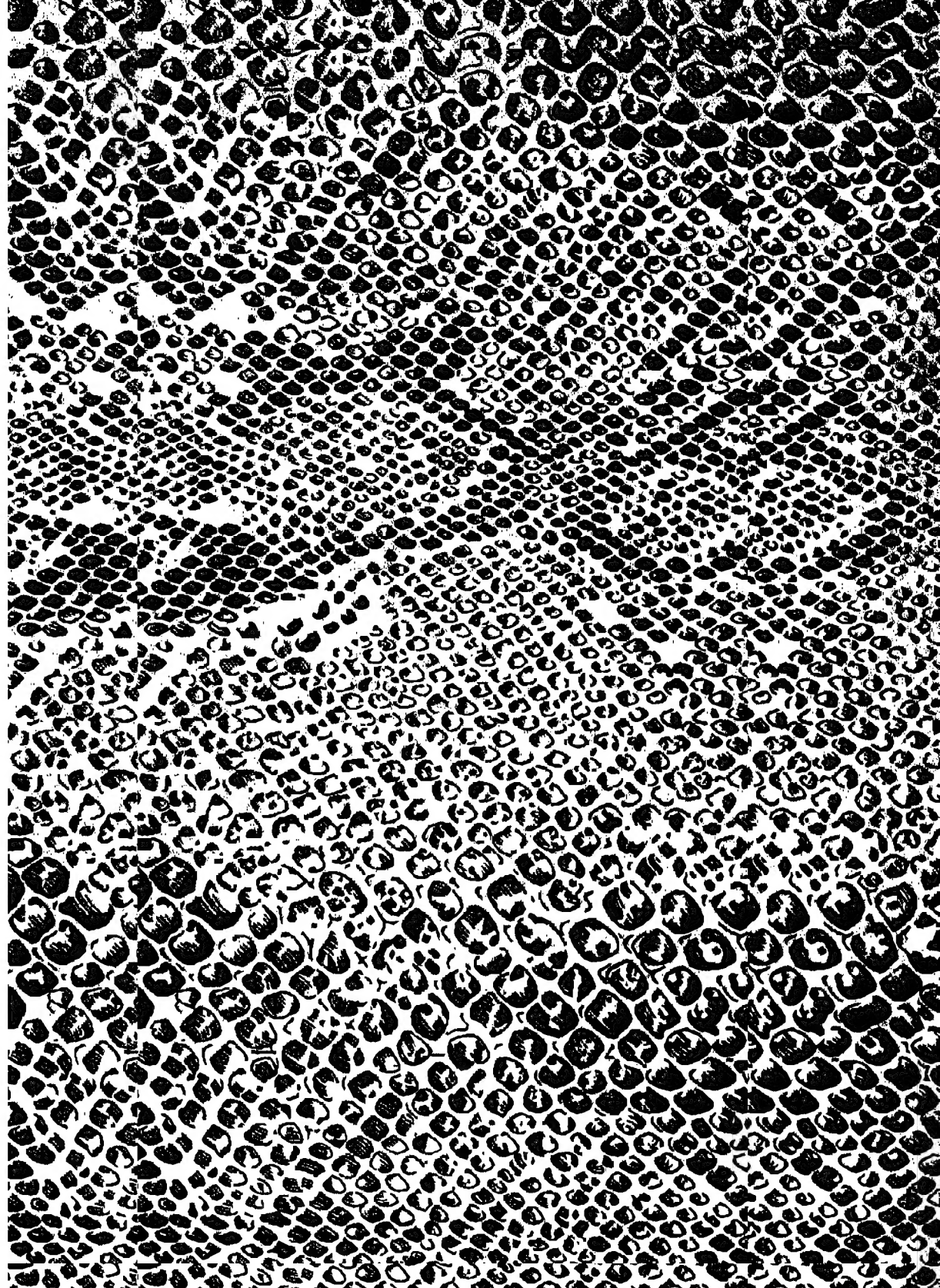
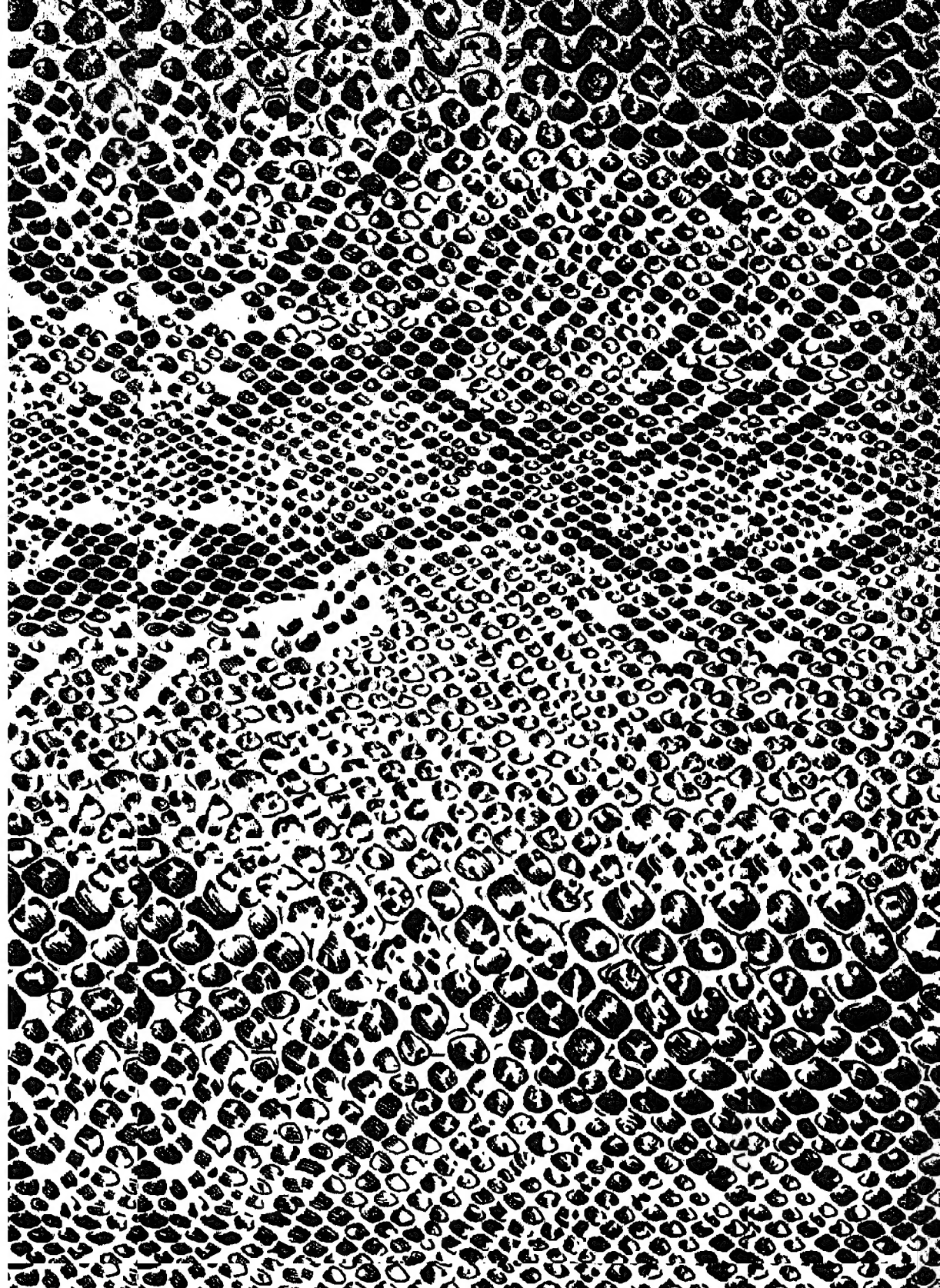


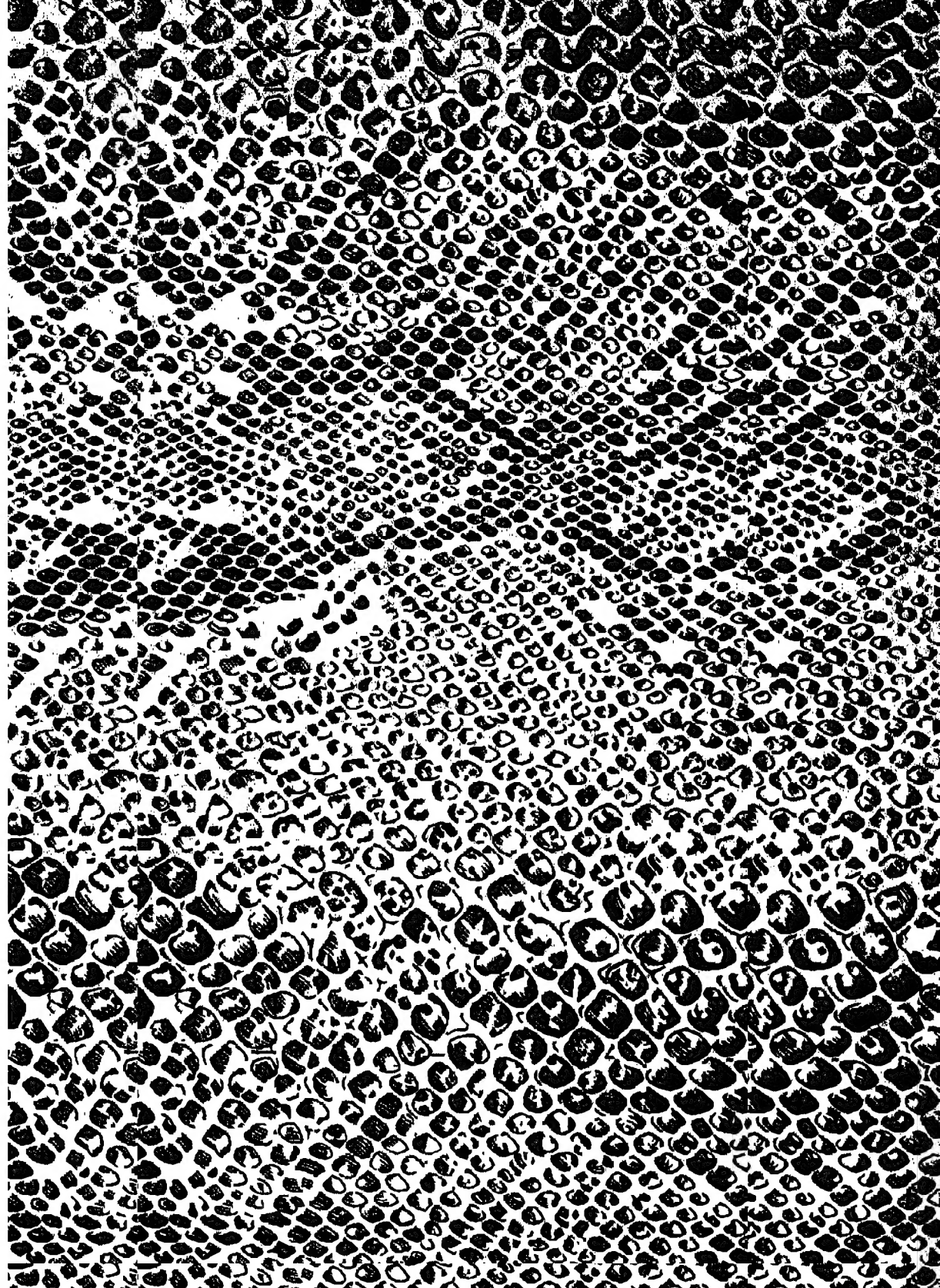
طه صين

مندی مکتبه الاسكندرية

من بعید







من بغیر

طہ مین

طه صین

من بعید



مقدمة

هذه فصول متفرقة لا يكاد يجمع بينها الا أنها كتبت من بعيد .
كتبت من بعيد في المكان وكتبت من بعيد في الزمان أيضا . فأكثرها
كتب من باريس وبعضها كتب من أقصى الغرب الفرنسي . وبعضها
كتب من فيينا . وقليل جدا منها كتب في القاهرة .

وأقدم هذه الفصول عهدا كتب سنة ١٩٢٣ ، وأحدثها عهدا
كتب سنة ١٩٣٠ فهي كما ترى جاءت من بعيد في المكان والزمان
جميعا .

وقد يظهر للنظرة الأولى أن بعد المكان لا يؤثر في كتابة
الكاتب ولكنك اذا قرأت هذه الفصول وما يشبهها فستبين في
غير شك أن النأي عن الدار والتنقل في أقطار الغرب يثيران في
نفس الكاتب من العواطف والخواطر ما لا تثيره الإقامة والاستقرار
ومما يهينان الكاتب تهيئة خاصة للشعور والحس ، وللتفكير
والتعبير ، لا تستقيم له حين يكون مقيما مستقرا في داره بين أهله
ومواطنيه يرى في كل يوم مثل ما كان يراه من قبل لا تكاد تختلف
الظروف التي تحيط به الا اختلافا يسيرا بطيئا ، لا يكاد يحس .

فليس من شك اذن في أن لبعده المكان أثرا في اعداد الكاتب
للكتابة ، أثرا فنيا خاصا ، غير هذا الأثر الظاهر الذي يراه الناس
حين يقرأون ما يكتبه المسافر عما يرى ويشهد من الأقطار .

ومن أجل هذا جمعت هذه الفصول التي كتبت من بعيد في
سفر واحد ، وقد يظهر للنظرة الأولى أيضا أن بعد الزمان بفصل
من الفصول ، أو كتاب من الكتب لا أثر له في ذلك الفصل أو هذا
الكتاب ، ولكن قليلا من التفكير أيضا يدل على أن من الخير أن
نعود بين حين وحين ، الى ما كنا نكتبه في الأعوام التي مضت ،
وبعد بها العهد لنرى كيف كنا نكتب ، وكيف كنا نحس ونشعر
ونفكر ، وكيف أصبحنا نحس ونشعر ونفكر ، وكيف أصبحنا
نرى الناس والأشياء . لتبين في جملة موجزة مقدار ما أدركنا من
تطور الحس والشعور والتفكير والتعبير أيضا . ولست أخفى عليك
أنى قد قرأت هذه الفصول التي كتبت كلها أثناء ثمانية أعوام
ومضى بيني وبين آخرها أكثر من خمسة أعوام في شيء من الحنان
الى تلك المجهود التي كنا نشكو فيها المشقة والجهد وتضييق فيها
بالحياة والاحياء ، ثم أصبحنا الآن نود لو تعود اليها أو لو نعود
اليها لا ليعود اليها معنا الشباب بل لتعود اليها معنا حياة هي من
غير شك خير من الحياة التي نحياها الآن .

كنا في تلك المجهود أحرارا نفكر ونقول ، كما نريد أن نفكر

ونقول ، كنا نلقى ألوانا من المقاومة فلا تزيدنا الا طموحا الى الحرية وامعانا فيها . وكنا ننظر الى الجهاد في سبيل الرأى وحرية الرأى على أنه حاجة من حاجات الحياة وضرورة من ضرورات الوجود الحر ، فأين نحن من هذا الآن ؟

كنا نشكو أحيانا ظلم الحكومات وجنوحها الى الاستبداد ونصرها للجمود ، ولكننا كنا نجد الشعب دائما مواليا لنا يمنحنا نصره ، ووده ، وعطفه ، وتأييده . أما الآن فقد اشتد عنف السلطان وأسرف في الشدة حتى اضطر الكتاب والخطباء الى أن يفكروا ويقدرؤا ، وبطيلوا التفكير والتقدير قبل أن يكتبوا أو يقولوا . وقد وجد الاستبداد الرسمي المتصل لنفسه أنصارا وأعوانا من طبقات الشعب لم يكن ليظفر بهم من قبل . فوجدت أحزاب مهما تكن ضئيلة قليلة الخطر فهي أحزاب منظمة تناصر الجور والاستبداد وتدعو الى التأخر والرجوع الى وراه . وليس في هذا شيء من الغرابة فقد كثر الاضطراب في نظمنا السياسية وطال عهد البلاد بحكومات لم تكن تقدر الحق ولا العدل ولا القانون ، ولم تكن تقصر في التماس الأعوان ولا الأنصار ، بألوان الترغيب والترهيب . فليس الغريب أن توجد الأحزاب التي تكره النظر الى أمام وتعجب النظر الى وراه ، وانما الغريب ألا توجد ، والغريب أيضا أن تكون من الضعف والضلالة وقلة الخطر بحيث هي الآن .

وكثير من الذين سبق في أيديهم هذا السفر قد قرءوه حين نشر
فصولا مفرقة ولكن كثيرا جدا من الذين سبق في أيديهم هذا
السفر لم يقرءوه ، ولم يعرفوا من فصوله شيئا . لأنهم كانوا أطفالا
يدرجون وصية يختلفون الى المدارس الابتدائية حين نشرت
كثرة هذه الفصول ، ثم هم الآن شباب يتدون درسم الثانوى
أو يأخذون في درسم الجامعى فمن حقهم أن يروا كيف كنا نجاهد
الحياة حين كانوا هم يستقبلون الحياة باسمين . فالى هؤلاء القراء
الناشئين أهدى هذه الفصول سعيدا راضيا ، لأنهم سيرون حين
يقرءونها أنى كنت أتحدث الى الذين سبقوهم بنفس الآراء التى
أتحدث بها اليهم الآن . وأنى كنت أدعو الذين سبقوهم الى نفس
المثل العليا التى أدعوهم اليها الآن . ولست أدري الى أى حد
أبيح لى التوفيق مع الذين سبقوهم ولكن أرجو أن يكون توفيقى
معهم أعظم وأقوى وأبقى أثرا .

يونيو سنة ١٩٣٥

طه حسين

القسم الأول
من باريس

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
الطبعة الثانية نوفمبر ١٩٥٨

١ في السفينة

تحية طيبة زكية اليك أيها القاريء الكريم من كاتب حرم
التحدث اليك حيناً . وكثيراً ما نازعته نفسه الى هذا التحدث
فلم يجد اليه سبيلاً .

مرضت أسبوعاً ، وسافرت أسبوعاً ، فلم أستطع أن أتحدث
اليك . ولقد كنت الى ذلك مسوقاً . ولم تكن تنقصني الخواطر التي
تصلح موضوعاً للأحاديث ، فإن المرض والسفر كليهما يمثلان
بهذه الخواطر التي تصلح موضوعاً للنجوى بين الكاتب وقارئه ،
ولكنني كنت عاجزاً العجز كله عن أن أملئ الخواطر أو أسطرها ،
وأحسب أنني لا أزال عاجزاً عن املاء هذه الخواطر أو تسطيرها ،
لأن بعضها قد ذهب مع المرض والسفر ، فليست أذكر منه قليلاً
ولا كثيراً . ولأن بعضها الآخر قد بقى في نفسي ، ولن يذهب
ولن يجد النسيان اليه سبيلاً ، ولكن ليس من سبيل الى املائه
وتسطيره لأن الوفاء بحقه ليس بالشئ اليسير .

وكيف أستطيع مثلاً أن ألى لهؤلاء الأصدقاء الكرام البررة

الذين عادولى فأحسنوا العيادة ، وودعوني فأحسنوا التوديع ،
بما أنا مدين لهم به من شكر وثناء . كيف أفي لهم بذلك وهو أجل
من أن يفي به كاتب ، وأدق من أن يصل اليه واصف . ولا تظن
أنى أغلو أو أسرف كما جرت بذلك عادة الكتاب اذا أرادوا شكرا
أو ثناء . فأنا أبعد الناس عن الغلو ، وأشدّهم بغضا للأسراف ،
ويكفينى اذا أردت شيئا أن أسميه باسمه ، أو أدل عليه باللفظ
الذى وضع له ، ولكنى كنت أريد أن أحدثك عما بعثت في نفسى
عيادة العائدين ، وتوديع المودعين ، من عواطف مختلفة ، وألوان
من الشعور متباينة ، تختلف باختلاف العائدين والمودعين ، وما لهم
في نفسى من منزلة ، وما لى في قلوبهم من مكانة ، ففى ذلك شىء
من النفع ، وفيه بنوع خاص شىء من اللذة . ولكن محاولة ذلك
شاقة ، لأن هناك عواطف قد لا تجد لها أسماء ، وضروبا من الشعور
قد لا تجد لها عبارات تؤديها وتفى بما لها من حق . فليس الناس
جميعا سواء في حبهم لك ، وعطفهم عليك . وليس الناس جميعا
سواء فيما تضرر لهم من حب ، وما تدخر لهم من مودة . واذن
فتأثرك بعيادتهم وتوديعهم يختلف باختلاف منزلتك في نفوسهم
ومكانتهم من قلبك . ولكن هل تستطيع أن تصف ذلك حق
الوصف ؟ أم هل تستطيع أن تجهر منه بالشىء الكثير ؟ أما أنا
فأعتقد أن ذلك على ثقته ولذته محال ، لأن الحياة الاجتماعية

وما تواضع الناس عليه في صلاتهم وعلاقاتهم ، تحول بيننا وبين ذلك وتأباه كل الآباء . فلاكتف اذن بما كان ينبغى أن أكتفى به منذ بدأت هذه الكلمة ، وبما يكتفى الناس به من تسجيل الشكر والثناء للعائدين جميعا والمودعين جميعا ، دون أن أفرق بينهم في اللفظ ، وأن اضطررت واضطر غيرى من الناس الى التفرقة بينهم في مجرى النفس وحديث الضمير . ولنحتمل اذن ، راضين أو كارهين ، هذا الظلم البين الذى تضطرونا اليه حياة الاجتماع ، فليس هو أقل ما تضطرونا اليه الحياة الاجتماعية من ضروب الظلم والتقصير . ولو أننا ذهبنا نحلل هذه الحياة وما فيها من ظلم وبغى ، ومن افراط وتفریط ، لما اتهمنا الى حد ، ولما فرغنا من القول .

ومعما يكن من شيء فإن هناك شعورا لذيذا لا يستطيع أن يتقنه انسان حساس . يحدث في نفسك أثناء المرض وأوقات السفر حين ترى من حولك ناسا يعطفون عليك ويرقون لك ، ويؤثرونك بالمودة واللطف . لذيق جدا هذا الشعور الذى ينبعث في نفسك حينئذ ، فيشعرك بأنك لست وحيدا في الحياة ، وبأن هناك قلوبا قد تحقق مع قلبك ، وتقوسا قد تشاركك في الألم وتشاركك في اللذة . ولست أعرف شعورا يفوق هذا الشعور لذبة وحسن موقع في النفس . والحق أن حظى من هذا الشعور عظيم ،

وأن الغتباطى به واستمذابى إياه قد رافقتانى من القاهرة الى باريس
فجيدت مرافقتهما ، وألست اليهما فى أوقات الوحشة .

فهم : فى أوقات الوحشة ، فأنت اذا سافرت الى مكان بعيد
فصبرت البحر وقطعت الفجاج محس شيئا من الوحشة غير قليل ،
مهما تكن لذة السفر ، ومهما يكن اغتباطك بما ستلقى اذا استقر
بك المقام ، ومهما يكن رفاقك فى هذا السفر الطويل اللذيد . ولقد
كان يرافقتنى فى هذا السفر أحب الناس الى ، وأعزهم على ،
وأراهم بى وأشدهم مشاركة لى فى لذات الحياة وآلامها . كانت
ترافقتنى زوج برة كريمة ، وطفلان هما كل ما آمل فى الحياة . ومع
هذا فقد وجدت شيئا من الوحشة تسليت عنه بهذا الشعور اللذيد
الذى كان يرافقتنى ، بذكرى أولئك الأصدقاء العائدين والمودعين ،
بالفاظهم الطوة ، وعباراتهم التى كانت تمتلىء رققا وودا وإثارا .
أعبرت البحر ؟ أحسست فى السفينة ما أجد من ضروب الحس
وما أشعر به من مختلف الشعور ؟ يتحدث الناس بأن الأند بين
مصر وأوربا قصير ، وبأن عبور البحر لذيد ، وبأنه أمن لا خطر
فيه ، أو لا يكاد يوجد فيه شىء من الخطر ، وبأن المسافرين ليس عليه
الا أن يركب السفينة ويستسلم لما فيها من راحة ولذة وتبليية ،
حتى ينقضى السفر ، ولا سيما اذا كان مشلى لا يخشى الدوار
ولا يتعرض لشره . بذلك يتحدث الناس ، ولعلمهم معقون ، بل

لا أشك في أنهم محقون . ولكنى أعترف بألى لم أشعر بذلك ولم أحس هذا الأمن وهذه الدعة يوما من الأيام منذ ألفت عبور البحر ، وانما وجدت ويظهر أنى سأجد دائما الى جانب هذه اللذة التى يحسها من يمر البحر شعورا خفيا جدا . لا أقول انه الخوف ولا أقول انه يشبه الخوف ، وانما أقول انه يظهر الانسان على قيمته الحقيقية ، وعلى مكائته الصحيحة من هذا الوجود . نعم ليس هذا الشعور خوفا ، وليس شيئا يشبه الخوف ، ولكنه شيء ينبىء الانسان بأنه ضئيل ، ضئيل جدا لا يكاد يذكر ، وبأن حياته شيء أوهن من نسج العنكبوت ، لا قدرة له على الثبات ولا على مقاومة الأحداث . واذا أحس الانسان أنه ضئيل الى هذا الحد ، وأن أسباب حياته واهية واهنة الى هذا الحد ، ملكه شيء من البؤس والاشفاق أحسب أنه وصله عسير .

اضطرب البحر ذات ليلة اضطرابا شديدا ، واصطخبت أمواجه وعصفت الريح ، فكنت لا تسمع الا هدير البحر ، وعصف الريح ، وصوتا لأخشاب السفينة يشبه الشكوى . وكان السفر نياما . فكنت لا تسمع صوت انسان . وكان هذا المزاج المؤتلف من هذه الأصوات الثلاثة التى ذكرتها لك وحده يملك عليك سمعك وتفسك ويضطرك الى أن تحلله وتفكر فيه ، والى أن تفكر فى تفكك وتقسيمها الى هذا الروح الذى يكتنفك ، والهول الذى يحيط بك .

ولم يكن في نفسى شيء من الخوف ولا من الاشفاق ، لأننى أعلم أن ذلك شيء مألوف ، وأنتك تمر البحر كما تقطع شارعاً من الشوارع ، ومع ذلك فقد شمعت حقاً في هذه الليلة بأن الانسان ليس شيئاً مذكوراً ، كما أنه لم يكن شيئاً مذكوراً ، وكما أنه لن يكون شيئاً مذكوراً ما دامت الطبيعة على ما هي عليه من القوة والجلال .

في مثل هذا الوقت يذكر المؤمن ربه ويلجأ اليه ، ويتقرب اليه بضروب العبادة وفنون التقوى . وفي هذا الوقت يؤمن الملحد أن كان ضعيفاً ، ويزداد عتواً إن كان ممعناً في الالحاد ، فيسخر من الحياة كما يسخر من الموت ، يهزأ بما اشتملت عليه هذه ، ويزدري ما عسى أن يخفيه هذا . وأعترف بأننى في هذا الوقت أحسست شيئاً قد ينكره على المؤمنون والملحدون جميعاً ، أحسست أن إيمان المؤمن والحاد الملحد ضرب من الكبرياء وغلو الإنسان في تقدير نفسه واكبار منزلتها . فإن هذا المؤمن الذى يعتقد أن خالق الكون ومديره ، خالق هذا الكون العظيم الذى لا تشعر بعظمته وأنت مستقر في دارك ، أو لاه بالتحدث الى رفاقك ، أو القراءة في كتابك ، وانما تشعر بعظمته حين لا تسمع الا هدير البحر ، وعصف الرياح ، وشكوى السفينة . وحين تشعر شعوراً واضحاً جداً بأن أسباب الحياة ضعيفة واهية ، وبأن أقل شيء يستطيع أن

يحطم هذه السفينة التى تقاىك ، وأن يقطع كل ما بينك وبين النجاة من سبب فتصبح نسيا منسيا ، كأنك لم تكن قط ، وكأنك لم تعرف ، أحدا ، وكأن أحدا لم يعرفك . أقول ان المؤمن الذى يعتقد ان خالق هذا الكون العظيم ومدبره يختصه بالبر والرحمة ، فيعطى به ويحوطه ويحفظه من الطوارئ ، ويعصمه من الأحداث ، ويرعاه فى كل لحظة ، بل فى كل جزء من أجزاء اللحظة ، متكبر يرى نفسه شيئا مذكورا يستحق هذه العناية المقدسة العظمى مع أن فى هذا الكون ما لا يقاس الانسان اليه عظمة وجلالا .

وهذا الملحد الذى يستشعر الاتحاد ويتخذ مذهباً وعقيدة ، فيعاند وينازع ويدفع عن الحاد كما يدفع المؤمن عن ايسانه ، وينكر الله كما يشبه المؤمن ، ويعتقد أن العقل كل شيء ، وأن آثار العقل وحدها خليفة بالاجلال والاكبار ، وأن نجاة الانسان فى عبادة العلم والاذعان له ، لا فى اكبار الدين والخضوع لأوامره ونواهيه . هذا الملحد الذى يمن فى الغرور بقوة العقل والعلم وآثارهما ، وبأنه قد سخر لنفسه الطبيعة فذل الماء والهواء والبحار واتخذ الطبيعة لنفسه عبدا يأمر فتطيع وينهى فتنتهى ، مغرور متكبر . لأن عقله وعلمه وقوته وذكائه مهما تبلغ من العظمة والسلطان ، فلن تستطيع أن تعصمه من الأحداث ، ولا أن تجعله بئامن من أقل هذه الأحداث خطرا وأخطا مكانة . بهذا شعرت

وفي هذا فكرت. وأعترف بأنني لم ألم المؤمنين على إيمانهم ، ولا الملحد على الحاد . وإنما أحسست شيئا من الأسفاق على هذا وذلك . وتمنيت لو أتيح للإنسان أن يكون مؤمنا وعالما دون أن يغلو في التعصب للدين أو للعلم . تمنيت للإنسان لو استطاع أن يجمع بين هاتين القوتين اللتين ليس له عنهما غنى ولا منصرف . فإن قوة الدين تعصمه من اليأس والهلع وتفتح أمامه أبوابا من الأمل الذي ليس له حد ، وتمكنه أن يلقي الخطوب ويتجشم الأخطار راضيا مطمئنا راجيا مستبشرا . وقوة العلم تمكنه من الحياة . ولكن يستطيع الإنسان حقا أن يجمع في نفسه بين هاتين القوتين ، وأن يطمئن إلى كليهما اطمئنانا بريئا من التناقض والاضطراب ، يطمئن إلى الدين دون أن ينكر العقل ويطمئن إلى العقل دون أن يجحد الدين ؟

يتحدثون أن كثيرا من العلماء قد وفقوا إلى هذا ، وأن « باستور » على جلال خطره وبعد أثره في العلم كان أشد الناس تدينا وأكثرهم إيمانا ، فمتى يكثر في الناس أمثال « باستور » ؟ على أن هذا المشهور وما استتبع في نفسى من تفكير أو هذيان لم يكن كل شيء أحسنه في السفينة فقد كانت هناك أشياء أخرى لا تخلو من نفع ، كان أكثر رفاقنا في السفينة من الانجليز ، وكنت أجهل الانجليز ، وما زلت أجهلهم ، ولكنى كنت أتصورهم

قوما أميل الى الجد منهم الى الهزل ، وأميل الى القلوب منهم الى
الابتهاج وأميل الى السكون والتؤدة منهم الى الحركة والنزق ،
ولعلمهم كذلك ، ولكنهم لم يكونوا كذلك في السفينة ، قلم أدر
جماعة أميل الى الفرح وأشد تعلقا بأسبابه ولا أكثر امعانا في
الضحك وهذه اللذة البريئة من هذه الجماعات الانجليزية التي
كانت تملأ السفينة والتي كانت تقضى يومها وجزءا من ليلها في
فرح ومرح ونشاط عظيم ، وحسبك أن غرفة المائدة لم يكن يملؤها
أثناء الطعام الا قهقهة عالية جدا متصلة جدا لا تعرف الهدوء
ولا الانقطاع ، تمتزج فيها أصوات الرجال والنساء امتزاجا لا يخلو
من لذة ولا يعجز عن أن يحملك على الضحك وإن كنت أشد
الناس جدا وأكثرهم عبوسا .

شيء آخر وجدته في السفينة فأذكرني أول يوم قضيته في فرنسا
بل أول ساعة قضيتها في باريس سنة ١٩١٤ ، هذا الشيء أو بعبارة
أصح هذا الشخص هو حلاق السفينة ، اضطرت الى غرفة هذا
الحلاق ، واضطرت طبعا أيضا الى أن أسمع لحديث هذا الحلاق ،
وأحاديث الحلاقين مشهورة من قديم الزمان وفي جميع البيئات ،
في بغداد والقاهرة ، في آسيا وأوروبا ، في العصر القديم والعصر
الحديث بالثقل والسخف ، وبأنها مصدر الملل والأذى ، ولكنني
أؤكد لك أن حديث حلاق « الامفنكس » لم يكن ثقيلا ولا سخيفا

ولا هملا ، بل أؤكد لك أن حديثه كان لذيذا ممتعا ، بل أوصيك بأن تتحدث الى حلاق « الاسفنكس » اذا ركبت « الاسفنكس » .
تحدث الى حلاق « الاسفنكس » في سياسة فرنسا وفي سياسة فرنسا من جميع وجوها : مع ألمانيا ومع إنجلترا ، في سوريا وفي الجزائر ، وقارن لي حلاق « الاسفنكس » بين المذهبين الانجليزى والفرنسى في الاستعمار ، وألم لي حلاق « الاسفنكس » بطرف من سياسة الأحزاب البرلمانية في بلده ، وكان حلاق « الاسفنكس » اشتراكيا من الوجهة النظرية ، ولكنه يأس من مذهبه الاشتراكى ، فهو كثيره من الناس في الحياة العملية ، وأؤكد لك أنى وجدت لذة جديدة عظيمة في الاستماع الى حلاق « الاسفنكس » وذكرت أول خادم فرنسية لقيتها في مرسيليا سنة ١٩١٤ فتحدثت الى بما يشبه هذا الحديث ، وتمنيت لو كنا جميعا في مصر كحلاق « الاسفنكس » ! وأحسب أنا سنقطع زمنا طويلا جدا قبل أن تصل كثرتنا المطلقة من التعليم والتهديب الى حيث وصل حلاق « الاسفنكس » .

قرأت في السفينة قصة تمثيلية صغيرة عنوانها « الملك » وضعها الكاتبان الفرنسيان « روبر دى فلير » و « كيافيه » فضحكت لها كثيرا وأعجبت بها كثيرا ، ودعوت بالحياة للحرية كثيرا ، وكنت أحي أن أحدثك عن هذه القصة ، ولكن أخلاقنا السياسية

والاجتماعية لا تسمح بذلك . ومع هذا فليس في القصة شيء غريب
وانما يصف الكاتبان زيارة ملك خيالى لمدينة باريس ، ويتخذان
هذا الوصف سبيلا الى تناول النظم السياسية والاجتماعية كلها
يأشد النقد شناعة وأكثره مرارة ، يذمان نظام الملكية ، ويذمان
نظام الجمهورية ، ويسخران من الديمقراطية كما يسخران من
الارستقراطية ، وكما يسخران من الاشتراكية : القصة هجاء شنيع
للجماعة الانسانية في كل مكان وفي كل زمان ، وقد اختار الكاتبان
باريس موضعا لهذه القصة لأن باريس تكاد تختصر العالم الانسانى
على اختلاف أزمته وأمكنته .

لا أمتطع أن أحدثك عن هذه القصة ولكنى أستطيع أن
أوصيك بقراءتها . فستجد فيها تقعا وستجد فيها لذة . ثم وصلت
الى باريس ، صباح أمس ، فاذا الناس جميعا يلهبون بشيء واحد ،
تنطق به أفواههم ، وتكتب فيه صحفهم ، لا يلقي أحدهم الآخر
الا سألة عنه وتحدث اليه فيه أسفا مرة أشد الأسف ، معجبا مرة
أخرى أشد الاعجاب ، جامعا في أكثر الأحيان بين ذلك الأسف
وهذا الاعجاب ، وهو موت الممثلة الفرنسية « ساره برنار »
ولكننى قد أطلت ، فسأحدثك عن « ساره برنار » في غير
هذا المقال .

باريس في ٢٨ مارس سنة ١٩٢٣

سارة برنار

تركت القاهرة يوم الأربعاء ووصلت الى باريس يوم الثلاثاء ،
 فاذا الناس يتحدثون بموت « ساره برنار » أو لا يتحدثون
 إلا بموت « ساره برنار » ، واذا كثير منهم لا يكتفى بالحزن
 الصامت ، أو الاعجاب المقتصد . بل يتحدث ويشرح ويفصل ،
 ويروي ما سمع وما رأى ، ويصف ما أحس وما شعر به حين شهد
 « ساره برنار » تلعب فى « ذات الكاميليا » أو فى « النسيخ » أو فى
 « المجد » أو فى غيرها من القصص ، وربما تحدث عما رأى وسمع
 من أبهة « ساره برنار » ومجدها واقتان الناس بها واقتانها هم
 بالناس ، وعما كانت تكسب من مال لا يحصى فتتفقه وتستدين ،
 ثم تكسب فتؤدى الدين ثم تستدين من جديد . وعما كان بينها
 وبين كبار الناس وزعمائهم فى العالمين من صلات قوية أو ضعيفة ،
 متينة أو رثة ، وعما قدم اليها الملوك من تجلة ، وأهدى اليها العظماء
 من تكرمة ، وعن جمالها الباهر ، وصوتها الساحر ، وأعاجيبها
 وألاعيبها واقتانها فى كل شيء : فى الهزل والجد ، فى التمثيل

والتصوير والنقش والكتابة والعبث ، وعن هذا الضعف الشديد
الذى كان يلزم جسها فيجعل حياتها في أكثر الأحيان معلقة بين
اليأس والرجاء ، أقرب الى اليأس منها الى الرجاء ، وهذه القوة
المدهشة التى كانت تلازم نفسها فى كل وقت من أوقاتها ، وفى كل
طور من أطوار حياتها فتجسها الأهوال وتكلفها الأعاجيب ، وتنب
بها من أوزبا الى أمريكا والى استراليا ثم الى مصر ، ثم الى فرنسا ،
ثم الى السويد والرويح وغيرها من بلاد الله . وتقف الناس منها
موقف الحائرين الدهشين الذين يعجبون ويعجبون الى غير
حد ، وهم لا يدرون بهم يعجبون ؟ بالذكاء النادر ؟ بالجمال الباهر ؟
بالصوت الساحر ؟ بالقوة التى لا حد لها ؟ بالأمل الذى لا يخشى
اليأس ولا يحسب له حسابا ؟ بالنفس التى ليس لها مثيل .. ؟
بهذا كله كان الناس يعجبون سواء منهم من أحبها ، وسواء منهم
من أبغضها . كل بها معجب . وكل لها مكبر فى كل وقت وفى
كل طور .

بهذا كله كان الناس يتحدثون يوم نعت اليهم « ساره برنار »
ومن قبل ذلك أنبأهم الصحف بأن « ساره برنار » مشرقة على
الموت فجزعوا وهلموا وأسرع جماعاتهم المختلفة الى بيت المريضة
فازدحمت حوله وامتلا بها الشارع ، وكان من هذه الجماعات من
يتاح له الدخول الى بيت المريضة فيسال ويستعلم ويكتب اسمه

ثم ينصرف ، وكان من هذه الجماعات من لا يتاح له هذا الحظ
فيرابط في الشارع يتنسم الأنباء ويتصيد الأخبار ، يرى الصحفي
ميسأله ، ويلمح الطبيب فيستنبئه ، كذلك قضى جمهور ضخمة من
أهل باريس يوم احتضار « ساره برنار » ، فلما كان الموت لم يحل
الشارع ولا البيت من هذا الجمهور ، وانما ازدادا به امتلاء
وازدحاما ، وما هي إلا أن جهزت الميتة بجهازها الأخير حتى أذن
لناس فأقبلوا على البيت أفواجا ، وأخذوا يمرون أمام هذه الجثة
الهامة التي طالما بعثت فيهم الحياة يوما كاملا ثم تشيع الجنازة ،
فتقول الصحف ان ٦٠٠ ألف من أهل باريس اشتركوا فيه ، وان
القبين من الشرطة اشتركوا في حفظ النظام ، وان أروسة الشوارع
التي مرت بها الجثة كانت مكتظة بالناس على اختلاف طبقاتهم
ومنازلهم وأسنانهم ، وان الزهر كان ينثر على التابوت من أولئك
الذين تقلت بهم سطوح الدور والحواريات وامتلات بهم نوافذها ،
ولم يكن الشعب وحده المحتفل بتشيع هذه المثلة وانما احتفلت
به الجمهورية وبلدية باريس ، وتنافسنا أيهما تقوم بنفقات الجنازة
ولم تكن فرنسا وحدها المحتفلة بتشيع هذه المثلة، وانما اشتركت
فيه أوروبا وأمريكا ومن الملوك والملكات من أرسل الى أسرة
المثلة يزيها ويعطف عليها .

كان هذا كله في الأسبوع الماضي ، وكنت في باريس أسمع

الناس يتحدثون به . وأقرأ ما كانت الصحف وما لا تزال تكتب فيه فكنت أسأل نفسي إلى أي حد ينبغي إعجاب الناس بالنبوغ واكبارهم للتابعين إذا كان هؤلاء الناس من الرقى العلمى والخلقى بحيث يفهمون النبوغ والتابعين .. وكنت أذكر مصر فى هذا كله وكيف يستطيع مصرى ألا يذكر مصر وأهل مصر كلما رأى أو سمع ما يبهره ويسحره . كنت أذكر مصر وأسأل نفسي : متى يتاح لمصر تابعة « كساره برنار » أو على أقل تقدير متى يبلغ أهل مصر من الرقى العلمى والخلقى ما يمكنهم من أن يقدروا تابعة « كساره برنار » ؟ لم تبلغ فى السياسة ، ولا فى الدين ، ولا فى العلم ، وإنما نبغت فى الفن ، وفى فن هو سىء الجذع جدا عند المصريين ، نبغت فى التمثيل الذى يزدرىه أكثر المصريين ، ويفهمه قليل من المصريين على غير وجهه ، ولا يفهمه حقا بين المصريين إلا بقر يكادون يحصون .

لم أسمع « ساره برنار » ولم يتح لى على طول ما أقمت فى باريس أن أحضرها فى ملعب من ملاعب التمثيل ، فلست أستطيع أن أحدثك برأى فيها ، ولست أستطيع أن أكون لى فيها رأيا ، ولكنى أستطيع أن أحدثك برأى الناس فيها ، وبرأى الناس الذين لا يهتمون ولا يستطيعون أن لا أنا أن نضع آراءهم وأحكامهم موضع الشك ، ولكن من « ساره برنار » ؟ لا يعرف أبوها ، والما

يقولون انها ولدت سنة ١٨٤٤ في باريس أو في برلين ، ولا يتفق الذين يقولون انها ولدت في باريس على موضع ميلادها ، بل ان « ساره برنار » نفسها ذكرت لهذا الميلاد موضعين مختلفين ، وتحدثت أن ألمكرة ميلادها قد مزقت أو ضاعت ، ويقول الناس ان أباهما كان هولانديا اسرائيليا تنصر ، ويقول آخرون ان أباهما كان فرنسيا عظيما مشتغلا بالسياسة الدولية ، ويشفقون جميعا على أن أمها « جولي برنار » لم تكن تنسب الى أسرة مستقرة وانما كانت من هؤلاء الناس الرحل الذين يتنقلون من مكان الى مكان لا يستقرون في وطن ولا يطمثون الى دار ، كانت أمها يهودية وكان أبوها مسيحيا أو يهوديا تنصر ، وكان اسمها الأول « روزين برنار » ويقال ان أباهما النصراني أو المنتصر ألح في أن تكون تربيته دينية فنشأت في الدير وتأثرت بحياته تأثرا شديدا حتى أظهرت الرغبة في أن تكون راهبة ولكنها اشتركت في تمثيل قصة دينية مدرسية فأعجب بها أحد من رآها « الدوق دي مورني » ونصح بأن تتخصص في التمثيل ، وشملها منذ ذلك الوقت بحمايته فذهبت الى الكونسرفتوار (Conservatoire) (مدرسة التمثيل) ونالت فيه اعجاب أساتذتها ولكن فوزها في المسابقة لم يكن باهرا ولا متصلا ثم اتصلت بلعاب كبيرة مختلفة فلم تنل من الفوز ما كانت ترجو ، فيست أو كادت تيأس من التمثيل ومن فرنسا .

وليس في هذا شيء من العجب ، فالكثير النابغين عرف سوء
الحظ قبل أن يعرف المجد وبهاة الذكر ، وربما كان من أهم
الأسباب التي حالت بين المثلة وبين الفوز الباهر نفس نبوغها ،
فقد كانت لها طرائق مختلفة ومذاهب غريبة لم يألفها الجمهور
ولم يطمئن إليها ، فلم يكن غريبا ألا يشتد إعجابه وتهالكه عليها .
على أن « ساره برنار » لم تكده تبلغ الثلاثين حتى كانت عضوا
شريكا في أكبر دار من دور التمثيل في « بيت مولير » ، وكانت
تلعب القصص المختلفة على تباين عصورها ومذاهبها ، وكانت
تبلغ في هذه القصص فوزا عظيما في كثير من الأوقات حتى كتب
إليها « فكتور هوجو » سنة ١٨٧٧ يقول : « لقد كنت عظيمة
خلابة . لقد أثرت في أنا المجاهد الشيخ . ولقد كان الجمهور في
وقت من الأوقات سعيدا يملؤه الحنان فيعطف ، أما أنا فكنت
أبكي » .

ربما كان من الحق أن توازن بين « ساره برنار » وبين
« السبيد » الأتيني المشهور ، كلاهما كان فتننة المدينة التي نشأ
فيها وكلاهما كان يحب إعجاب الناس به وتحديثهم عنه ، ويشكلف
لذلك الأغاجيب ، ويفعل في سبيله ما لا تبيحه العادة ولا تسمح به
الأوضاع المألوفة . يقال إن « السبيد » كان له كلب فتن الأتنيين
فتحدثوا عنه دهرا ، فلما انتهى إعجابهم به كفوا عن الحديث فيه

فقطع « السبياد » ذنب الكلب ليعود الأتينيون فيذكروه . وكانت
أعاجيب « السبياد » وثقاته أكثر من أن تحصى ، وكان لا يتكلف
هذه النفقات وتلك الأعاجيب الا ليفتن الناس ويحصلهم على اطالة
الاعجاب به والتفكير فيه ، كان سىء السيرة وكان له زوج برة
شرفه جزعت لسوء سيرته فذهبت الى « الأركون » تطلب الطلاق
وبلغ ذلك « السبياد » فأسرع الى مجلس « الأركون » فلما رأى
زوجه بين يديه انهال عليها لثما وتقيلا وملاطفة وحماها بين ذراعيه
وعاد بها الى بيته ، والأتينيون من حوله يصفقون له ويهتفون
باسمه وامرأته بين ذراعيه قد رضيت عنه واطمأنت اليه ، كذلك
كان « السبياد » ، وكذلك كانت « ساره برنار » ، كانت فتنة
باريس وكانت تحرص على أن تظل فتنة باريس ، فكانت تفعل
كل شيء يجعلها حديثا لاهل باريس .

كانت تملأ غرفتها بالهاكل العظيمة وتنام بمنظر من الناس في
تابوت مبطن بالحرير الأبيض وتستأنس كثيرا من الحيوان الوحشى
كانت تدهش الناس بأزيائها المختلفة الغريبة ، تتخذ زى الرجال
حيناً ، وبدعا من أزياء النساء حيناً آخر ، كانت تدهش الناس
بأحاديثها ومقالاتها وصورها ، وكانت على اختلاف متصل عتيق
مع مدير « بيت مولير » حتى كان يسميها هذا المدير « الأنسة
ثورة » (١) .

(١) أنظر مجلة « الألوستراسيون » عدد ٣١ مارس سنة ١٩٢٣ .

فلما كانت سنة ١٨٨٠ ضاقت « ساره برنار » بالحياة في باريس وأحست أن هذه المدينة، لا تسعها ، بل أن فرنسا كلها لا تسعها فاستردت حريتها وخرجت من « بيت مولير » خرجا عفيفا وفتى أمام القضاء الذى قضى عليها بغرامة ، وسافرت الى لندره ثم الى السويد والنرويج ثم الى أمريكا ، وكان سفرها الى أمريكا فحما ضخما كثر حوله الضجيج والعجيج . وقال كثير من مؤرخيها إن كثيرا من الممالك لم تنظر بما ظفرت به هذه المثلة من الفوز والاكبار فى هذه السياحة . ولم تقف أسفارها الى هذا الحد ، بل زارت أكثر أقطار الأرض المتحضرة ونالت فيها فوزا باهرا لم يكن مقصورا عليها بل كان يتناول فرنسا معها ، ولقد ذهبت فى بلاد المجر مرة فرفعت الأعلام الفرنسية فى كل مكان ذهبت اليه رغم الأوامر التى صدرت من فيينا بحظر ذلك .

ولهذا فتن الممثلون بهذه المثلة التى كانت أحسن سفير نشر الدعوة الفرنسية فى أقطار الأرض وأحسن تمثيل العقل الفرنسى والفن الفرنسى والأدب الفرنسى ، حتى قرنها كثير من الكتاب الى نابليون ، ولست أدري الى أى حد تصح هذه المقارنة . ولكنى لا أشك فى أن « ساره برنار » خدمت فرنسا ورفعت ذكرها الى حد لم يبلغه كثير من قوادها الفاتحين .

أما نبوغها الفنى فلست أستطيع أن أحدثك عنه ، وإنما أترك ذلك للنقاد الفرنسي « جول ليمتر » الذى كان بها مفتونا والذى يحدثنا بأن مصدر نبوغها واقتناذ الناس بها ثلاثة أشياء : صوتها الذى سماه فكتور هوجو ومن بعده الفرنسيون جميعا : « الصوت الذهبى » يقال انها كانت تتغنى فى تمثيلها بالنثر والشعر جميعا ، وكانت ماهرة فى تصوير صوتها صورا مختلفة ملائمة ملائمة غريبة لموضوع الحديث الذى كانت تناوله ، فكان صوتها مرة يشبه الغدير المنساب ، وأخرى يتلوى ويتهدج ، ومرة يرتفع ، وأخرى يتخفص حتى كأن الجمهور معلقا بهذا الصوت الضئيل القوى الشفاف .

الثانى حركاتها فى الملعب ، فقد يحدثنا « جول ليمتر » بأنها أحدثت فى التمثيل ما لم يحدثه أحد قبلها ، فكانت تلعب بجسمها كله أى أنها كانت تحقق ما تمثله ، فلم تكن تخيل الى الناس أنها تلثم أو أنها تعانق . وإنما كانت تلثم وتعانق بالفعل ، وكانت تفعل ما هو أبلغ فى الدهشة من اللثم والمعانقة .

الثالث ذكاؤها ، فقد كانت أقدر الممثلين على فهم الفصول التى كانت تلعبها ، كانت تفهم هذه الفصول كما فهمها المؤلف ، وربما فهمتها خيرا مما فهمها المؤلف ، ومن هنا خلقت « ساره

برنار « كثيرا من القصص ، وكثيرا من المؤلفين ، ولكن يستطيع
« فرانسوا كوبيه » ولا « ادمون روستان » أن يستأثرا بما أدركا
من فوز في ملاعب التمثيل انما « لسهار برنار » الحظ الموفور
من هذا الفوز .

وانظر الى هذا الوصف الذي نشرته « الأليستراسيون »
وكتبه « ادمون روستان » فهو وحده يعطيك منها صورة
خليفة بها :

« تنقف عربة أمام باب ، فتسرع بالنزول منها امرأة قد التفت
في الغزو الكثير ، تشق الجماعات التي اجتمعت حين سمعت جرس
عرشها تاركة لهذه الجماعات احدى بسمااتها ثم تصعد في خفة سلما
ملتوية ، وتغير على « لوج » مزدهر شديد الدفء ، فتلقى في
ناحية حقيبتها ذات الشرائط التي تحتوى على كل شيء ، وفي
ناحية أخرى قلنسوتها ، تزينها أجنحة العصفير ، واذا هي قد
انخفضت فجأة حين خرجت من فورها فما هي الا غمد من الحرير
الأبيض ، ثم تقذف بنفسها على ملعب مظلم ، فلا تكاد تصل حتى
تبعث الحياة في جماعة ممتعة تشاءب في الظلام ، تذهب ، تجيء ،
تبعث الحمية في كل ما تمس ، تأخذ مجلسها في المخبأ ، تنظم
المنظر ، تشير الى ما ينهى من الحركات ونبرات الصوت ، تنقف ،
تطلب الاعادة ، تزايد غضبا ، تجلس ، تبسم ، تشرب الشاي ،

تمتتح جبينها ، توشك أن يغى عليها ، تب فجأة الى الطبقة الخامسة من الملعب وتظهر لصاحب الأزياء مضطربة ، وتبحث في خزان « الأقمشة » وتؤلف الأزياء ، تنظم ، ترتب ، تهبط الى « لوجها » لتعلم النساء اللاتي يظهرن في الملعب كيف ينبغي أن يرجلن شعورهن ، ثم تعيد منسقة ملاقات الزهر ، ثم تسمع مائة رسالة وترق لبعض الاستعطافات ، تفتح غالبا جنتيتها الرنانة التي تحوى من كل شيء ، تفاوض حلاقا انجليزيا ، تعود الى المسرح لتنظم اضاءة منظر من المناظر ، تسب أدوات الاضاءة ، تقف عامل الضوء على اسائه ، يمر بها أحد العمال فتذكر غلطة اقترفها أمس فتصعقه بسخطها ، تعود الى لوجها لتتغشى . تجلس الى المائدة مستقعة في جلال مهينة باستعمل ، تأكل في ضحك غريب ، ليس لديها الوقت لتتم عشاءها ، تلبس ثيابها للتشيل بينما يحدثها المدير من وراء ستار ألوانا من الأحاديث ، تمثل متهالكة ، تدبر ألف شيء بين الفصول ، ينتهى التمثيل فتبقى في الملعب لتدبر أمرها الى الساعة الثالثة صباحا ، ولا تعتزم السفر الا حين ترى الناس جميعا من حولها ينامون وقوفا احتراماً لها ، تصعد الى عربتها ، تتمطى في فروها مفكرة فيما ستجد من لذة حين تستلقى في السرير ، ثم تنهقه لأنها ذكرت أن هناك من ينتظرها في البيت ليقرأ عليها قصة ذات خمسة فصول ، تعود الى البيت : تسمع القصة ، تفتن بها ،

تبكى ، تقبلها ، لا تستطيع النوم ، فتنهز الفرصة لتدرس دوراً
من أدوار التمثيل .. » .

كذلك وصفها « ادمون رويستان » ، أما أنا فلست أدري
أعجب بالواصف أم بالموصوف ؟ ولكنى أعتقد أنى بهذه الترجمة
السقيمة قد أعطيتك أحسن صورة لهذه المثلة النابغة ، ولست
أريد أن أختتم أنا هذا المقال ، وإنما أريد أن يختمه « جول ليمتر »
بهذه الكلمة الحلوة التى كتبها يودع بها « ساره برنار » وقد
اعتزمت أحد أسفارها الى أمريكا .

« تمنى لك يا سيدتى سفراً سعيداً ، آسفين أشد الأسف .
لأنك ستفارقيننا زمناً طويلاً ، ستظنن قسك هناك لقوم عظمهم
من الفن والأدب قليل ، سيئون فهمك وينظرون اليك كما ينظرون
الى عجل ذى قوائم خمس ، ويرون فيك الشخص الغريب الصاحب
لا الفئالة الخلافة الى غير حد . قوم لن يقدرُوا نبوغك الا لأنهم
دفعوا ثمناً باهظاً ليستبحوا اليك ، اجتهدى فى أن تحتفظى بظرفك
وأن تعيديه إلينا كاملاً ، فانى آمل أن تعودى وان كانت أمريكا
بعيدة الشقة ، وان كنت قد تحملت من الخطوب وتجشمت من
الأخطار ما لم تتحمل ولم تتجشم أبطال الأساطير ، اذن عودى الى
« بيت مولير » واستريحى الى الاعجاب والحب اللذين يدخرهما
لك هذا الشعب الباريسى طيب القلب الذى يغفو لك عن كل شئ »

لأنه مدين لك بكثير من لذاته الكبرى ، ثم في مساء لذيذ موتى
فجأة على مسرح التمثيل في صيحة هائلة من صيحات الجزع فان
الشيخوخة أثقل من أن تحتليها ، وإذا كان لديك من الوقت
ما يمكنك من التفكير قبل أن تنغمس في الليل الأبدى فاحمدى
كما يفعل مسيو « رينان » العلة الأولى الغفوية ، لعلك لم تكونى
من أشد النساء في هذا العصر حكمة واعتدالا ، ولكنك عشت
أكثر مما عاشت جماعات ضخمة وكنت من أجمل مظاهر الظرف
التي أطافت بالناس فأحسنت عزاءهم في هذا العالم المتغير ، عالم
الظواهر الطبيعية ..

باريس في أول ابريل سنة ١٩٢٣

بيثيلوب

لم يطل ليلى ولكن لم أنم وتفق عنى الكرى طيف ألم
ولكنه لم يكن طيف هند ولا عبده ، لم يكن طيف عربية
ولا مصرية ولا أوربية ، وانما كان طيف امرأة بقى اسمها فى ذاكرة
الانسانية ، وذهبت بشخصيتها الغير والأحداث ، ولعلها لم توجد
قط ، ولعل التاريخ لم يعرف من أمرها قليلا ولا كثيرا ، ومع ذلك
فقد قضيت الليل أفكر فيها بل أسمع الى حديثها ومناجاتها ، هادئة
مرة ثائرة مرة أخرى ، يملؤها الحنان حيا ، وتملكها الوحشية
حيناً آخر ، قضيت الليل أفكر فيها وأسمع لأحاديثها ونجواها حين
كانت تتحدث الى خدمها ، وحين كانت تتحدث الى عشاقها ، وحين
كانت تتحدث الى مرضع زوجها ، وحين كانت تناجى الآلهة متلطفة
آنا ومحنقة آنا آخر ، ثم حين كانت تناجى خيال زوجها الغائب
وتتحدث الى زوجها وقد آب بعد غياب طويل ، قضيت الليل
أفكر فيها واستمع لحديثها ، وأعجب بقدرة الفن — لا أقول على
أحياء من مات وتجديد ما اندثر — بل على خلق ما لم يوجد

والتخيل اليك أنه قد وجد وأثر في الحياة آثارا أبقى من أن ينالها
الفناء ، لم يكن هذا الطيف طيف عربية ولا مصرية ولا أوروبية ،
وانما كان طيف يونانية ، كان طيف « ينيلوب » زوج « أوليس »
(Ulysse) بطل « الأودسا » .

سمعتها أمس في دار من دور الموسيقى « في الأوبرا كوميك »
(Opéra - Comique) تتغنى عشقها ولوعتها وحزنها لبعد من أحبت
وجزعها لقرب من كرهت ، ففتنت بها ولم أفارق صوتها ولأعواطفها
طوال الليل وجزءا غير قليل من النهار .

لست أدري أقرأت « الأودسا » أم لم تقرأ ، وأنا أسمح لنفسى
بهذا الشك لأنى أعلم علم يقين وتجربة أن الأدب اليونانى سىء
الحظ في مصر ، وأن سوء حظه قد بلغ من الشدة الى حيث
لا نستطيع تقديره أو تقدير عواقبه السيئة ، نجهل الأدب اليونانى
— لا أقول جهلا تاما — بل أقول جهلا فاحشا مخزيا لا يليق بقوم
يحبون الحياة أو يطمعون فيها ، نجهل هذا الأدب جهلا فاحشا
بحيث نستطيع أن نحصى المصريين الذين يعلمون ما « الأودسا »
وما « الالياذة » ومن « أوليس » ومن « ينيلوب » ، ومع ذلك
فقد كانت « الأودسا » و « الالياذة » وما زالتا وسشظلان دائما
ينبوع الحياة للأدب والفن : للشعر والنثر والنحت والتصوير
والتمثيل والموسيقى، بليت القرون ولم تبل «الالياذة» و «الأودسا»

قلت الأمة اليونانية وفنيت الأمة الرومانية واختلفت المصور
والظروف على أوروبا في العصر المتوسط وفي العصر الحديث ،
وستبقى أمم وتختلف عصور وظروف ، وتظل آيات « الياذة »
و « الأودسا » جديدة خالدة محتفظة بقوتها وبهائها وروقتها على
وجه الدهر وتعاقب الأحداث ، ولا نكاد نحن نفترض وجود
« الياذة » و « الأودسا » فإذا افترضنا وجودهما فلا نكاد نعلم
بشيء مما فيهما .

الى هذا الحد وصلنا من الجهل بمصدر الحياة للأدب والفن ،
ويظهر أنا إذا لم نستطع أن نعلم النظر في هذا الجهل أكثر مما أمنا
فليس وراء هذا الحد مطمع لمن يحب الجهل ويرغب فيه ، أقول
إذا لم نستطع أن نعلم في هذا الجهل أكثر مما أمنا فيظهر أنا لا نريد
ولا نحاول أن نخلص منه قليلا أو كثيرا ، يظهر أنا سنظل على
ما نحن فيه من جهل الأدب اليوناني والفن اليوناني ، لأنا نرى كل
شيء يتغير في مصر ، ونرى الرقي تناول كل شيء إلا التعليم ، فهو
بعمد الله باق حيث كان ، لأن المشرفين عليه لا يفكرون في تغييره ،
ولعلمهم غير قادرين على أن يفكروا في تغييره ، سيظل تلاميذنا
يخطئون بين أتينا وصقلية كما يخطئون بين الاسكندر وهانيبال .
ولكني بعدت عن هذا الطيف الذي أرقى له آخر الليل بعد أن
طربت له أول الليل . قلت ان « الأودسا » و « الياذة » كانتا

وستظلان ينبوعا للحياة الأدبية والفنية ، فقد ألهمتا شعراء اليونان على اختلاف فنونهم وأساليبهم ، وألهمتا الفنانين من اليونان إلى ألهمتا فلاسفة اليونان وكذلك صدر عنهما شعراء الرومان ، وكذلك صدر عنهما وما يزال يصدر عنهما شعراء الأفرنج منذ القرن السابع عشر إلى ما شاء الله . ولقد كانت القصة الموسيقية التي شهدتها أمس أثرا من آثار « الأودسا » اجتمع فيه جمال الشعر وجمال الموسيقى وجمال الغناء وجمال الفن الآلى فى التمثيل فكنت تجد لذة لا تعدلها لذة حين تسمع أصوات الآلات الموسيقية وألحانها واختلاف نغمها الذى كان يرق حتى لا يكاد يسمع وكان يفلظ حتى يكاد يصم السامعين ، وكنت تجد لذة لا تعدلها لذة حين تسمع هذه الأصوات الانسانية العذبة الرخيمة تمازج نغم الموسيقى متفنية بهذا الشعر الجميل الرقيق الذى يمثّل أرق العواطف الانسانية وأصدقها وأدناها من الوفاء والحب والاخلاص وكنت تجد لذة لا تعدلها لذة حين تسمع هذا كله وتنظر إلى مسرح التمثيل فتري هذه الجزيرة اليونانية القديمة كما وصفتها « الأودسا » فى جمالها القديم الرائع الذى يزيده بهجة وسحرا ما اتخذ الممثلون من أزياء وما اصطنعوا من آنية ومتاع . كنت تجد لذة لا تعدلها لذة حين كنت تسمع ما تسمع وترى ما ترى . ولم يكن ينقص عليك هذه اللذة الا أنها كغيرها من جميع لذات

الحياة قصيرة محدودة المدى لن تتجاوز ساعة أو ساعتين ، ذلك
فيما أعتقد أخص ما تمتاز به اللذة الحقيقية التي تملك عليك نفسك
وعواطفك وتسحرك السحر كله .

تمتاز هذه اللذة بأنك تشعر — حين تشعر بها — بشيء من
الحزن يصاحبها ، لأنها ستنتقضي بعد حين طويل أو قصير ، وأنت
تحب ألا تنتقضي وأنت تود لو كانت خالدة ، أو لو انقضت بانقضائها
الحياة .

اشترك في هذه القصة الموسيقى الفرنسي « جبرئيل فوريه »
Gabriel Fauré ، والشاعر الفرنسي « رينيه فوشو » René
Fauchois ، ومثلت منذ عشر سنين فأعجب بها الجمهور ،
وابتهج لها الناقدون ، ولكنهم لم يجروا على أن يحكموا لها
أو عليها ، ذلك لأن فيها شيئا من الغرابة كثيرا . فهي لا تمثل الحياة في
عصر نفهمه فهما يسيرا سهلا . وإنما تمثل الحياة في عصر بعيد منا
كل البعد ، بل لعل هذا العصر لم يعرفه التاريخ . واذن فليس
من اليسير أن يصدق تمثيلها للحياة وليس من اليسير أن نحسبها
نحن كما نحس الحياة التي نعيشها بحيث تتأثر لها نفوسنا ، ونحتاج
لها عواطفنا ، فتبعث فينا ضروب الاحساس والشعور التي تبعثها
فينا الحياة الواقعة .

تردد الناس في الحكم لهذه القصة أو عليها ، ولكن كانت

الحرب العظمى فهزت النفوس والمواطف ، وسهلت على الناس فهم هذا الشعر القصصى القديم الذى مثل ما أصاب الانسان من معن فأحسن تمثيله ، وصور ما اختلف على حياة الأفراد والجماعات من أحداث فأجاد التصوير . فلما استؤنف تمثيل هذه القصة لم يتردد أحد ، ولم يشك انسان ، وانما ظهر الاعجاب صريحا قويا لا يعدله اعجاب ، فأجمع الناقدون على أن هذه القصة آية من آيات الموسيقى الفرنسية ، وكان يكفى أن ترى الجمهور أمس لتعلم أن الناقدين لم يخطئوا ولم يسرفوا .

عزيز على أن أجهل الموسيقى ، وأن يضطرنى هذا الجهل الى ألا أتحدث اليك بحبال هذه القصة من الوجهة الموسيقية . ولكنى اذا جهلت الموسيقى وعجزت عن الحديث فيها ، فانى أحسها وأشعر بها وأستطيع أن أعلم أنى سمعت شيئا طربت له ، أو سمعت شيئا نفرت منه ، وأشهد أنى لم أقر أمس بل أنى لم أطرب أمس وانما سحرت سحرا ليس فوقه سحر . . أشهد أنى لم أكن أشك حين كنت أسمع هذه الموسيقى أنى فى جزيرة « ايتاك » وأنى بمحضر من أولئك الأبطال القدماء ، بل أشهد أنى حين كنت أسمع هذه الموسيقى لم أكن فى حاجة شديدة الى أن يصف لى واصف ما يمثله المنظر من هذه الجزيرة المشرفة على البحر التى يفرها هواه رقيق ناعم شفاف ، والتى تزدان بكثبانها وتلالها الصغيرة تهبط

الى البحر متدرجة قليلا قليلا ، نعم لم أكن في حاجة شديدة الى أن
يوصف لي المنظر ، لأن الموسيقى كانت تغينني عن هذا الوصف
فكنت أحس في الموسيقى القرب من البحر ، وكنت أسمع في
الموسيقى أمواج البحر تضطرب وتصطخب رقيقة حيناً كأنها حديث
العاشقين ، غليظة حيناً آخر كأنها قصف الرعد ، وكنت أجد في
الموسيقى رقة الهواء ونعومته ، وكنت أسمع هذه الموسيقى
فلا أشك في أن الجو كان صافياً رائعاً أو أنه كان كدراً يهيم
للعاصفة ، كنت لا أشك في شيء من هذا ، وكنت لا أشك في شيء
آخر هو أجل من هذا خطراً وأعظم شأناً ، كنت لا أشك في أن هذه
القطعة الموسيقية تمثل ما يحدث في نفسى الآن من اضطراب
العواطف واصطخابها وما يقع بينها من تنازع ومشادة ، وكنت
لا أشك في أن هذه القطعة الأخرى تمثل الضعف الذى ليس بعده
ضعف ، تمثل هذا الضعف الذى يسلبك كل قوة على المقاومة
ويجعلك غير قادر الا على أن تفتح جفنيك لتسقط منهما قطرات
الدمع متتابعة منهرة ، وكنت لا أشك في أن هذه القطعة الأخرى
تمثل الغيظ والحق ، هذا الغيظ الذى تنقبض له أعصابك ، فإذا
جيبك مقطب ، وإذا الدم يغلى فى رأسك ، وإذا أنت قد أطبقت
يديك ، وإذا أنت تقاوم هذا الميل الشديد الذى يدفعك الى أن
تثب وتهجم على فريستك ، لم أكن أشك في شيء من هذا لأنهم

كنت أحسه وأنتقل فيه من طور الى طور ، بل هناك ما هو خير من هذا ، هناك هذه القطع الموسيقية التي تبحث في نفسك شيئا من الحنان والرحمة ومن الطمأنينة والدعة لا أستطيع أن أصفه ، ولا يستطيع انسان أن يصفه لأن وصفه لم يتح للجمل والألفاظ ، وانما أتيج للأرقام والألحان وحدها ، ولكنى عاجز كما قلت عن أن أصف جمال هذه القصة من الوجهة الموسيقية .

أفتريد أن أصف جمالها من الوجهة الأدبية ؟ لقد كنت أحب ذلك وأرغب فيه ، ولكن أليس خيرا من هذا الوصف الذى لا يمكن الا أن يكون موجزا مختصرا أن ترجع الى هذا الجمال فى أصله ، وأن تستقيه من ينبوعه ، فتقرأ النشيد الرابع والعشرين من « الأودسا » تجد فى هذا النشيد قصر الملك « أوليس » قد غاب عنه صاحبه منذ عشر سنين لأنه ذهب الى « تروادة » وانتصر فيها ، فلما أراد العودة الى بلده عبث به وبأسطوله « بوزيدون » اله البحر فأضله الطريق ، وأخضعه لطائفة من المحن ، وبينما كان الملك وأصحابه يخضعون لعبث « بوزيدون » وغيره من الآلهة ، كانت الملكة « بينيلوب » تنتظر زوجها فى لوعة وحسرة ، وفى حب ووفاء ، وكانت طائفة من زعماء اليونان قد احتلت قصر الملك وأخذت تعبت بما فيه ومن فيه فتأكل شاء الملك وثيرته ، كما تقول القصة ، وتشرب خمره ، وتعبث برقيقه وتلح على الملكة فى أن

تختار من بينها رجلا يكون لها زوجا فيخلف « أوليس » على ملك « ايتاك » .

كانت هذه الطائفة تلح وكانت الملكة تقاوم ، فلما أعييتا المقاومة أخذت تراوغ فأعلنت الى هؤلاء الزعماء أنها ستختار من بينهم زوجا اذا فرغت من نسج كفن ، أخذت نفسها بنسجه لأبى زوجها ، وقبل الزعماء منها ذلك ، فأخذت تنسج الكفن يوما حتى اذا كان الليل ثقضت ما أبرمت ثم تستأنف النسج اذا أصبحت ، والنقض اذا أمسّت ، والزعماء ينتظرون ويعبثون بالقصر وما فيه ومن فيه .

فاذا كان الفصل الأول من القصة ظهرت خادومات القصر يعزلن ويتحدثن فيما بينهن ، وحديثهن الذيل ، فهن يتغنين ما هن فيه من ألم وحرمان ، وهن يتغزلن بجمال الزعماء ، وترغب كل واحدة منهن في واحد منهم ، وهن يرثن للملكة وينكرن عليها غلوها في الوفاء وانهن لفي ذلك اذ يقبل الزعماء يريدون أن يتحدثوا الى الملكة ، وتأبى الخادومات انباء الملكة بمكانهم ، لأنهن لا يستطعن أن يدخلن عليها الا اذا دعين ، وبينما الزعماء في حوار مع الخادومات تقبل مرضع الملك فتمانعهم ، ويكون بينها وبينهم حوار ومسابة ، ثم تقبل الملكة فيشتد الخلاف بينها وبين الزعماء ، تهينهم وتنعى عليهم وهم يتملقونها ويتلطفون بها ، تمانعهم وتأبى عليهم ما يريدون وهم يلحون عليها في أن تسرع فتختار من بينهم زوجا ، ثم يقدم شيخ

رث فإن يطلب الصدقة والمأوى ، فينبذه الزعماء وتؤويه الملكة ، وهذا الشيخ هو « أوليس » قد وصل الى جزيرته وأمرته الالهة « أتينا » أن يتنكر ويحتال في طرد الغاصيين والانتقام منهم ، لا تعرفه الملكة ولكن الموضع تعرفه وتعاهده على أن تخفى أمره ، ينصرف الزعماء وينصرف الشيخ الى طعامه ، وتبقى الملكة وحدها فتتقضى ما نسجت ، ولكن الزعماء كانوا قد رصدوا لها فاستكشفوا حيلتها فيغيظهم ذلك ويعلنون الى الملكة أن الغد لن ينقضى حتى تكون قد اختارت لها زوجا ، ثم ينصرفون وتخرج الملكة ومرضع الملك ، لتذهب الى شاطئ البحر كما اعتادت منذ سنين تترقبان سفينة ما لملها تقبل وعلى ظهرها الملك ويتبعهما الشيخ . فاذا كان الفصل الثانى رأيت رعاة الملك يتحدثون فيما بينهم ، ويتمنى بعضهم لبعض ليلا سعيدا ، ويتغنون جمال الطبيعة وسحرها ، ثم تقبل الملكة ومن معها فيكون بينها وبين الشيخ حديث بديع يظهر فيه ما يضر الزوجان من حب ووفاء ، ومن لهفة ولوعة ، ولكن الملك يخفى نفسه ، فاذا سئل عن أمره أخبر بغير الحق واتخذ هذا الاخبار وسيلة الى التفرل بزوجه من طرف خفى ، ولكن فى جمال ورقة وحسن مدخل ، ثم تعزع الملكة اشفافا من غد فيقترح عليها الشيخ أن تعلن الى الزعماء أنها ستختار من بينهم من يستطيع أن يشد قوس « أوليس » ثم تنصرف الملكة وتعرف الملك بعد ذلك الى

رعائه ويأمرهم أن يكونوا في القصر غدا وأن يتخذوا السلاح
ليعيينوه على الانتقام ، فإذا كان الفصل الثالث رأيت الملك وحده
يتغنى غضبه وسخطه وحرصه الشديد على الانتقام ، ثم يكون
بينه وبين مرضعه ورعائه أحاديث قصيرة ثم يقبل الزعماء وقد
تهيأ للقصف واللهو ، فيسخرون من الشيخ ويريدون طرده ،
ثم يبدو لهم فيتخذونه سخرية يسقونه ويضحكون له ، ويظهر
الشيخ أنه يكران ، وتقبل الملكة فتعلن اليهم أن من شد قوس
« أوليس » ورمى عنها فهو زوجها ، فيعجزون جميعا ويتقدم الشيخ
الفانى الى القوس فيشدها ويرمى عنها ولكن فى صدر أحد الزعماء .
هنا يظهر الملك نفسه وينتقم لشرفه وثروته وملكه ، يعينه الرعاة
على هذا ، ثم تنتهى القصة بمظهر الحب والغبطة بينه وبين الملكة
من جهة ، وبينه وبين الشعب من جهة أخرى .

فأنت ترى أن ليس فى القصة شىء غريب وأنها من السذاجة
والسهولة بحيث تلائم القرن التاسع أو العاشر قبل المسيح أيام
أثينست « الالباذة » و « الأودسا » ولكنى أضمن لك لذة عظيمة
إذا قرأت هذه القصة - ولذة لا حد لها إذا قرأتها فى « الأودسا »
فأما إذا شهدت القصة الموسيقية فى « الأوبرا كوميك » فلست

أدرى ماذا أضمن لك ، وإنما أحدثك صادقاً بأنى قضيت ليلة سعيدة
كنت أحسبني أثناءها فى عالم آخر ، ولم أتنبه الى أنى فى الأرض
الا حين سمعت ابنتى تتغنى وتصيح ورأيت ابنى يعبث بما حوله
وسمعت أمه تزجره وتنهاه .

باريس فى ٤ مايو سنة ١٩٢٣

شك و يقين

قوم يشكون فيعلون في الشك ، وقوم يوقنون فيسرفون في اليقين ، وأولئك وهؤلاء معرضون للخطأ الشديد ، ومخاصمون للعلم الصحيح ، الشاكون مخطئون ومخاصمون للعلم لأنهم ينكرون أنفسهم وينكرون العلم ، والموقنون مخطئون ومخاصمون للعلم لأنهم ينكرون التطور الذى هو قوام الحياة ، ولكن أولئك وهؤلاء معذورون لأنهم لا يختارون الشك ولا يختارون اليقين ، وأحب أنهم انما يشكون أو يوقنون لأن أمرجتهم قد ألفت بحيث تستبغ الشك أو اليقين ، بل أحسب أن لما نأكل وما نشرب وما نحس ، بل وللحواء الذى تنسمه ، والجو الذى نعيش فيه ، والكتاب الذى نقرؤه ، والخطبة التى نسمعها ، أثرا فيما يعرض لنا من شك أو يقين .

زعم بعض الكتاب أن أبا العلاء انما شك لأنه أسرف في أكل العدى والزيت ، فساء هضمه ، وتبع ذلك سوء رأيه في الحياة ، قد يكون هذا حقا ، وقد يكون هذا باطلا ، ولكنى لا أشك في

أنا مدينون بأطوارنا العقلية لهذه المؤثرات الكثيرة المختلفة التي
تكتنفنا سواء منها المادى والمعنوى .

حدثت في مقال مضى بهذه المحاوراة التي شهدتها في المؤتمر
حول وجود سقراط والشك فيه ، ولقد قرأت اليوم شيئا أغرب
وأدعى الى العجب من الشك في سقراط .

قرأت أن هناك عالما فرنسيا من علماء الفلك المعروفين قد كتب
في هذه الأيام الأخيرة كتابا سماه « مملكة السموات » وفي هذا
الكتاب الذى يقال انه ممتع جدا فصل يبحث فيه المؤلف عن حركة
الأرض ، ويثبت فيه أن من المستحيل أن تثبت بطريقة علمية قاطعة
أن الأرض تدور .. اذن فنحن لا ندرى من شأن الأرض شيئا ،
أدائرة هى أم ساكنة ، وكل هذه الأدلة الكثيرة المختلفة التى جمعها
العلماء منذ حوكم « جاليليه » (Galilée) الى الآن ليثبتوا بها
أن الأرض تدور ، كل هذه الأدلة فاسدة أو غير منتجة ، بل يذهب
الأستاذ « نورمان » (Nordmann) صاحب الكتاب المذكور ، الى
أبعد من هذا جدا ، فيزعم أن دوران الأرض شيء ليس الى اثباته
أو نفيه من سبيل ، واذا فقد قضى علينا ان صحت آراء الأستاذ
« نورمان » أن نجهل أبدا شأن الأرض فلا نعمم أساكنة هى
أم دائرة ، سنقول وأى شيء يصيبنا ان علمنا بأن الأرض دائرة
أو ساكنة أو جهلنا دورانها وسكونها ؟ ربما لم يصبنا شيء ،

فسناكل ونشرب وننام ونستمتع بالذات وتتجرع برارة الآلام
سواء أكانت الأرض ساكنة أم دائرة ، ولكن ماذا تقول في أولئك
العلماء الذين يبحثون عن العلم للعلم ، لا تعنيهم نتائج العملية
والذين يموت أحدهم غما إذا ظهر خطؤه في رأى من الآراء
أو نظرية من النظريات .

كنت أقرأ في أعداد « السياسة » الأخيرة محاضرة صاحب
الفضيلة أستاذنا الجليل الشيخ محمد بخيت في الرد على « نورمان » ،
فرأيت أنه يذلل كل ما يستطيع من قوة وجهد وينفق علمه الواسع
العميق ليثبت أن الاسلام دين العلم ، بل ليثبت شيئا آخر غير هذا
وهو أن القرآن الكريم لا يناقض بلفظه ولا بمعناه أصلا من أصول
العلم الحديث ، بل هو فوق هذا يشتمل على أصول العلم الحديث
ورأيت الأستاذ يستنبط من القرآن الكريم كروية الأرض وحركتها
حول الشمس وحول نفسها واختلاف الفصول واختلاف الليل
والنهار فأعجبت بهذا الجهد العنيف الذى لا مصدر له الا البر
والتقوى . ومن قبل ذلك قرأت أشياء كثيرة للأستاذ الامام الشيخ
محمد عبده رحمه الله حاول فيها مثل ما حاول الأستاذ الشيخ محمد
بخيت . والناس في مصر وفي الشرق يعجبون بمثل هذه المحاولة ،
لأنها تظهرهم في منزلة من الحضارة ليست أقل ولا أدنى من منزلة
الأوربيين الذين اخترعوا العلم الحديث . وإن كنت أألا لا أحب

هذه المحاولة ولا أتكلفها وربما كرهتها وفرت منها ، لأنها تفسد
النصوص وتجعل على الغلو في التأويل . كنت اذن أقرأ محاضرة
الأستاذ الشيخ بخيت وأعجب بها ، فلما قرأت ما قرأت اليوم
تحدثت الى نفسي بما يأتي :

لو صح ما ذهب اليه الأستاذ « نورمان » وأقره العلماء وأصبح
الاجماع منعقدا على أن الأرض لا تدور كما كان منعقدا على ذلك
منذ قرون وحين أنزل القرآن الكريم ، فأين يذهب هذا الجهد
الغنيف الذي بذله الأستاذ الشيخ بخيت والأستاذ الشيخ محمد
عبد ليشتا أن القرآن يدل على أن الأرض تدور ؟ وهل يبذل
الأستاذ الشيخ محمد بخيت وخلفاء الأستاذ الشيخ محمد عبده
جهدا غنيفا ليثبتوا أن القرآن يدل على أن الأرض لا تدور ؟ واذن
فكيف نستطيع أن نفهم دلالة القرآن على أن الأرض تدور وعلى
أن الأرض لا تدور ؟

ليس هناك من شك في أن المسلمين في العصور الأولى كانوا
يعتقدون أن الأرض لا تدور ، وأن القرآن يدل على أنها لا تدور ،
لأن الاجماع كان منعقدا يومئذ على أنها لا تدور ، ثم جاء علماء
أوربا وشياطينهم فزعموا أن الأرض تدور ، وكانت حرب بينهم
وبين عامة الناس وزعماء الديانات ، ثم انعقد الاجماع على أن الأرض
تدور ، وجاء قميس من دعائم « الفاتيكان » الذي حكم على

« جاليلة » فجمع أدلة لا تحصى على أن الأرض تدور ، ثم جاء الأستاذ « نورمان » وشميطانه فزعمنا أن الأرض قد لا تدور ، وربما جاء العلماء وشياطينهم فأقروا صاحبنا وشميطانه على أن الأرض لا تدور أو على أنه من المستحيل أن نجزم بأنها تدور أو بأنها لا تدور ، وأذن ! وأذن لها قيمة الشك وما قيمة اليقين وما قيمة العلم وما قيمة النص وما قيمة التأويل ؟ أليس من الخير ألا نفلو في الشك ولا نفلو في اليقين ؟ أليس من الخير أن نكتفى بالترجيح ؟ ثم أليس من الخير ألا نحمل نصوص القرآن وغير القرآن من الكتب الدينية أوزار الشك وأوزار اليقين وهذه النتائج الكثيرة المختلفة المضطربة المتناقضة التي تنشأ عن أمرجتنا المختلفة المضطربة المتناقضة والتي تنشأ عما نأكل وما نشرب وما نرى وما نسمع وما نحس ؟ أليس من الخير أن نجعل القرآن الكريم وغيره من الكتب الدينية في حصن مقدس منيع لا تصلى إليه أبخرة العدس والفول والزيت والطعمية وغير ذلك مما نأكل لنهضمه مرة ولا نهضمه أخرى ، وينشأ عن سهولة الهضم وعسره حصن تفكيرنا أو سوءه ، اللهم اني أعتقد أن الأرض قد تدور وقد لا تدور ، وأنها قد تكون كرة أو سطحاً أو كمثرى ، وأن الزمان قد يوجد وقد لا يوجد ، وأن المكان قد يوجد وقد لا يوجد وأن « نيوتن » (Newton) قد يصيب وقد يخطئ ، وأن « انستين »

(Einstein) قد يحق وقد يبطل . كل هذا ممكن ولكن هناك شيئاً لا أحب أن يحتل أوزار هذا الامكان وهذا التناقض وهذا التردد ، وهو القرآن وغير القرآن من الكتب الدينية ، انا لنحسن الاحسان كله اذا رفعنا الدين ونعصمه عن اضطراب العلم وتناقضه فماذا يرى العلماء ؟

باريس في ٢٧ ابريل سنة ١٩٢٣

٥ العلم والثروة

في مصر أغنياء كثيرون ، ولكن معظمهم أشد بؤسا من الفقراء المعوزين ، لأنهم لا يفقهون الثروة ولا يقدرولها ، ولا يفهمون ما ينبغي أن توجد هذه الثروة من صلة بينهم وبين مواطنيهم وهم أغنياء ، وكل حظهم من ثروتهم أن يأكلوا كثيرا ، ويستمتعوا بلذات مادية لا تتجاوز الحس الى القلب ، أو الى العقل . ثروتهم مقصورة على أجسامهم ، فان وصلت الى نفوسهم فهي لا تمس منها الا موضع الضعف والفرور ، تمس الفخر والته ، تمس العجب والخيلاء ، لكنها لا تمس الذكاء ، ولا تمس عاطفة الرحمة بالبائس ، ولا تمس عاطفة الاغاثة على الخير .

في مصر أغنياء كثيرون ، ولكنهم أشد بؤسا من الفقراء المعوزين . لا ينتفعون بثروتهم أحياء ، ولا ينتفع الناس بثروتهم بعد موتهم . هم لا يملكون الثروة وانما يحملونها على ظهورهم ، لينقلوها من جيل الى جيل ، يحملون الثروة عن آباءهم لينقلوها الى أبنائهم . ليعبروا بها النهر ، وكثيرا ما تنوء بهم هذه الثروة

فتفرق ويفرقون معها ، ولا يظفر أبناؤهم منها الا بالتمس والبؤس
وسوء الحال .

في مصر أغنياء كثيرون ، ولكنهم في الحق معوزون !

وفي أوروبا أغنياء ، ولكنهم أبعد الناس عن الفقر . وأدناهم
الى الغنى حقا ، لأنهم يفهمون الثروة ، ويحسنون الانتفاع بها
في حياتهم الخاصة ، وفي حياة أممهم ومدنهم وقراهم وأسرههم .
لهم يتمتعون بالثروة حقا ، يجنون منها لذة الجسم ، ولذة القلب ،
ولذة العقل . بل يجنون منها اللذة الصحيحة في الحياة وتخليد
الاسم بعد الموت . ينفعون وينتفعون ، ليسوا عالة على قومهم ،
وليس قومهم عليهم عالة . انما هم يفهمون أن الثروة أداة من
أدوات المنفعة العامة المشتركة التي ينبغي أن يستمتع بها الناس
جميعا ، كل على القدر الذي يتاح له . هم يملكون الثروة ويحسنون
التصرف فيها ، لا يشترون بها الطعام والشراب واللباس فحسب ،
وانما يشترون بها أيضا الحب والعطف والأجلال وحسن الإحداثة
في الحياة وبعد الموت . ليسوا أنعاما ينقلون أثقال الثروة من جيل
الى جيل ، وانما هم ناس يملكون الثروة ويشترونها فيفيدون
ويستفيدون . ليسوا عبيدا للمادة ، وانما هم سادتها ، يملكونها
ويستفرونها لحياة الانسان والترفيه عليه .

اقرأ في جريدة « الطان » أن رجلا أهدى الى جامعة باريس

عشرة ملايين ، لاقامة حتى خاص يسكنه الطلبة الذين يدرسون في هذه الجامعة ، بحيث يتاح لهؤلاء الطلبة أن يعيشوا في منازل صحية يجدون فيها ما يمكنهم من الدرس النافع بين ضروب الراحة والتعظيم ، واقرأ في جريدة « الطان » أن امرأة أوصت بثروتها كلها لجامعة باريس و ثروتها تكاد تبلغ الخمسة عشر مليوناً . واقرأ في جريدة « الطان » أن هذه المرأة قبل أن تموت أهدت الى كثير من الجامعات مقادير مختلفة من المال وأنها أهدت مرة الى جامعة باريس مقداراً من المال تنفقه في طبع الرسائل التي يقدمها الطلبة الفقراء لنيل الدكتوراه . وأهدت مرة أخرى الى جامعة باريس ما يمكنها من انشاء درس لأدب القرن الثامن عشر وتاريخه . وأن امرأة أخرى أهدت الى جامعة باريس ثروة تفل عليها (٣٥٠.٠٠٠) فرنك في السنة لترقية البحث عن « الراديوم » في الطب . وأن رجلاً ترك لها نصف مليون . وأن أستاذاً في مدرسة ثانوية ترك ثروته التي تبلغ (٧٦٤.٠٨) فرنكات لاعانة طلبة التاريخ الحديث ، وأن امرأة تركت مليوناً لاعانة المؤرخين على بحثهم التاريخي . واقرأ في الصحف المختلفة أن دور التمثيل والموسيقى ومنازل اللهو واللب قد خصصت جزءاً من دخلها في يوم من الأيام لاعانة العلماء على تأسيس المعامل العلمية المختلفة . بل اقرأ ما هو أغرب من هذا . اقرأ تعاون الفقراء والمعوزين واقتنائهم في جمع المقادير المختلفة من

المال لاعانة العلماء على تأسيس المعامل وتكميلها . وقرأ في الوقت نفسه مقالات طويلة مرة ملؤها السخط والغضب والفيظ ، لأن العلماء يشكون فقر المعامل وتقصصها ويستعينون الجمهور فلا يفهم ولا يمنحهم من المال ما ينبغي أن يمنحهم . هذا الجود وهذا البذل اللذان أشرت اليهما في أول هذه الكلمة لا يرضيان ولا يقنعان ومع ذلك فقصر العلم في فرنسا اضا في جدا لأن الدولة والأفراد والجماعات يخصصونه بعناية عظيمة ، وآية ذلك ما وصلت اليه فرنسا من الرقي العلمي الذي لا يزال مطمح أمم كثيرة في أوروبا بعد .

كتبت في غير هذا المقال منذ أشهر أن العلم مهما اشتد غناه وعظمت ثروته فهو فقير محتاج الى المعونة لأنه يعجز ، وحاجة من عاش لا تنقضي ، فيسقط العلماء يشكون وسيظل الناس يبذلون . هذا في فرنسا ، أما في مصر فالثروة كثيرة ضخمة تنوء بالأغنياء ، ولسنا نستطيع أن نذكر فقصر العلم أو حاجته الى المعونة لأننا لا نستطيع أن نذكر العلم في مصر ، فليس لمصر علم وإنما هي في علمها عالة على أوروبا وأمريكا تستعير منها كل شيء ، وهي لا تحسن الاستعارة ولا تستطيع أن تستعير منهما ما هي في حاجة اليه أو جزءا موفورا ما هي في حاجة اليه ، لأنها لا تجد من المال ما يمكنها من أن تستعير هذا المقدار العلمي الذي هي محتاجة اليه لتعيش ، أما اذا احتاجت الى السيارات والدراجات والحلى

وفآخر اللباس وبديع الأداة والآنية ، فما أكثر المال وما أيسر البذل
هنا تظهر ثروة الأغنياء ويظهر سخاؤهم فتكثر في مصر هذه
الأدوات المختلفة التي يبيع قليلها ويضر كثيرها . نعم ، نحن أغنياء
أجواد . إذا احتجنا الى متاع الدنيا ، فأما إذا احتجنا الى غذاء العقل
والقلب ففقرنا لا يعدله فقر . هناك علوم مزهرة في أوروبا وأمريكا
ونحن لا نسمع بها في مصر ، أما لأننا لا نحاول أن نسمع بها ،
وأما لأننا نضج أصابعنا في آذانتنا حتى لا نسمع بها فنحتاج الى
أن نتفق المال في جلبها الى بلادنا . ولكنني رائق بأن لونا من ألوان
البدع في الحلوى أو الملابس أو السياوات أو الأزرار لا يكاد يظهر
في باريس أو في نيويورك حتى نسمع به ، ونرغب فيه ، ونتهالك
عليه . والنتيجة أننا في حياتنا الظاهرة كأرقى الشعوب مدنية
وحضارة ، وربما كنا أفخر لباسا وزينة من أغنياء باريس ونيويورك .
ولندرك إذا رأنا الأوربي خيل اليه أننا ناس مثله نلبس كما يلبس
بل خيرا مما يلبس ، ونزدان كما يزدان بل خيرا مما يزدان ،
ونتصرف في فنون الحياة المادية كما يتصرف بل خيرا مما يتصرف ،
يحسبنا مثله إذا رأنا ولكنه لا يكاد يمتحننا ويخبرنا حتى يشعر
بأن وراء هذه الزينة وهذه المظاهر الفناء أو شيئا يشبه الفناء ،
وماذا تريد من قوم يجلبون من أوروبا كل ما ييسر عليهم الحياة
المادية ويمكنهم من الاستمتاع بلذاتها المادية ، فإذا ذكر العلم

والأدب والفن هزوا الرؤوس والأكتاف ، بل هم يفعلون شرا من هذا ، قالعلم في بلادهم ولكنهم يعمون أو يتعمون عنه ، لا يرونه ولا يشعرون به ، وينصنه الأوربيون والأمريكيون على بعد الشقة فيسمعون اليه ويحملونه الى بلادهم ، حتى اذا به منا غابه فأحس كما يحس الناس ، واشتاق الى ما يشتاق اليه الناس ، وأراد أن يكون مصرياً يعرف مصر كما يعرف الفرنسي فرنسا ، اضطر الى أن يبحث عن مصر في باريس أو لدوا أو برلين ، يا للعجزى ! بل قد يحتاج الى أن يبحث عن مصر في أثينا !!

لقد قلنا هذه الأشياء وقلناها وستقولها وتقولها ، فلم يحفل بنا أحد ولن يحفل بنا أحد ، اللهم الازمعة الراضين اليائسين وهم قليلون ، فأما القادرون على أن ينفعوا ، فأما القادرون على أن يفيدوا بلادهم فهم عن النفع والقائدة في شغل . وما أنت والعلم تحدثهم به وتثقل عليهم فيه وهم أرغب في هذا المتاع الباطل الذي يهر العين ويخاب النظر ويحمل فلانا على أن يقول : لقد رأيت سيارة فلان فأعجبتني ولأشترين مثلها ، رأيت ثوب فلان فرائقى ولأصنعن مثله ، فأما أن يقول الناس : لقد رأينا عالماً مصرياً أو أديباً مصرياً أو فنياً مصرياً يروقتنا أن يكون لدينا مثله ، فذلك شيء لا يخطر لأغنيائنا على بال ، ولقد أكتب هذه الكلمة وأنا اتق الشقة كلها بأن كثيراً من أغنيائنا سيقرونها وينالون كاتبها بالسخط والنعي لأنه يحدثهم بما لا خير فيه .

لدينا جامعة أُنشئت منذ خمس عشرة سنة ، ولولا لطف الله
بها لماتت ، على أنها ليست بعيدة من الموت ، ولقد أظهر أغنيائنا
ميلا شديدا الى تأييد هذه الجامعة وإعانتها ، لأن ذلك كان بدعا
يوميئذ وكان فيه فخر للباذلين ، فلما انقضى البدع هبطت الرغبة ،
وفتر الميل ، وحبس السدين بذلوا المال أموالهم فلم يعطوا ولم
يفوا بما وعدوا أن يعطوا ، لا تذكر الحرب فإن الحرب لم تسيء
الى مصر ، ولم تنزل الفقر بأهلها ، ولقد أساءت الحرب الى فرنسا
فزعزت ثروتها وخربت جزءا عظيما منها ، بل زعزعت نظامها
الاجتماعى فلم يرد لها ذلك الا حبا للعلم وتشجيعا للعلم واعانة
للعلماء ، ولم يضع عليها من ذلك شىء فقد أتاح لها العلم أن تنتصره
أما أغنيائنا فقد ضاعف الله عليهم ثروتهم أضعافا مضاعفة ، فلم
يزدهم ذلك الا ضنا وحسبا للمال عن وجوه الخير ، وتهالكا على
اللذات المادية ، والحكومة والأفراد فى ذلك سواء فلست أنسى
الوزارة النسيجية الأولى وما أنفقت من المال لاصلاح سيارات
الحكومة فقد كان ذلك يكاد يبلغ نصف المليون من الجنيهات ، أما
الجامعة فكانت الحكومة تعينها بألفى جنيه قبل أن تبلغ ميزانيتها
عشرين مليونا ، قبلت هذه الميزانية أربعين مليونا ولم تزد اعانة
الجامعة وانما أُنذرت الجامعة مرات بقطع هذه الاعانة ! وكانت
وزارة الأوقاف تمنحها معونة قدرها خمسة آلاف جنيه أيام النظام

القديم فلما أقبل النظام الجديد قصت هذه الاعانة حتى بلغت
١٨٠٠ جنيه . ولست أدري أفترت وزارة الأوقاف ولنل افتقارها
كافتقار الحكومة المصرية ؟ ثم نحن نطلب الاستقلال ، نزع أن ليس
بيننا وبين أهل أوروبا فرق ، وأن من حقنا أن نستمتع بنظام الحياة
الذى يستمتعون به ، وقد يكون هذا حقا ولكن يجب أن نعرف
بأن أهل أوروبا وأمريكا لم يصلوا إلى حياتهم الراقية الحرية بالتهالك
على السيارات والحلى وملابس الحرير وما يشبهها ، وإنما وصلوا
إليها بالتهالك على العلم والرغبة فيه ، يجب أن نحمد الله على
أن الدستور قد صدر فلئن يشنا من الحكومة ومن الأفراد فلن
ليأس من الأمة ممثلة في البرلمان ، وبقينا أن هذا البرلمان لن يغير
في المستقبل لوزارة المعارف مثل هذه الأغلاط المنكرة ، لن يغير
وزارة المعارف ما وصلت إليه حال التعليم في مصر مع ضعف
وفساد ، ولن يفسر لوزارة المعارف أن تظل مصر من الجهل
والضعف بحيث توجد عاوم لا تسمع بها مصر ولا يأخذ المصريون
منها بنصيب .

باريس في ١١ مايو سنة ١٩٢٣

القسم الثاني
أسبوع في جميعا

١ مؤتمر العلوم التاريخية

كنا ألفا أو نزيد على الألف ، كلنا يعنى بالتاريخ أو بعلم أو فن من هذه العلوم والفنون التي يحتاج إليها التاريخ ، وقد اجتمعنا من أطراف الأرض على اختلاف أوطاننا ، وأدياننا ، ولغاتنا ، وسماهجنا في الحياة ، لا يجمع بيننا الا شئ واحد ، هو أننا نشغل بالتاريخ أو فن يتصل بالتاريخ .

كنا ألفا أو نزيد على الألف ، وكنا مختلفين مؤلفين ، مفترقين متفقين ، ولقد أريد أن أحدثك عن هذا المؤتمر ، ولقد أريد أن أحدثك عن هذا الأسبوع الذي قضيته في بلجيكا ، ولكني لا أدري كيف أحدثك ، لأنني لا أدري كيف أبدأ الحديث .

في نفسى أشياء كثيرة ، كثيرة جدا ، أريد أن أتحدث بها اليك ، ولكنى أشعر بشئ من الاضطراب في تنظيم هذه الأشياء الكثيرة وترتيبها وتقديم بعضها على بعض ، كل هذه الأشياء خليقة أن تقال ، وكل هذه الأشياء جائلة الخطر ، فلا تحدث اليك كما تلهمنى المصادفة على غير نظام . وفي غير ترتيب .

أشعر بأن كثيرا من المصريين سيسخرون من التاريخ والمؤرخين

ولكن المؤثر والمؤثرين ، لأن التاريخ ليس من هذه العلوم التي تظهر قائمتها في الحياة العملية اليومية ، وليس من العلوم التي تعين صاحبها على أن يفلسف كما يقتضى العصر الذى نعيش فيه ، وإنما هو علم متواضع يزيد في تواضعه أنه قد نزل في هذا العصر الحديث عن ميزة قديمة كانت ترفع شأنه وتعالى مكانته ، ذلك أن الناس كانوا يتخذون الماضى وسيلة الى فهم المستقبل ، أو بعبارة أوضح وسيلة الى الاستعداد للمستقبل ، وكانوا يتخذونه وسيلة الى فهم الإنسانية وتفسير ما في حياتها من غموض ، فكان التاريخ يحتل بالالفلسفة أو كان التاريخ فنا من فنون الفلسفة ، وكان الناس يعتقدون أن له فائدة عملية لأنه يعين على حسن الاستعداد للحياة ، وكانوا يعتقدون أن له فائدة عقلية لأنه يعين على فهم الحياة ، فكانوا يكتفون بالتاريخ ويتهاكون عليه ، وكانت للتاريخ مكانة عليا بين العلوم ، وكانت للمؤرخين مكانة عليا بين العلماء .

ولكن التاريخ تواضع ونزل عن هاتين الميزتين ، وأصبح لا يزعم لنفسه الفضل في حسن الاستعداد للمستقبل ولا يزعم لنفسه القدرة على حل ألغاز الحياة ، بل أصبح التاريخ يحذر الناس من تلك الأساليب القديمة التي كانت تقيس غدا الى أمس وتفسر اليوم بما وقع منذ قرون ، أصبح التاريخ يحذر الناس من هذه الأساليب القديمة ويسخر من أولئك الذين يبحثون عن الثورة الفرنسية وما أحدثت من نظم في السياسة والاجتماع في تاريخ

اليونان والرومان ، ثم يرثى لأولئك الفرنسيين الذين خدمتهم هذه الأساليب في أواخر القرن الثامن عشر فظنوا أنهم يحيون بشورتهم الديمقراطية اليونانية أو نظم السياسة الرومانية ، واتخذوا لهذه الأنظم أسماء اقتبسوها من تاريخ آتينا وتاريخ روما . أصبح التاريخ ينكر هذه الأساليب ويحذر الناس منها ويسخر من المستمكرين بها ، بل أصبح التاريخ ينكر فلسفة التاريخ ويقنع بشيء واحد متواضع ، ولكنه جليل الخطر ، وهو الوصول إلى استكشاف الحقائق التي وقعت في الماضي استكشافا علميا صحيحا معتمدا على البحث لا على الفلسفة .

فهو كالكيمياء لا يزعم لنفسه القدرة على تحويل المعادن وإيجاد الذهب ، وإنما يزعم لنفسه البحث عن الحقائق من حيث هي حقائق لا أكثر ولا أقل .

الى هذه المنزلة وصل التاريخ ، فما أسرع ما زهد فيه الناس ورغبوا عنه ، ولا سيما في مصر . ولقد أذكر حديثا طويلا جرى بيني وبين أحد المبصرين الأذكياء ، كان ينكر فيه قيمة التاريخ وكانت حجته في هذا الأفكار أن التاريخ لا يفيد فائدة عملية ولا يمكن الناس من أن يكسبوا حياتهم أو يرفعوا هذه الحياة . أذكر هذا الحديث وأحاديث أخرى فأشعر بأن ناسا كثيرين في مصر سيسخرون من التاريخ ، ومن مؤنم التاريخ . ولكنني

أؤكد لك أيها القارئ أنني لا أسخر من هذا ولا ذاك ، وإنما أكلف بالتاريخ ، وأعجب بمؤتمر التاريخ ، وأرجو أن يكلف كثيرون بالتاريخ ، ولكننا قد نصل الى هذه المنزلة يوم نشعر بأن العلم يجب أن يطلب لأنه علم لا لأنه يمكنك من أن تعيش أو من أن تعيش عيشة مترفة .

لا أسخر من التاريخ ، وفي الأرض ناس كثيرون لا يسخرون من التاريخ . فقد حدثتلك في أول هذا المقال بأننا كنا ألقا أو نريد على الألف ، وكنا من جميع أقطار الأرض . ولم يكن منا من يسخر من التاريخ . ولقد كان الذين نظموا المؤتمر ودعوا اليه في دهش وحيرة لا حد لهما . كانوا لا يطمعون في أن يبلغ عدد المؤتمرين خمسمائة فإذا عدد المؤتمرين قد تجاوز الألف ، كانوا يطمعون في أن يستجيب لهم الناس من أطراف الأرض ، وإنما كانوا ينتظرون أن يستجيب لهم أهل أوروبا الغربية ، وأهل أمريكا الشمالية ، فإذا القارات الخمس يستجيبن لهذه الدعوة . وإذا البرازيل والهند وأستراليا ومصر وأفريقيا الجنوبية وأوروبا الشمالية والصين واليابان والروسيا ترسل من يمثلها في هذا المؤتمر . وأحب أن تلاحظ أن ألمانيا لم تستطع أن تشترك في المؤتمر لأنها لم تدع اليه ، وأن روسيا لم تستطع أن تشترك في المؤتمر كما ينبغي لأنها لم تدع ، وإنما اشتركت في المؤتمر الجماعات الروسية المتفرقة في أنحاء أوروبا . وأن النمسا اعتذرت عن الاشتراك في المؤتمر لأنها

لم تجد من المال ما يمكنها من إيفاد من يشلها ، ومع هذا كله فقد بلغ هذا المؤتمر الخامس من الفوز مالم يبلغه مؤتمر تاريخي من قبل . زاد عدد أعضائه على الألف وزاد عدد الخطب التي أقيمت فيه والمذكرات التي قدمت اليه على ثلثمائة . ولم يستطع المؤتمر أن يجتمع للاشتراك في البحث والمناقشة انما اضطر أن يوزع العمل ويقسم نفسه أقساما بلغت ثلاثة عشر قسما . اضطرت أقسام كثيرة الى أن تقسم نفسها وتوزع العمل فيما بينها فالتقسم بعضها أربعة أقسام . ولم يكن من الممكن لعضو من أعضاء المؤتمر أن يتبع العمل في المؤتمر وانما كان كل عضو مضطرا الى أن يتبع العمل في القسم الذي هو فيه ، وربما أباح أحدا لنفسه أن يترك قسمه ليسمع خطبة أو مذكرة تلذه أو تعنيه في قسم آخر ، فيفعل ذلك كارها لأنه يترك في قسمه خطبا ومذكرات كان يود لو يستمع لها ، ولقد كان أعضاء المؤتمر يلتقون فيسأل أحدهم صاحبه : هل قدمت الى المؤتمر شيئا ؟ نعم في موضوع كذا . فيجيبه هذا شيء لا يحتمل ! لقد كنت أريد أن أسمع لك ولكنني شغلت في قسمي بموضوع لم يكن بد من الاستماع له ، أما أنا فضيق الصدر ، فقد فاتتني خطبة فلان ومذكرة فلان . وماذا تريد أن تصنع ؟ وقد أبت الطبيعة أن تستطيع تعديد أشخاصنا والاستماع في وقت واحد لكل ما نحب أن نسمع له .

وكان المؤتمر يفكر في طبع ما سيلقى فيه من الخطب أو يقدم اليه من المذكرات فألقى نفسه أمام مشكلة مالية لا قدرة له على حلها . وحسبك أنه كان يلقي في الساعة الواحدة وفي أكثر من عشرين غرفة أكثر من عشرين خطبة . وكنا في هذا المؤتمر كالتلاميذ في المدرسة ، نجتمع في الساعة التاسعة صباحا فما نزال مجتمعين الى الظهر ، ثم تنصرف للغداء ونعود في الساعة الثانية فما نزال مجتمعين الى الساعة الخامسة . فاذا كانت الساعة الخامسة انصرفنا الى زيارات واستقبالات قد نظمت في القصر مرة وفي البلدية مرة أخرى وعند وزير المعارف مرة ثالثة ، وفي المتاحف والجامع العلمية مرة رابعة بحيث كان من المستحيل أن يفكر العضو في شيء غير المؤتمر وأعمال المؤتمر إذا كان عضو مخلصا في عمله معنيا بفنه حقا ، وهنا يجب أن ألاحظ أن الأعضاء لم يكونوا جميعا على حفظ واحد من الاخلاص للفن والعناية به . وذلك شيء حسن في نفسه ، بحسبك ثلثمائة خطبة أو مذكرة وما استبعت من البحث والمناقشة ، ولو أن الأعضاء جميعا خطبوا أو قدموا المذكرات أو اشتركوا في البحث والمناقشة لما انتهت أعمال المؤتمر في أسبوع أو أسابيع .

كثير من الأعضاء أقبل ليسمع ويرى ويتعرف الى المؤرخين على اختلاف مذاهبهم ومناهجهم . وكثير منهم أقبل للرياضة والسياحة واتخذ المؤتمر تملة لما كان يريد .

كثيرة جدا الفوائد المختلفة التي تنتجها مثل هذه المؤتمرات
فلمست أذكر الفائدة الأساسية التي يستفيد منها علم التاريخ وإنما
أذكر فوائد أخرى غير هذه ليس بينها وبين التاريخ صلة . فيكفى
أن تكون فطنا دقيق الملاحظة لتجد لذات متنوعة في ملاحظة هؤلاء
الناس المختلفين في الوطن والجنس والطبيعة والمزاج وما لكل واحد
منهم من عادة أو خلق أو مزية أو تقيصة . والحق أنى قد استفدت
كثيرا من الواجهة العلمية التاريخية ولكنى مع هذا ضحكت كثيرا
وسخضت كثيرا ، فقد كان حولى من الناس من يضحك كما كان
حولى منهم من يبعث السخط ، ولكنى سأحدثك عن هذا كله
في مقال آخر بعد أن أقص عليك طرفا من أعمال المؤتمر .

باريس في ١٦ ابريل سنة ١٩٢٣ .

لا أذكر ما كان يضطرب في نفسى من خواطر الأسى والاعجاب
ومن عواطف الأسف والأمل أثناء الطريق بين باريس وبروكسل
حين كنا نعبّر هذه البلاد التى دمرتها الحرب تدميرا فلم نذر فيها
شيئا الا أتت عليه والتى كان أهلها مشردين فى أقطار فرنسا ،
يتكففون ألوان المشقة ، ويستجدون ضروب الاحسان ، ليستقروا
بعد تشريد وليشبوا بعد جوع ، فأصبحت هذه البلاد ، ولما تمض
على الحرب أعوام ، عامرة ومزدهرة مستكملة أو آخذة فى استكمال
وسائل الحياة العاملة المنتجة الناعمة المترفة . كنت آسف وكنت
آمل ، كنت آسى لقسوة الانسان على الانسان ، وكنت أعجب
بقدره الانسان على اصلاح ما أفسدت يد الانسان . ولكنى
لا أريد أن أذكر ذلك أو أطيل فيه ، وانما أحدثك بما وجدت حين
وصلت الى مدينة بروكسل ظهر الأحد ٨ ابريل .

كان البرد شديدا ، وكانت تعصف فى المدينة ربيع قوية مثلجة ،
ولكن المدينة كانت هائجة مائجة ، أو بعبارة أصح كانت فرحة
مرحة ، كان الناس يتفنون ويضحكون ويفتشون فى اللذات البريئة .
فكنت لا تسمع الا أصواتا صافية مجلوة ، تنبعث باللفظ الهناء

والسرور . وكنت لا ترى الا اعلاما منشورة تعبت بها الريح ،
كنت لا تسمع ولا ترى الا شيئا يسر ويرضى ويبعث البهجة في
النفوس . كان اهل بلجيكا ذلك اليوم في عيد . كانوا يحتفلون
بميلاد الملك ألبير ، لم يكن احتفالهم رسميا فحسب ، لم يكن
مقصورا على قصر الملك ودواوين الحكومة . لم يكن احتفالا تراد
به المجاملة ، وإنما كان احتفالا حقا . كانت القلوب تحتفل بالملك
ألبير . وكانت الألسنة تنطلق بما يملأ القلوب من فرح . وكانت
الوجوه تصف ما يغمر النفوس من ابتهاج . وكانت هذه الجماعات
المختلفة التي تنطلق في الشوارع منها ما ينشد النشيد البلجيكي ،
ومنها ما يتغنى « بالمرسيليز » ومنها ما يتغنى بأحدث الأغاني
الباريسية التي تتردد في « مونمارتر » . أقول كانت كل هذه
الجماعات آية ساطعة على أن البلجيكيين يحبون ملكهم ويعجبون
به ويحتفلون ببلجيكا الناهضة حين يحتفلون بعيد ألبير . لأن ألبير
يمثل في نفوسهم هذا الوطن الذي تألم وأهين ولقى ضروب الذلة
ثم انتصر وثأر لنفسه وهو الآن ينهض ويستأنف الحياة قويا نشيطا
كأقوى وأنشط ما كان قبل الحرب .

نعم : كانت هذه الجماعات آية بيّنة على أن البلجيكيين يحبون
ملكهم ويرونه رمز آلامهم وآمالهم حقا . ومها أنس فلن أنسى
جماعة من الرجال والنساء صادفناها في أحد الشوارع ، وقد

تبادل القلائس ، فلبس الرجال قلائس النساء ولبس النساء قلائس الرجال وامتلأ الشارع بهم حتى وقف الترام واقطعت الحركة وهم يتغنون : « اصعد فوق ! اصعد فوق ! فسترى مونمارتر » .
« وكن واثقا جدا بانك سترى شيئا جديدا » .

« من فوق اذا كان الجو صحوا فسترى من باريس الى شارتر » .

« اذا كنت لم تر هذا فاصعد فوق ؟ اصعد فوق فسترى مونمارتر » .

بذلك كانوا يتغنون وكانت تقطع هذا الغناء من وقت الى وقت قهقهة عالية تصعد في السماء وتحملها الريح وتفرقها في أنحاء المدينة . وانهم ليمضون كذلك واننا لتنبعهم واذا الغناء قد انقطع واذا الأصوات قد خفتت واذا الرءوس حاسرة واذا جلال مهيب قد انبسط على هذه الجماعات الفرحة ، واذا صت رهيب يشعرك بأن هناك شيئا جديدا . بأن هناك شيئا مقدسا ..

كان هناك شيء جديد مقدس . كانت الجماعة قد وصلت الى عمود المؤتمر وهو الذي أقيم سنة ١٨٣٠ حين استقلت بلجيكا وصدر دستورها ، وهو الذي يظل قبر الجندي المجهول الذي اتخذ رمزا لما قدمت بلجيكا من ضحايا في الحرب الماضية . وصلت الجماعة الى هذا العمود فتبدل فرحها ومرحها اجلالا وتقديسا لرمز الاستقلال ورمز الجهاد الوطني !

وما أشك أن هؤلاء الناس الذين كانوا يجلون استقلالهم
بقدسون رمز ضحاياهم ، كانوا يذكرون في هذه اللحظة نفسها
الاجلال والاكبار الملك ألير الذى جاهد وتآلم واحتمل كل
يمكن أن يعتمله الملك المخلص للدفاع عن وطنه أولا وعن عرشه
ثانيا في هذا اليوم عرفت قيمة ما يمكن أن يوجد بين الشعوب
الملوك من صلات الحب والمودة والعطف .

الحب وحده مصدر هذا الابتهاج والاجلال ، فليس الملك ألير
ستبدا ولا راغبا في الاستبداد . وليس الشعب البلجيكي خائفا
لا مستعدا للخنوع ، ولعل الذين قرءوا تاريخ بلجيكا يعلمون
بالصلة بين البلجيكين وملوكهم قائمة على أن الملوك يتلقون
ملظالمهم من الشعب ، فهم نوابه وممثلوه ، لا سادته وزعماءه .
مالى أذهب بعيدا وقد افتتح المؤتمر التاريخى يوم الاثنين ٩ ابريل
محضر من الملك والملكة وولى العهد والبرنس شارل وأخته
مرفيسيس مارى جورى ، فلما قدم رئيس المؤتمر الى الملك والملكة
الأمراء تحية المؤتمر ذكر الديمقراطية ورفيها في بلجيكا واقتناع
ملك بأن لا رقى للشعوب ولا استقرار للعروش الا اذا كانت
ديمقراطية الصحيحة الواسعة أساس الصلة بين الشعوب والعروش
مفق الناس جميعا. وابتسم الملك والملكة .

باريس في ١٧ ابريل سنة ١٩٢٣ .

قلت في أول هذه الفصول : ان كثرة أعضاء المؤتمر من جهة ، وكثرة مواد العمل من جهة أخرى ، قد اضطررتا المؤتمر الى أن يقسم نفسه الى لجان . ولست أرى بأسا من ذكر هذه اللجان ليرى المشتغلون بالتاريخ في مصر كيف يتصور علماء أوروبا التأريخ وكيف يقسمونه الى أقسامه المختلفة .

انقسم المؤتمر الى ثلاث عشرة لجنة وهى :

- ١ — تاريخ الشرق .
- ٢ — تاريخ اليونان والرومان .
- ٣ — تاريخ العصر البيزنطى .
- ٤ — تاريخ القرون الوسطى .
- ٥ — التاريخ الحديث والتاريخ العصرى ، وهذه اللجنة تنقسم الى أربع لجان جزئية .
- الأولى : لجنة التاريخ الحديث التى ينتهى عملها الى الثورة الفرنسية .
- الثانية — لجنة التاريخ العصرى التى يتبدى عملها من الثورة .

الثالثة — لجنة تاريخ القارة الأمريكية .

الرابعة — لجنة تاريخ الاستعمار والاستكشاف .

وأحب أن تلاحظ أن هذين القسمين الأخيرين — تاريخ القارة الأمريكية وتاريخ الاستعمار — لم يستقلا بالبحث وتخصص العلماء إلا في هذه السنين الأخيرة . وهما يوشكان أن يصبح كل واحد منهما قسما مستقلا استقلالاً تاماً عن غيره من بقية أقسام التاريخ .

٦ — التاريخ الدينى ، وهذه اللجنة تنقسم الى لجتين جزئيتين :

الأولى — لجنة تاريخ الديانات من حيث هى أى من وجهتها الفكرية والعملية .

الثانية — لجنة تاريخ الكنيسة ، وهى تنقسم الى لجتين تبحث الأولى عن تاريخ الكنيسة منذ نشأتها الى آخر القرن الثانى عشر . وتبحث الثانية عن تاريخ الكنيسة منذ أول القرن الثالث عشر .

٧ — تاريخ الحقوق — وهذه اللجنة تنقسم الى لجتين :

الأولى — لجنة تاريخ الحقوق فى العصر القديم .

الثانية — لجنة تاريخ الحقوق فى القرون الوسطى وفى العصر الحديث .

٨ - التاريخ الاقتصادى .

٩ - تاريخ الحضارة : وقد انقسمت هذه اللجنة الى ثلاث لجان :

الأولى - لجنة تاريخ الحضارة فى العصر القديم .

الثانية - لجنة تاريخ الحضارة فى القرون الوسطى وفى العصر الحديث .

الثالثة - لجنة تاريخ الطب .

١٠ - تاريخ الفن والآثار ، وتنقسم الى لجتين :

الأولى - لجنة تاريخ الفن .

الثانية - لجنة الآثار .

١١ - المناهج التاريخية والعلوم المتصلة بالتاريخ . وقد

انقسمت هذه اللجنة الى لجتين :

الأولى - لجنة مناهج البحث التاريخى .

الثانية : لجنة العلوم المتصلة بالتاريخ كعلم النقوش والخطوط ، وما الى ذلك .

١٢ - لجنة البحث عن مصادر تاريخ العالم أثناء الحرب

العظمى .

١٣ — لجنة المحفوظات ونشر النصوص التاريخية .

وكان المنظمون للمؤتمر قد خصصوا له قصر المجامع العلمية ،
فظهر أن هذا القصر على سعة وكثرة غرفه أضيّق من أن يسع هذه
اللجان واضطر المنظمون الى أن يقرروا لجانا كثيرة في مواضع
مختلفة قريبة أو بعيدة من قصر المؤتمر .

وكانوا قد أجمعوا أن يفتتح المؤتمر بعد ظهر الاثنين ٩ ابريل
وأن يشرع في أعماله بعد ذلك . ولكن كثرة الأعمال وكثرة ما كان
يجب أن يلقى من الخطب ويقدم من المذكرات ، اضطر المؤتمر الى
أن يبدأ في عمله قبل أن يفتتح رسميا . فاجتمعت اللجان وبدأت
بسماع الخطب والمذكرات صباح الاثنين ، أى قبل أن يفتتح المؤتمر
رسميا .

وكنّا قد ذهبنا يوم الأحد الى سكرتارية المؤتمر فوجد كل
منا طائفة من الأوراق تنتظره . وقد كتب عليها اسمه . وهذه
الأوراق عبارة عن برنامج أعمال المؤتمر ومختصر ما كان قد قدم
من المذكرات وبطاقات الدعوة الى القصر ، وعند وزير المعارف ،
وفي الجامعة ، وفي البلدية ، ثم بطاقة شخصية تثبت أن صاحبها
عضو في المؤتمر ، ثم علامة من المعدن يعلقها العضو في صدره
ليتميزه الناس ، وليستغنى بها عن اظهار بطاقته كلما أراد أن يدخل
دارا من دور المؤتمر .

وعلمنا حينئذ أننا سنبدأ أعمالنا صباح الاثنين قبل الافتتاح الرسمي ، فلما كان يوم الاثنين ذهبنا جميعا الى الأماكن التي خصصت للجان التي يجب أن يشترك فيها كل منا . ذهبت الى لجنة المحفوظات ونشر النصوص التاريخية . وفي هذه اللجنة قدمت بذكرتي صباح الاثنين ، وكان موضوعها « نص معاهدة دفاعية هجومية » عقدت سنة ٦٩٢ للهجرة (١٢٩٢ للمسيح) بين الملك الأشرف خليل بن قلاوون وابن جايك الثاني ملك أراجون وأخويه وصهره . وكلهم ملوك لاسبانيا المسيحية . وجدت نص هذه المعاهدة العربي في الجزء الرابع عشر من كتاب صبح الأعشى ، وفي هذا النص اضطراب كثير ، وضروب من التحريف غريبة ، فكنت أمام صعوبتين : الأولى تصحيح هذا النص وتقويم ما فيه من الاضطراب والتحريف ، الثانية اثبات أن هذا النص صحيح من الوجهة التاريخية ، وأن هناك معاهدة عقدت حقا بين مصر وأسبانيا المسيحية في ذلك العصر .

وقد وفقت الى تذليل هاتين الصعوبتين بواسطة استكشاف النص أو الترجمة الأسبانية اللاتينية لهذه المعاهدة التي لم يكن نصها العربي معروفا للمؤرخين قبل اليوم . ولم يكن هذا البحث يسيرا ولا سهلا . فحسبك أن القلقشندي الذي روى نص هذه المعاهدة عن كتاب لابن المكرم سماه « تذكرة اللبيب ونزهة

الأديب » قد روى هذا النص دون أن يفهم قيمته التاريخية ، بل دون أن تفهمه بوجه ما فحرف وبدل ولم يصف المعاهدة إلا بأنها حسنة الانشاء . وحسبك أن أسماء الملوك والبلاد كانت من التحريف بحيث كان يكفي أن تقرأها لتتشك في صحة المعاهدة . فملك أراجون جايم الثاني يسمى في المعاهدة « دون حاكم » ولفظ حاكم لفظ عربى خالص لا يمكن أن يكون اسما لملك مسيحي من ملوك أسبانيا ، وتحريفه ظاهر سهل ولكن بشرط أن تصل الى أصله المسيحي . ولست أدري على من تلقى تبعة هذا التحريف ، أعلى المؤلف أم على الناسخ أم على المصحح ؟ ولكنى أعلم أن هذا الكتاب الجليل الذى سأخصه بفصل أو فصلين لو أنه صحح تصحيحا علميا متينا ، وأشرف على طبعه فاس يتقنون هذا الفن ويلموز بأصوله وباللغات الأجنبية ، ويستطيعون أن يتصرفوا في هذه اللغات كتابة وترجمة ، لخرج من المطبعة الأميرية نافعا حقا ميسرا للباحثين ، من المصريين وغير المصريين ، سبل البحث عن التاريخ . ولكن الذين أشرفوا على طبع هذا الكتاب على حسن نيتهم واتقائهم للغة العربية وما إليها ، وتصحيح الحروف ، يجهلون التوضيح العلمى وما يحتاج اليه من بحث وتنظيم جهلا تاما . وهم الى ذلك لا يعرفون لغة أجنبية ، وأحسب أنهم لم يدرسوا التاريخ ولا يستطيعون التصرف فيه ولا تأول لموصه وتفسيرها . ولهذا

كان تقع الكتاب قليلا وعسيرا جدا بنوع خاص . وحسبك أنك لا تجد فيه ثبًا بأسماء الأشخاص والأمكنة ، فأنت مضطر الى أن تقرأ الكتاب كله أو تتصفح على أقل تقدير لتعرف : أألم الكتاب بالموضوع الذى تبحث عنه أم لم يلم ؟ ومع هذا فأنا أعتقد أن هذا الكتاب أنفع كتاب تاريخي طبع باللغة العربية لمن أراد أن يدرس النظم السياسية فى البلاد الاسلامية عامة وفى مصر خاصة ، ولمن أراد أن يدرس العلاقات الدولية بين المسلمين من جهة وبينهم وبين غيرهم من جهة أخرى . ولكن صبح الأعشى أنسأى ما كنت فيه من قصص المؤثر .

سمعت فى هذه اللجنة يوم الاثنين مذكرة قدمها أحد المندوبين « لتشيكوسلوفاكيا » عما كان من تبادل المحفوظات الرسمية بين النمسا و « تشيكوسلوفاكيا » بمقتضى معاهدة سان جرمان بعد الحرب العظمى ، ودارت حول هذه المذكرة مناقشة قيمة اتخذت اللجنة بعدها قرارا لو عمل به لاستفادت منه مصر ، وخلاصة هذا القرار أن المحفوظات فى كل بلد تتبع هذا البلد فهى حق من حقوقه لا يصح أن يعتدى عليه معتد بحكم الفتح أو بأى سبب آخر . وانما يجب أن تبقى هذه المحفوظات ملكا للبلد ، الذى هى فيه ، وليس يتناول هذا القرار المحفوظات التى تمس الادارة أو الشؤون السياسية وحدها ، وانما يتناول المحفوظات جميعا

إدارية كانت أو سياسية أو فنية أو علمية ومهما يكن تاريخها .

أقول لو عنت الدول بهذا القرار الذى اتخذه العلماء لاستفادت مصر فائدة عظيمة جدا ، فنحن نعلم أن من حقنا أن نطالب تركيا وانجلترا بمحفوظات كثيرة نقلت الى قسطنطينية والى لندنرا فى عصور وظروف مختلفة . ولعلك تعلم أن من يريد أن يدرس التاريخ السياسى الدولى لمصر فى القرن التاسع عشر مضطر الى أن يذهب الى لندنرا ويراجع محفوظات كثيرة فى وزارة الخارجية الانجليزية . وهناك أشياء نجهلها وقد نعلمها فى يوم من الأيام حين نعى بمحفوظاتنا السياسية والادارية عناية علمية . ولعلك تعلم أن من يريد أن يدرس التاريخ السياسى والعلمى والأدبى لمصر أيام المماليك مضطر الى أن يختلف الى مكاتب القسطنطينية ، وأن دأب الكتب المصرية أوفدت منذ حين ساحة السيد محمد البىلاوى ليستنسخ فى مكاتب القسطنطينية كتباً عربية كثيرة . ولعلك لم تنس أن الترك حين فتحوا مصر حملوا الى قسطنطينية كنوزها العلمية والأدبية والفنية . فمن هذه الكنوز ما تبدد . ومنها ما لا يزال محفوظا فى القسطنطينية . ومن الحق أن يعود هذا كله الى مصر . ولكن أنظن أن قرارا يتخذه العلماء يستطيع أن يؤثر فى رجال السياسة سواء آكانوا من الانجليز أم من الترك ؟

ثم كانت الساعة الثالثة بعد الظهر فافتتح المؤتمر رسمياً .

أكتظت غرفة الاحتفالات في قصر المجامع العلمية بأعضاء المؤتمر ،
وأقبل الملك والملكة والأمراء فافتتح المؤتمر وقدم رئيسه التحية
الى الملك والملكة كما ذكرت في الفصل الماضي . وهنا لا أستطيع
أن أخفى ابتهاجى حين سمعت لفظ مصر يذكر في كلمة التحية .
فقد كنت غائى اثنين مصريين حضرا المؤتمر . وكان الآخر جورج
أفندى قطاوى العضو بالبعثة السياسية المصرية في باريس . كان
يمثل الجمعية الجغرافية الملكية . وكنت المصرى الوحيد الذى
يلبس الطربوش . ولم أكن أعلم بحضور مواطنى في هذه الجلسة ،
فكنت أشعر بالعربة حقا . فلما سمعت لفظ مصر يذكر في تحية
الملكة ، بمناسبة زيارتها الأخيرة ، أحسست شيئا من الابتهاج
والحنان . ولعلنى لا أغلو اذا قلت انى أحسست شيئا من الكبرياء
أيضا .

لِمَ أخفى عليك الحق ؟ كنت قبل هذه السياحة في بلجيكا
مقتصدا كل الاقتصاد في الاقتحار بمصريتى اذا تحدثت الى
الأجانب أو جمعتنى وإياهم المجامع . ذلك لأننى أشعر دائما بما نحن
فيه من ضعف ونقص قبل أن أشعر بما كان لنا من مجد وبما يدخر
لنا الزمان من رقى . أستحضر دائما ضعفنا ولقصنا الاجتماعيين ،
كما أستحضر دائما ضعفى ونقصى الشخصيين . فأقواسع فى
الحديث وأقتصد فى الفخر . ولست أدري أمزية هذه أم تقيصة ،
ولكننى أعلم أن هذا خلق من أخلاقى .

أما الآن وقد زرت بلجيكا ، وتحدثت الى هؤلاء الناس
المختلفين . وسمعت ما ذكرت وما تذكر به مصر . وعرفت رأى كثير
من هؤلاء الناس فى مصر . فقد أشعر بأن من حقى أو من الحق
على " ألا أسرف فى التواضع وألا أغلو فى الاقتصاد اذا ذكرت مصر
وذكر المصريون . ذلك أن رأى الأجانب فى مصر حسن جدا .
ولا سيما اذا كان هؤلاء الأجانب بعيدين عن السياسة وأوزارها .
نعم رأى الأجانب فى مصر حسن لأنهم يفهمون مصر خيرا مما تفهمها
يقدرون مجدها القديم لأنهم يفهمونه حقا . ويقدررون مركزها
الحديث لأنهم لا يتعصبون لمذهب سياسى ولا يميلون مع الهوى
الى حزب من الأحزاب .

يجب أن أعترف بالحق لأهله . يجب أن أثنى على ثروت باشا
وعلى تصريح ٢٨ فبراير وعلى اعلان الاستقلال فى ١٥ مارس .
فالناس فى مصر يزدرون هذا كله ، ويسخرون منه ، ويرون أنا غير
مستقلين . وقد يكون من الحق أنا غير مستقلين بالفعل وأنا ان
نستقل بالفعل الا يوم يجلو الانجليز . ولكن من الحق أيضا أن
الأجانب الذين لا يشتغلون بالسياسة والذين يشتغلون بها ينظرون
الى مصر كما ينظرون الى انجلترا . أى أنهم يعترفون بأن مصر
مستقلة كما أن انجلترا مستقلة وكما أن بولونيا مستقلة ، وهم
يعجبون بمصر قديمها وحديثها . يعجبون بقديحها لأنه خليق

بالاعجاب . ويمجبون بعديتها لأنه يدهشهم ويملك عليهم أهواءهم
ولقد سمعت أكثر من عشرين أجنبيا منهم البلجيكي والفرنسي
والبولوني والأمريكي يذكرون مصر الحديثة فيمجبون بها لأنها
تتطور في سرعة مذهشة . ولأن نهضتها الحديثة فذة في التاريخ .

سمعت اسم مصر أذن فابتهجت وامتلا قلبي حناا وشعرت
بشيء من الكبرياء ، لأنني كنت أو لأن طربوشى كان رمزا لمصر
بين هذه الرؤوس الحاسرة التي كانت تزيد على الألف .

ولكنى بعدت عن المؤتمر وغاوت في الاستطراد . وبماذا تريد
أن أحدثك عن هذه الجلسة الرسمية ، التي هي كغيرها من
الجلسات الرسمية : ثناء على الملك والملكة . وتحية من الحكومة
البلجيكية للمؤتمر . ثم خطبة مطولة من رئيس المؤتمر ألم فيها
ببحث تاريخي قد أذكره في غير هذا الفصل ثم تلاوة قرارات
اتخذت لحسن نظام الأعمال ، ثم ينصرف الأعضاء . اتصلت هذه
الجلسة ساعتين . وسمع المالك والملكة والأمراء كل ما قيل وانصرفوا
مع الناس دون أن يظهر عليهم ملل أو ضجر . أكانوا حقاً مغتبطين
بهذا الحديث الطويل الكثير الثقيل على آذان الملوك ؟ أم كانوا
مجاملين ؟

باريس في ١٨ أبريل سنة ١٩٢٣ .

كان لذيذا جدا ذلك اليوم الثانى من أيام المؤتمر . كان لذيذا وكان مفيدا . لم نكد نبدأ أعمالنا فى ذلك اليوم حتى سمعت فى لجنة المحفوظات مذكرة نافعة قدمها مدير المحفوظات فى بلجيكا عن نظام ادارة المحفوظات ، وما يجب أن يتخذ من ضروب الحيلة ، حتى لا تضيع هذه المحفوظات ولا تتعرض للخطر . وسأحدثك عن هذه المذكرة فى مقال آخر أصف فيه دار المحفوظات فى بروكسل وألم فيه بالموضوع المأما مفيدا .

سمعت هذه المذكرة ثم تركت لجنتى وذهبت الى لجنة أخرى مجاورة هى لجنة تاريخ الحضارة فى العصر القديم ، أو بعبارة أصح لجنة التاريخ العقلى فى العصر القديم . فى هذه اللجنة كان ينتظرني دهش عظيم ولذة أعظم . لأنى سمعت محاورة ما كنت أظن أنى سأسمعها فى يوم من الأيام . وكانت هذه المحاورة بين عالين خطيرين : أحدهما فرنسى والآخر بلجيكى . كان موضوع هذه المحاورة غريبا ، وكانت المناقشة فيه حادة طويلة ، حتى صرفت اللجنة عن أعمالها صباح الثلاثاء . ذلك أن أحد الفلاسفة البلجيكين الأستاذ « دوبريل » ألف منذ حين كتابا فى تاريخ الفلسفة اليونانية ،

وزعم في هذا الكتاب أن البحث التاريخي الصحيح ينتهي بالباحث الى أن سقراط شخص خرافي لم يوجد ولم يعرفه التاريخ ، وأن خلاصة حكم التاريخ فيه كخلاصة حكم التاريخ في هوميروس . كلاهما شخص آمن به القدماء وأظهر التاريخ أنه لم يوجد قط ، وكلاهما شخص اتخذ رمزا لنوع من الآداب ، فاتخذ هوميروس رمزا لكل الشعر القصصي الذي عرفه اليونان وتناقلوه قبل القرن السابع ، واتخذ سقراط رمزا لهذه الفلسفة التي عرفها اليونان وافتنوا فيها منذ أواخر القرن الخامس وطول القرن الرابع قبل المسيح .

أعترف بأني دهشت الدهش كله حين قرأت عنوان هذه المحاضرة قبل الذهاب الى المؤتمر . فما كنت أظن أن وجود سقراط يصل في يوم من الأيام الى أن يكون موضوع بحث ، فضلا عن أن يكون موضوع شك ، بل فضلا عن أن يكون موضوع انكار . ذلك لأن سقراط لم يعيش في عصر جهل وبداعة ، ولا في أيام خرافة وأساطير ، وإنما عاش في عصر علم وحضارة ، وفي أيام تحقيق وتاريخ . والناس مجمعون منذ أوائل القرن الرابع قبل المسيح على أن هناك آتينيا كان اسمه سقراط . وكان معروفا طول حياته بالميل الى الفلسفة والكلف بها . وكان ممتازا بأطوار حياته الغريبة ، ومناهج بحثه الجديدة . كان يمشي حافيا في الشوارع ويتكأ في اليادين ، متصدئا الى الشيوخ والشبان ، متلفعا مع هؤلاء ، محاورا مناقشا

سائلا مجيبا ، حتى استحدث في الأدب اليوناني فنا جديدا ، هو فن الحوار الفلسفي . وحتى رسم للعقل الانساني طريقا جديدة لم يقطعها العقل الانساني بعد . الناس مجمعون على ذلك ، ومجمعون على أن سقراط هذا كان له خصوم وأنصار ، وعلى أن خصومه حاربوه فسخروا منه ، ثم اتهموه أمام المحكمة ، وعلى أنه أساء الدفاع عن نفسه عمدا ثم سخر من القضاة فقصوا عليه بالموت ثم انتظر الموت شهرا ثم شرب السم وظل يحاور تلاميذه في خلوسد النفس حتى مات ثم تفريق تلاميذه فأنشأوا المدارس والمذاهب الفلسفية المختلفة في بلاد اليونان على اختلافها وباعد أطرافها . وعاش من هذه المذاهب مذهب واحد هو مذهب أفلاطون الذي أخذ ينطور ويستحيل حتى أتتج فلسفة أرسطاطاليس ، وكثيرا من المذاهب الفلسفية الأخرى التي لا تزال متاعا عاما للنوع الانساني الى الآن .

الناس مجمعون على هذا كله ، ولديهم أدلة ظاهرة تبيح لهم هذا الاجماع . فليس من شك في وجود أرسطوفان المثل اليوناني المضحك . وليس من شك في أن أرسطوفان قدم إلى الملعب الآتينى نحو سنة ٤٢٤ قبل المسيح قصة السحاب التي تداولها الناس ، والتي تدور حول سقراط وتتخذة وسيلة الى تسلية الجمهور الآتينى واضحاكه ، وليس من شك في أن كتب التاريخ اليونانية

والرومانية ذكرت موجزة أو مطبئة قضية سقراط وموته والمذاهب الفلسفية التي نشأت عن حواراته ومناقشته ، ليس من شك في هذا كله ، ولكن الأستاذ « دوبريل » وجد طريقا إلى الشك ، وفي الحق أنه لم يفتزع هذه الطريق ، فهي موجودة من قبل ، وفيها ما يبعث على الدهش والحيرة ، فمن الواضح أن أحدا لم يشك في وجود سقراط قبل الأستاذ « دوبريل » ولكن من الواضح أيضا أن المحدثين من مؤرخي الفلسفة عاجزون إلى الآن كل العجز عن تحقيق فلسفة سقراط ، وبيان ما كان له من مذهب في الأخلاق أو في غير الأخلاق . فهم يؤمنون بوجود سقراط وبأنه أبو الفلسفة . ولكنهم لا يستطيعون أن يبينوا فلسفته . بل هناك ما هو أغرب من هذا : لا يستطيعون أن يصفوا سقراط ولا أن يتميزوا شخصيته المعنوية . فلسفات شخصيات كثيرة تختلف باختلاف تلاميذه . فأفلاطون يعطى من سقراط شخصية تخالف تلك التي يعطيها « كسوفون Xenophon » وهذه الشخصية تخالف ما يمكن أن يستخلص من « فيدون Phédon » ، وكل هذه الشخصيات تخالف ما نجد في قصة السحاب . وإذا كان الأمر كذلك فما الذي يمنع من الشك في وجود سقراط ؟ وكيف نستطيع أن نتصور شخصا وجد من غير شك وكان أبا الفلسفة وملهم الفلاسفة ، وأحدث في العالم اليوناني خاصة والإنساني عامة ضجة هائلة أعدت العالم

المضجعة التي أحدثها المسيح ، دون أن تميز شخصيته أو أن تبين أصلا واضحا جليا من أصول فلسفته ؟

نعم قد يجاب على هذا بأن سقراط لم يكتب شيئا ، وإنما تحدث فاختلفت أحاديثه وعيبت بها تلاميذه ومن هنا اختلفت شخصيته الفلسفية ، وأصبح تمييزها شيئا عسيرا . ولكن فلاسفة كثيرين وجدوا قبل سقراط ولم يكتبوا ومع هذا فقد تميزت شخصياتهم ، مع أن فلسفتهم فشلت ولم تظفر من الفوز ببعض ما ظفرت به الفلسفة التي تضاف إلى سقراط . هذا مصدر الشك في وجود سقراط . وقد افتن فيه الأستاذ « دوبريل » ولم يكتب تسجيله ، بل ذهب إلى ما هو أبعد من هذا فأثبت أو حاول أن يثبت شيئين : الأول أن شخص سقراط شخص خرافي كشخص « جحا » كان موضوع العبث والسخرية في قصص الممثلين وأن الفلاسفة الذين جاءوا في أواخر القرن الخامس وفي القرن الرابع قد اتخذوا هذا الشخص الخرافي ، التخيلى هو موضوع السخرية والعبث ، مثالا للجد . ولكن للجد الحلو الذى هو أقرب إلى الفكاهة منه إلى الجد الخالص ليحببوا فلسفتهم إلى الناس . ثم أخذ هذا الشخص الهزلى قديما الجدى حديثا ، يتطور في جده ويمعن في فلسفته ، حتى أصبح مثالا للجد الخالص ، وأبا للفلاسفة ، ورمزا للفلسفة وحتى نسجت حوله هذه الأسطورة الغريبة التي

جعلته بطلا من أبطال الانسانية . الثانى أن فلسفة سقراط ليست جديدة ولم تنشأ كما يعتقد المؤرخون لمحاربة السوفسطائية ، وانما هى ملوز من أطوار الفلسفة اليونانية القديمة ، لم يستحدثها فيلسوف بعينه فى عصر بعينه . ويثبت الأستاذ « دوبريل » نظريته هذه بالرجوع الى نظريات الفلاسفة اليونانيين قبل سقراط وما يوجد فيها من أصول الفلسفة السقراطية . هذه نظرية الأستاذ «دوبريل» أوجزتها ايجازا شديدا أخشى أن يكون قد أفسدها وانتقص من أطرافها .

نهض لنقض هذه النظرية أستاذ فرنسى هو الأستاذ « ليفير » من علماء مدينة « ليل » وأعترف بأنى كنت معجبا بهذا الأستاذ حين كان يشكلم . ولم أكن منفردا بهذا الاعجاب وانما كان أعضاء اللجنة جميعا ومنهم الأستاذ « دوبريل » نفسه يشاركونى فيه . ولم يكن مصدر هذا الاعجاب فيما أظن اقتناعنا بردود الأستاذ ، وانما كان مصدره قبل كل شىء حبا لسقراط وحرصنا على أن يكون شخص سقراط شخصا حقيقيا تاريخيا ، وشعورنا بأن الأستاذ « ليفير » يحاول أن يثبت لنا وجود هذا الشخص الذى نحب ونكلف به . الحق أن الوقت لم يسمح للأستاذ « ليفير » بمناقشة خصمه كما ينبى . فهناك نصوص يونانية ولاتينية لم يكن بد من تحليلها ومناقشتها . وذلك يحتاج الى كتاب لا الى محاضرة . والى أشهر

لا الى ساعة . ولكن هناك شيئا يظهر أنه لا يقبل الشك وهو أن الأستاذ « دوبريل » غاب في نظريته وسلك فيها مسلك الفيلسوف لا مسلك المؤرخ . فيجب أن نلاحظ أن سبيل المؤرخ تخالف سبيل الفيلسوف ، وقد تضادها مضادة كاملة فتذهب احدها الى الشمال وتذهب الأخرى الى الجنوب . ذلك لأن الفيلسوف يخضع في فلسفته لقواعد معينة مرسومة في ذهنه . فمن المعلوم جدا أن ينتقل من مقدمة الى مقدمة حتى يصل الى النتيجة التي يسعى اليها ، سواء أكان بحثه صحيحا أم غير صحيح في نفسه . فاذا رأى الأستاذ « دوبريل » أن فلسفة سقراط تكاد تكون موجودة برمتها عند الفلاسفة الذين تقدموه ، وأن شخصية سقراط غامضة متناقضة عند تلاميذه وفيما تركوا من الأسفار ، وأن شخص سقراط كان موضوع البحث والسخرية عند الشعراء الممثلين كان من اليسير عليه أن يصطنع المنطق فينظم مقدماته ويرتبها حتى يصل الى هذه النتيجة ، وهي أن سقراط شخص خرافي . هذه النتيجة مطمعة خلافة ، لأنها تخرق الاجماع أولا ، ولأنها تخيل الى صاحبها أنه قد رد الأمر الى نصابه فأثبت اتصال الفلسفة ونفى انقطاعها . ولأنها بعد هذا وذاك ان أفلحت كانت خليفة أن تخلد اسم صاحبها في تاريخ الفلسفة كما خلد اسم « ولف » في تاريخ الأدب اليوناني . هذه سبيل الفيلسوف ، أما سبيل المؤرخ فمخالفة كل المخالفة لهذه

السييل ، فهي لا تتبع قوانين منطقية معينة ، وإنما تتبع الحياة
الانسانية العملية . والحياة الانسانية العملية لا تزال تظهر لنا الى
الآن مختلفة مضطربة متناقضة . لأننا لم نوفق بعد الى استكشاف
قوانينها الخفية . فمن المعقول جدا أن يظهر للفيلسوف شىء يراه
منتظما متجا ولا يقره التاريخ . ومن المعقول أن يرجح المؤرخ
شيئا لا يقره الفيلسوف . وليس فى هذا شىء من الغرابة .
فالفيلسوف بطبيعته منكر لحياة الناس العاديين يزدريها ويستخفها .
والناس العاديون منكرون لحياة الفلاسفة يزدريها بعضهم ويكبرها
أكثرهم ، ولكنهم جميعا يرون أنها تخالف أطوارهم وعاداتهم .
ومن هنا وجد التناقض بين حياة الناس وفلسفة الفلاسفة . وسيل
التاريخ أن يبحث عن حياة الناس كما يحيونها لا كما يتصورها
الفيلسوف . فليس غريبا أن يؤمن المؤرخ بوجود سقراط ، ويعجز
فى الوقت نفسه عن شخصيته وإزالة ما حوالها من الغموض . أضف
الى هذا أن هناك أشياء يخرج الشك فيها عن طور المعقول . فالعصر
القديم والقرون الوسطى والعصر الحديث لا تعرف قبل المسير
«دوبريل» نصا يشير الى الشك فى وجود سقراط . بل هناك شىء
آخر ذكره الأستاذ « ليفر » وعجز الأستاذ دوبريل عن دحضه ،
وهو أن قصة سقراط تصم الآتينيين بجناية منكورة ، هى قتل هذا
البطل العظيم فلما وفى غير انصاف . والتاريخ يثبت أن الآتينيين

كانوا يفارون على شهرتهم وحظهم من حسن الذكر . فكيف
تتصور أن هؤلاء الناس وصوا أنفسهم بهذه الوصية ؟ أو سكتوا
عن البدين وصوهم بهذه الوصية : عن أفلاطون وكسوفون
وغيرهما من تلاميذ سقراط . ألم يكن معقولا أن يغضب الآتينيون
لهذه التهمة المنتحلة التي كان يستغلها أعداؤهم الكثيرون ؟ هناك
شيء آخر وهو أننا إذا استبحنا لأنفسنا الشك من غير حساب ،
لم ندر إلى أى حد ينتهى بنا الشك فى التاريخ . فما الذى يمنع
الأستاذ « دوبريل » من أن يشك غذا فى وجود أفلاطون وبعد
غدا فى وجود أرسطاطاليس ؟ ومن يدري لعل شخص نابليون بعد
زمن قليل أو كثير يصبح عند بعض الباحثين شخصا خرافيا كشخص
هوميروس أو كشخص سقراط عند الأستاذ « دوبريل » . قلت لك
إن سبيل المؤرخ تخالف سبيل الفيلسوف ، وإن الأول يستطيع
بل يجب عليه أحيانا أن يقر ما ينكر الفيلسوف وأن ينكر ما يقر
الفيلسوف . ولقد انتقلت من هذه اللجنة إلى لجنة أخرى هى لجنة
تاريخ الديانات وكنت غير مقتنع برأى الأستاذ « دوبريل »
فسمعت فى هذه اللجنة الثانية أحد أساتذتى وهو الأستاذ « جينيير »
يتكلم ورأيت الناس من حوله فى هرج ومرج . ووددت حين سمعت
ما كان يقول لو حضر الأستاذ « دوبريل » . ذلك لأن الأستاذ
« جينيير » كان يعلن مبسما ساخرا أن أعداء التاريخ ثلاثة : عالم

الدين ، ورجل القانون ، والفيلسوف . ضحك ناس وسخط ناس
واحتج آخرون . أما أنا فضحكت ولم أسخط ولم أحتج ، وإنما
هناك الأستاذ . وهنا أعتذر الى علماء الدين والى رجال القانون ،
وأسأل صديقى منصور عن رأيه فى هذا : أحق أن الفيلسوف
عدو للتاريخ ؟

باريس فى ٢٠ ابريل سنة ١٩٢٣ .

فكرت في مصر ، وفي نص الدستور على السودان ، وفي وزارة الشعب ، وفي الوزارة القائمة يوم الثلاثاء ١٠ ابريل حين كنت أسمع بعد الظهر في جلسة عامة للمؤتمر خطبة قببة دقيقة ممتعة كان يلقيها الأستاذ الفرنسى « بريمون » كانت الخطبة قيمة ممتعة ، لأنها كانت تفسر لنا لغزا من ألغاز التاريخ — الفرنسى الانجليزى --- وتوضح لنا ألقابا وعنوانات نجدها في نصوص السياسة الخارجية الفرنسية والانجليزية قبل الثورة الفرنسية . وكانت دقيقة لذيدة لأنها كانت تلقى بمحضر من قوم مختلفين يمثلون أما مختلفة . وبمحضر كثير جدا من الانجليز وكثير جدا من الفرنسيين . وكان الذى يلقيها فرنسيا . وكان رئيس المؤتمر حينئذ انجليزيا . والناس يذكرون ما بين فرنسا وانجلترا من خلاف ومشادة ومناخسة في الشرق والغرب فلم يكن بد للأستاذ الفرنسى من أن يصطنع الدقة والتلفظ وحسن المدخل حتى لا يؤذى أولئك ولا يهيج هؤلاء . ولا تقل كان المؤتمر علميا والعلماء فوق السياسة . فسأحدثك في غير هذا المقال بما يشئت لك أن العلماء ليسوا فوق السياسة . وأنهم كغيرهم من الناس يخضعون للعاطفة الوطنية ويندفعون معها والفرق

بينهم وبين العامة أنهم يجتهدون في أن يزنوا هذا الماندفاع
وآلا يضحوا بالعلم في سبيل السياسة وقلما يوفقون . ولكني أثبتت
على الخطبة وأطلت الشاء ولم أحدثك بموضوعها .

كان موضوع هذه الخطبة لقباً من ألقاب ملك إنجلترا . فقد
كان ملوك إنجلترا يلقبون أنفسهم بهذا اللقب وهو « ملك فرنسا »
وكانوا يصطنعون هذا اللقب ويحرصون عليه الحرص كله في
علاقاتهم السياسية بملوك فرنسا . ولم يكن ملوك فرنسا يستطيعون
أن يصطنعوا هذا اللقب . فكانوا يلقبون أنفسهم بأصحاب الجلالة
المسيحية جداً . وحاول لويس الرابع عشر أن يحمل ملوك إنجلترا
على أن ينزلوا عن هذا اللقب فلم يفلح . ولم يفلح بعده لويس
الخامس عشر . وغريبة جدا الحيل التي كان يتخذها المندوبون
السياسيون للويس الرابع عشر وللويس الخامس عشر ، ليمحوا
هذا اللقب من ألقاب ملك الانجليز ، أو ليخفوه دون أن يوفقوا
حتى لقد حاول بعضهم أن يمحوا هذا اللقب من النص الفرنسي
لمعاهدة بين البلدين على أن يبقى في النص اللاتيني . لأن الجمهور
يقرأ النصوص الفرنسية ولا يقرأ النصوص اللاتينية فلم يفلح .
وحتى لقد كان أحد ملوك إنجلترا منفيًا مخلوعاً . وكان يأوى الى
فرنسا ، وكان ضيفاً على لويس الرابع عشر وكان لويس الرابع عشر
يحميه ويدفع عنه . وكان مع ذلك يلقب نفسه ملك فرنسا . ولم

يوفق الفرنسيون الى محو هذا اللقب من ألقاب ملوك الانجليز
الا أيام الثورة ، أو بعبارة أصح أيام القنصلية . فقد ائتمن الخلاف
بين مفوضى الجمهورية الفرنسية ومفوضى المملكة الانجليزية حول
هذا اللقب . وكانت حجة الفرنسيين أن الثورة قد ألغت الملكية
من فرنسا فهم لا تعترف بلقب يخيّل أن لفرنسا ملكا ، كائنا من
كان ، سواء أكان هذا الملك فرنسيا أم غير فرنسى ، وسواء أكان
ملكاً حقاً أم لفظاً ، وأن الانجليز الذين يريدون أن يعترفوا
بالجمهورية يجب عليهم — ليكونوا منطقيين مع أنفسهم — أن
يمحوا هذا اللقب من ثبوت الألقاب الملكية . وأبى الانجليز ذلك
فانقطعت المفاوضات واستؤنف الجهاد بين البلدين . فلما كانت
القنصلية وظهر الميل الى الصلح بين الانجليز والفرنسيين . وأخذ
الساسة فى البلدين يوطئون لمعاهدة « أميان » (Amiens) أحس
الانجليز أنهم إذا لم ينزلوا عن هذا اللقب فستنتطح المفاوضات
وأحسوا فى الوقت نفسه أنهم ان نزلوا عن هذا اللقب بمقتضى
مفاوضات بينهم وبين فرنسا ، كان هذا النزول التصاراً لفرنسا
وخزياً وطنياً للانجليز . فاتهمزوا فرصة ضم ايرلندا الى المملكة
الانجليزية ، وصدر آخر ديسمبر سنة ١٨٠٠ مرسوم ملكى يعلن
أن ملك انجلترا سيلقب من أول يناير سنة ١٨٠١ ملك « بريطانيا
العظمى و ايرلندا » ولم يذكر اللقب الذى كان عليه الخلاف ، وهو

ملك فرنسا . وبهذا محى هذا اللقب ولم يحتج الفرنسيون إلى أن
يفاضوا في محوه . ولم يحتج الانجليز إلى أن يتخذوا في المفاوضة .
ولكن هذا لم يمنع المؤرخين الانجليز من أن يعترفوا في أواسط
القرن الماضي بأن هذا النزول كان خزيا وطنيا وامتهانا لكرامة التاج .
ذكرت مصر وذكرت نصوص الدستور على السودان . وذكرت
تلقيب ملك مصر بأنه ملك السودان . وذكرت هذه السهولة التي
أظهرتها وزارة مصرية في النزول عن هذا اللقب ، ولو إلى أجل .
ذكرت ذلك فاستخذيت لوزارتنا . ومن ذا الذي يذكر هذا
ولا يستخذي ؟ جاهدت انجلترا قرونا تحتفظ بلقب لا خير فيه فلم
يكن ملك انجلترا ملكا لفرنسا أيام لويس الرابع عشر . بل كان
ملك انجلترا يخشى ملك فرنسا . ومع هذا كان يلقب نفسه ملك
فرنسا . لم يكن هذا اللقب مفيدا ، بل كاف مضحكا . ومع ذلك
لم تنزل عنه انجلترا الا حين اضطرت اضطرارا شديدا إلى النزول
عنه أما نحن — أستغفر الله — ! — أما وزارتنا فقد نزلت عن هذا
اللقب : « ملك السودان » . وهي تعلم أنه ليس لقباً لفظيا . وهي
تعلم أنه لقب يمثل الحق والعدل والقانون . وأن الاحتفاظ به
احتفاظ بحق مصر ، والتفريط فيه تفريط في حق مصر . نزلت عنه
ولما تضح في الاحتفاظ به بالقليل ولا بالكثير . نزلت عنه لأن ممثل
انجلترا قطب جبينه ولوى وجهه . ذكرت هذا كله وذكرت جهاد

الانجليز في الاحتفاظ بلقب سخيـف ثم اصرارهم على ألا تحتفظ مصر بلقب هو كما قلت مثال الحق والعدل والقانون . استخذت لوزارتنا وسألت الله أن يمنح مصر ساسة يستطيعون أن يقاوموا ساسة الانجليز !!! ثم سمعنا خطبتين : احدهما عن نقوش يونانية استكشفت في آسيا الصغرى ألقاها عالم انجليزى . والأخرى عن أثر الخرافات والنبوءات في سياسة الجمهورية الرومانية ألقاها عالم بولونى . ثم انصرفنا الى القصر وكانت الساعة الخامسة من هذا اليوم قد ضربت موعدا لمثول أعضاء المؤتمر بين يدي الملك والملكة . فرأيت في هذا القصر أشياء كثيرة تركت في نفسى آثارا قوية . رأيت قبل كل شىء مظهرا من مظاهر حب العلم والتهالك عليه والافتتان في نصره . ومظهرا من مظاهر الوطنية الصادقة القوية . ومظهرا من مظاهر اجلال أوربا لعلمائها واكبارها لمكائتهم ، ومفاخرتها بهم ، وكان الذى يشل هذه المظاهر رجلا شيخا فانيا قد تجاوز السابعة والثمانين وانحنى على العصا فما يستقيم له ظل ، وانحلت قواه فما يشى الا متاثقلا . وما يكاد يستقل بنفسه فهو محتاج أبدا الى من يعتمد عليه . وكان مبتسما . وكان فرحا . وكان يتلطف في الحديث الى كل من ذهب يحييه ، وقد ذهبنا كلنا نحبيه . وكان وحيدا ، أى لم يكن يمثل بلده سواء . وكان جالسا على كرسى في ناحية من نواحي البهو الذى كنا ننتظر فيه وقوفا أن يؤذن لنا بتحية

الملك . هذا الشيخ الذي كانت تحومله بلجيكا والذي كان يرمعه المؤتمر كله ، هو الأستاذ « شيت » (Selimich) أقبل من كوبنهاجن يمثل الدانمرك في المؤتمر . وألقى في لجنة الشرق خطبة عن مقدار علم المصريين القدماء بتاريخ مصر القديم ، فكان لخطبته فوز وتحدثت بها صحف بلجيكا . ذهبت الى هذا الرجل فحيته وشكرت له عنايته بتاريخ مصر . فما أشد ما أثرت فيه تحيتي وشكرى . وما أحسن ما أظهر ميله الى مصر واعجابه بمصر وأمله في مستقبل مصر .

اذن لنا في الدخول ، ورتبنا حسب أحرف الهجاء . فدخل أعضاء المؤتمر البلجيكيون ، ثم ممثل البرازيل ، ثم الشيخ الفانى ممثل الدانمرك وكنا اثنين يمثلان مصر . وكانت زوجى تصحبنى . وكنا وراء هذا الشيخ ، فسمنا تحية الملك له وسمعناه يتحدث بكلام كثير الى الملك لم نفهم منه شيئا ، ولم يفهم الملك منه شيئا . لأن الرجل متقدم فى السن فهو لا يكاد يبين اذا تكلم الفرنسية . ثم أراد الرجل أن ينصرف فزلت قدمه وكاد يسقط ثم صافح الملكة وأراد أن ينصرف وكاد يسقط ولولا أن كبير الأمراء كان يسنده لهورى الى الأرض .

مردنا أمام الملك والملكة فصافحنا الملك وأعلن إلينا أنه سعيد برؤية مصرى وأن الملكة كانت سعيدة جدا بما أظهر المصريون لها

من الكرم وحسن الضيافة . وصافحتنا الملكة فأعلنت إلينا اغتباطها
بهذه السياحة البديعة التي ساحتها في هذا البلد الذي ليس له مثيل .
ثم مرت بعدنا انجلترا فذكرت أنا مستقلون وأنا لاتباع تركيا وأنا
لاتباع إنجلترا وأن تصريح ٢٨ فبراير ليس لقوا ولا حديثا من
الأحاديث . وإنما هو حقيقة . واقعة ليست عبثا بالعقول كما يظن
كثير منا في مصر .

خرجنا من غرفة الاستقبال وكنت أظن أن لم يبق لنا إلا أن
نصرف . ولكني دهشت حين وجدت نفسي في غرفة قد مدت فيها
الموائد ووقف خدم القصر يقدمون إلى أعضاء المؤتمر الشاي
وأشياء الحلوى والأشربة (التي يبيحها الاسلام) وأنا لقي شاي
وحلوى وبرتقال يتبع بعضنا بعضا ، كلما فرغت طائفة من تحية الملك
تقدم إليها الخدم فسألوها عما تشتهى حتى انتهت المقابلة . أقول
أنا لقي هذا كله وإذا بالملك والملكة والأمراء قد خرجوا من غرفة
الاستقبال واختلطوا بالناس ، وانبشوا في أنحاء الغرفة يتحدثون
إلى المؤتمرين مع شيء من السذاجة وارتفاع الكلفة غريب . وكأذ
الرئيس البلجيكي للمؤتمر الأستاذ « بيرين » (Pirenne) يتبع
كبار العلماء وذوى المكاة منهم فيقدمهم إلى الملك مرة ، وإلى
الملكة مرة أخرى ، وكان المؤتمرون البلجيكيون يتبعون بقية
الأعضاء فيقدمونهم حينما إلى ولي العهد وحينما آخر إلى أخيه

وحينا آخر الى أخته وقد قدمت أنا وزوجى الى هذه الأميرة الصغيرة ، وهى فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها ، مشرقة يتحدث وجهها بما يملؤها من قوة الشباب وبما لا يزال يملكها من سذاجة الطفولة ونعومتها ، فى زى ساذج عادى ، كالذى تصطنعه الفتيات فى أسر الطبقات الوسطى فى أوروبا وفى مصر . قدمنا اليها على أننا نمثل مصر . وقال مقدمنا اننا نسل بلدا غريبا لا لما تنكشف عنه المباحث العلمية من عجائب تاريخه القديم بل لما يبهى عقول الأوروبيين من حركته المدهشة ونهضته السريعة التى بدأت منذ سنين فقطعت فى زمن قصير ما أفنت أوروبا فى قطعه طوال الأعوام . فسألت الأميرة زوجى عن المرأة المصرية ومقدار رقيها ، وان زوجى لتصف لها سرعة رقى المرأة المصرية اذ أقبلت سيدة بولونية عالمية مؤرخة من أعضاء المؤتمر ، فاندفعت الى الأميرة دون أن تقدم اليها ، ودون أن تستأذن . ثم أسرعت الى يد الأميرة فهزتها هزا عنيفا وسألت الأميرة بصوت غليظ : أتخين التاريخ ؟ أجابت الأميرة فى استحياء : نعم ياسيدتى ، وأى فرع من فروع التاريخ تحبين ؟ بهتت الفتاة لحظة ثم قالت : انى لم أحسن درس التاريخ ولا أعلم منه الا قليلا ، فلا أستطيع أن أوثر فرعاً من فروعه دون الآخر . ضحكت السيدة ضحكاً عالياً ثم هزت يد الأميرة هزا عنيفا وقالت فى صوتها الغليظ : ادرسى تاريخ الفن فهو سهل

والناس جميعا يستطيعون أن يفهموه . ثم مضت لشأنها . وقدم
الى الأميرة لاس آخرون . ولبثنا كذلك ساعة . ثم انصرف الملك
والملكة والأمراء فانصرف كل منا الى مأواه .

عرفت في هذه المرة أيضا لم يحب البلجيكيون ملكهم وملكتهم
وأمرأهم . وكيف لا أفهم ذلك وقد أقبل من قدمنا الى الأميرة
فصباح بي : مسيو حسين ، تعال أقدمك الى أميرتنا الصغيرة . وكيف
لا أفهم ذلك وقد سمعت الأستاذ « بيرين » يصيح بأعلى صوته :
« برنس ليوبولد ! أين البرنس ليوبولد ؟ أين ذهب ؟ انى أريد أن
أقدم اليه ... » فيجيبه أحد البلجيكيين : « ها هو ذا يتحدث الى
قلان » فيذهب الأستاذ بيرين ويمهل الأمير حتى اذا فرغ من حديثه
أخذ بذراعه ومضى حتى يقدمه الى أحد العلماء . والملكة تنتقل
بين صفوف المؤتمرين فتتحدث الى هذا وتسال ذاك وتبسم لهذا
وتصافح ذاك .

كيف لا أفهم حب البلجيكيين لملكهم وملكتهم وأمرأهم وهم
على هذا الحظ من الديمقراطية ؟

ألا اتا في عصر تنتصر فيه الديمقراطية انتصارا مدهشنا .
لا تستقر في مجالس النواب ولا في مجالس الشيوخ ، وانما تتجاوز
هذه المجالس الى قصور الملوك ، فينزلها هؤلاء الملوك من قصورهم
احسن منزل لانهم يفهمون أن عروشهم لا تستطيع أن تقوم الا

عليها . لأنهم يفهمون أن نظام الملك قد أصبح لا يلائم هذا العصر
لأنه أثر قديم لا معنى له الآن إلا إذا لم يكن بين الملوك ورؤساء
الجمهوريات فرق ما . إلا إذا اعتمدت عروش الملوك على قلوب
الشعب لا على قوة الجيش ولا على قوة السنة القديمة .

فهم بعض ملوك أوروبا هذا فاستقرت عروشهم ويظهر أنها
تريد أن تستقر أبدا . ولم يفهمه بعضهم الآخر فهم الآن يدقون
مرارة النفي على شواطئ بحيرة « لي مان » (Léman) في سويسرا .
باريس في ٢٥ أبريل سنة ١٩٢٣ .

أسبحتنا يوم الأربعاء ١١ أبريل فتفرقنا لا في أنحاء بروكسل بل في أنحاء بلجيكا . ذلك أن الذين أشرفوا على تنظيم المؤتمر لم يفكروا في جمع المؤرخين من أقطار الأرض وإيجاد الصلة بينهم وتكثيفهم من أن يعلم كل منهم ما عند صاحبه من التاريخ . وإنما فكروا مع ذلك في شيئين آخرين ، وإن شئت فقل في أشياء أخرى : فكروا في أن البحث العلمي الجاف ثقيل حتى على أنفاس العلماء ولا بد من أن يتخلل بحثهم العلمي شيء يسر ويرضى ويفيد ، دون أن تكون الصلة منقطعة بين هذا الشيء وبين البحث العلمي الذي يشتغل به العلماء . وأى شيء ألد وأثمن وأشد صلة بالتاريخ من زيارة الآثار التاريخية المختلفة التي تفتت في جميع أنحاء بلجيكا بكثرة مبهشة ؟ ولا سيما إذا لم تكن هذه الآثار تاريخية فحسب ، بل كانت مع ذلك آيات بينات من آيات الفن الجميل على اختلافه . فكر البلجيكيون في ذلك ، وفكروا في شيء آخر وهو أن بلدهم يخرج من حرب ضروس قد أخضعته لضروب من المحن والحزن لم يعرفها قبل هذه الأعوام الأخيرة وهو الآن يجتهد في إصلاح ما أفسدت الحرب ، وهو محتاج في هذا الإصلاح إلى عطف الأمم

على اختلافها ، ومن هنا كان محتاجا الى نشر الدعوة وبعث عواطف الاعجاب والاحلال والاشفاق . والفرصة سانحة فالمؤتمر يشل أكبر أمم الأرض . وأعضاء المؤتمر من خيرة الذين يشلون الأمم ، لأنهم علماء وكلهم أستاذ أو مؤلف . واذن فكلهم قادر على نشر الدعوة ، ماهر فيه ، واذن فلا بد من التأثير في هؤلاء العلماء واهياء هذه المواطن المختلفة في نفوسهم ، وأى سبيل أهدى الى ذلك من زيارة الآيات الفنية البنية ؟! أضف الى هذا أن تفرق المؤتمرين في أنحاء بلجيكا لا يخلو من فائدة اقتصادية في بلد ساء القطع فيه واشتد فيه غلاء الحياة . فكثير جدا من المؤتمرين قد وفدوا من بلاد غنية مثرية فهم يستطيعون أن ينفقوا عن سعة ، دون أن يخسروا كثيرا ، وبلجيكا في حاجة الى أن ينفقوا وليس ينبغي أن يقتصر انفاقهم على مدينة بروكسل فهناك مدن بلجيكية أخرى تحتاج الى هذا الاتفاق . واذن فيحسن أن يتفرق المؤتمرين في أنحاء بلجيكا ليتتبعوا هم ولتسفيد بلجيكا من الوجهة المادية والمنعوية ؛ لهذا كله خضع الذين نظموا المؤتمر يوم الأربعاء ١١ ابريل لسياحات تاريخية أو أثرية أو فنية . وعينوا مدنا مختلفة يختارها من شاء من المؤتمرين . وندبوا في كل مدينة أستاذا أو أساتذة يقودون المؤتمرين ويرشدونهم ويفسرون لهم ما يرون ، فدعّب بعض المؤتمرين الى « المدينة » (بروج) (Bruges) وبعضهم الى

« جان » (Gand) وبعضهم الى « لياج » (Liège) وآخرون الى
« انفرس » (Anvers) وكثير الى المدينة الشهيدة المعذبة مدينة
« لوفان » (Louvin)

وكنا بين الذين ذهبوا الى « بروج » فوصلنا الى هذه المدينة
في الساعة الثامنة من صباح يوم صحو قد صفت فيه السماء
وأنتشرت فيه الشمس الفاترة على هذه المدينة المشرفة على الموت ،
والتي أزهرت في القرون الوسطى ازهاراً لم تعرفه مدينة بلجيكية
أخرى . والتي لا تكاد تقع فيها العين على شيء حديث وانما كل
شيء فيها قديم . كل شيء فيها يرجع عهده الى القرن العاشر
والحادى عشر ، وأحدث ما فيها يرجع عهده الى القرن السادس
عشر . مدينة هادئة مطمئة لا تكاد تحس حركة ولا اضطراباً
الا ما يحدثه الترام على هذه الأرض التي لم يسطع فيها « الأسفلت
ولا المكدام » وانما حجرت على طريقة القرون الوسطى . فالشئ
فيها شاق متعب مهلك للأحذية . وللترام والعربات فيها ضجيج
شديد . مدينة هادئة مطمئة فقيرة جداً ولكنها غنية جداً . فقيرة
لأن الحياة الاقتصادية الحديثة صرفت عنها الحركة التجارية
والصناعية ، وغنية بما فيها من آثار الفن وبما فيها من مصادر
التاريخ ، فقيرة غنية فأهلها يعيشون من الأجانب كما حدثنا الأستاذ
الذى كان يرشدنا الى الآثار في هذه المدينة . مدينة هادئة مطمئة

لا تكاد تشعر بأنها تعيش في القرن العشرين لأنك لا تنظر فيها
إلا إلى شيء قديم . فهي مدينة خليفة حقا بأن يعيش فيها من يكلف
بالتاريخ ومن يكلف بالفن على اختلاف ضروبه بنوع خاص . كل
شيء في هذه المدينة يجلبها إلى المؤرخ ويجلبها إلى الفني ويجلبها
إلى الشاعر . لأنها كلها آثار ولأنها كلها فن ولأنها كلها شعر . وهي
إلى هذا كله من الهدوء والطمأنينة والدعة بحيث يستطيع المؤرخ
والفني والشاعر أن يستمتع فيها بتاريخه أو فنه أو شعره دون أن
تصرفه عما يحب جلبة الحياة أو ضوضاء الأحياء .

تلقانا في هذه المدينة مدير المخطوطات وعالم آخر من علماء
الآثار . وكنا نحو الخمسين فقضينا اليوم كله على أقدامنا واقفين
أمام مشهد من المشاهد ، أو منطلقين من هذا المشهد إلى مشهد
آخر ، نخرج من كنيسة إلى كنيسة ، ومن دار إلى دار ، ومن
متحف إلى متحف ونحن عجلون لأننا لن نجد من الوقت ما يمكننا
من أن نشهد كل شيء ، أو أن نحقق النظر في شيء . وإنما نمر
سراعا أمام الأشياء كأننا في دار الصور المتحركة ، إلا أننا نحن
الذين يتحركون بينا الصور هادئة مستقرة في أماكنها . قضينا
اليوم كله على الأقدام إلا ثلاث ساعات قضينا أحداها في الفندق
للغداء . وأؤكد لك أن أصحاب هذا الفندق عرفوا أننا أجانب
وعرفوا كيف يستفيدون من هؤلاء الأجانب . وأؤكد لك أنهم

حمدوا للذين نظموا المؤتمر هذه الفكرة التي حملتهم على أن يرسلوا بعض المؤثرين الى مدينتهم .

يظهر أنه لم يكن هناك ماء للشرب . فكنت مضطرا الى أن تشرب النبيذ أو الجعة أو الماء المعدنى . وكل هذا يباع ويشترى . وأؤكد لك أن ثمنه ليس بالبخص ولا بالقليل . فزجاجة الماء المعدنى لم تكلفنا أقل من ثلاثة فرنكات . ولم نخرج من الفندق حتى أنفقنا ألفا وزوجى خمسة وأربعين فرنكا . ولم يكن الطعام رديئا ولكنه لم يكن من الجودة بحيث يستأهل هذا الثمن الباهظ . قضينا ساعة فى الفندق وقضينا ساعتين أخريين أحسبهما من أسعد ساعات الحياة ، قضيناها فى زوارق صغيرة طافت بنا حول المدينة . ذلك أنى أنسيت أن أنبك بأن « بروج » تسمى « فينيس » الشمال لأن الماء يتخللها فى جميع أنحائها ، ولأنك تصطنع فيها الزوارق كما تصطنع العربات فى مدينة أخرى ، ولست أدرى ماذا تنتج المقارنة بين مدينة « فينيس » ومدينة « بروج » فكلتا المدينتين غنية بآثارها ، وكلتا المدينتين غنية بجمال منظرها وحصن موقعها الطبيعى . ولكنى أحسب أن الذى يبحث عن الهدوء والدعة ، ويريد أن يستمتع بالجمال والفن فى غير اضطراب ، انما يجد ذلك فى هذه المدينة الشمالية الميتة أو التى نوشك أن تموت . فى هذه المدينة التى لا تمنحها الشمس حظها من الضوء الا بمقدار . والتى

يكاد الضباب يجعلها دائما فينحها شيئا من الروعة والجلال
ما أحسب أنك تجدهما في « قينيس » وان وجدت مكانهما هذا
الجمال المبهج المشرق الذى تمتاز به مدن الجنوب .

لقد أريد أن أحدثك عما في هذه المدينة من الآثار ومن آيات
الفن ، ولكنى عاجز كل العجز عن هذا ، وأحسبك لا تجهل مصدر
هذا العجز ، وبم أحدثك ؟ لقد زرنا آثارا كبيرة وسعنا دروسا
قيمة . ولو ألى ذهبت أحدثك بما سمعت أو بما وصف الى فى أثر
من الآثار أو صورة من الصور ، لاحتاج ذلك الى مقال طويل وأنا
بعد أريد أن أجتزئ وأن أفرغ من نأ المؤتمر .

فى هذه المدينة أجمل ما فى بلجيكا من نماذج العمارة فى القرون
الوسطى ؛ وفيها أجمل ما فى بلجيكا من نماذج التصوير فى القرن
الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر ، وفيها الى هذا آثار
مختلفة تمكن المؤرخ من أن يتصور كيف كان يعيش أهل بلجيكا
فى القرون الوسطى . زرنا قصرا قديما يسمى قصر « جريتوس »
فاذا القصر نفسه أثر من أبداع آثار القرون الوسطى . ولكن ما فى
القصر أبداع وأجل ، فقد اجتهدت المدينة فى أن تحول قسما منه
الى متحف نظمت فيه الأدوات المنزلية كما كانت منظمة فى القرون
الوسطى . فاذا زرت هذا المتحف عرفت كيف كان أهل البيت
يجتمعون الى طعامهم ، وكيف كانوا يعدون هذا الطعام . وكيف

كانوا يجتمعون الى سرهم ، وماذا كانوا يتخذون في حياتهم من
أداة ومتاع . وأجمل ما في هذا القصر من المعروضات « الدتلا »
فقد عرّضت منها ضروب غيرة أقدر على أن يصفها . ولكنني أعلم
أنها بهرت المؤثرين جنينا . ولم يكن اعجاب السيدات بها أشد
من اعجاب الرجال .

ذكرت الزوارق والطواف حول المدينة ، ولكنني لم أذكر -
ويظهر أني لن أستطيع أن أذكر - أثر هذا الطواف في نفسي وفي
نفس غيرة من المؤثرين . يكفي أن تتخيل هذه الأبنية الضيقة
تخترق المدينة في جميع أرجائها وقد قامت على جنباتها هذه الأبنية
الجميلة الجميلة واصطف على شواطئها الخضراء أشجار طوال تكاد
أغصانها تقبل الماء من مكان الى مكان وانبعث على هذه الشواطئ
وخلال هذه الأشجار أطفال كثيرون يلعبون ويمرحون ويسمون
للحياة ، وقد عقدت على هذه الأبنية من مكان الى مكان جسور
بديعة قديمة لم يغير منها شيء . وما أنس لا أنس صوت الملاح
يصف لنا ما كنا نمر به من الأبنية والعمارات ثم يقطع وصفه من
حين الى حين بهذه الكلمة : « رءوسكم أيها السادة » ذلك لأننا كنا
لقارب جسرا من الجسور فكان يجب أن نعتني رءوسنا حتى
لا تصطدم بالعقد .

أشد شيء أثر في نفسي هو اعجاب أهل « بروج » بمدينةتهم

ومفاخرتهم بما فيها من جمال ، وحرصهم على أن يظهروا دقائق
هذا الجمال للأجنى حتى لا يفوته منه شئ . وابتهاجهم حين يرون
اعجاب الأجنى وحين يسمعون ثناءه وتقريظه . وهم في ذلك كله
سواء . ليس هناك فرق بين الأستاذين اللذين كانا يصحبانا وبين
الملاحين الذين كانوا يطوفون بنا حول الدينة . بل ماذا أقول ؟ لقد
كنّا في أحد المتاحف وكان الأستاذ يصف لنا بعض الآثار ، ولست
أخفى عليك دهشى واعجابى حين رأيت الأستاذ يخطئ في تاريخ
من التواريخ أو في شئ من الأشياء فينبهه الى خطئه حارس من
حرس المتحف ويقبل الأستاذ منه ذلك راضيا شاكرا . ولقد كنت
أذكر أثناء هذا متحفنا المصرى وجهل المصريين بما في ذلك المتحف
ولقد كنت أقارن مع شئ من الاستحياء كثير بين حرس المتاحف
البلجيكية وزملائى من الأساتذة المصريين . فلم تكن المقارنة
مرضية ، ويظهر أنها لن تكون مرضية قبل زمن طويل ، قبل أن
يمن الله على مصر رجال في وزارة المعارف يفهمون العلم والتعليم
ويقدرونها ويقدرون الحاجة اليهما ويشعرون بأن مناصبهم ليست
مقصورة على تدبير الأموال وتدبير الألعاب الرياضية .

شئ آخر دهشت له وأعجبت به هو وطنية هؤلاء الناس ،
كنت لا أكاد أشك في أن أحد الأستاذين اللذين كانا يصحبانا
مجنون أو قريب من الجنون . ذلك لأنه كائن لا يتحدث إلينا إلا

متأثرا تأثرا شديدا فرحا مرة حتى يبلغ الضحك . ومجزونا مرة أخرى
حتى يبلغ البكاء . ولست أغلو فقد كان الأستاذ يضحك ويكي .
وكنا في عجب من أمره ثم علمنا أنه عاش في مدينته أثناء الحرب
وأله كان بطلا من أبطال هذه المدينة ، وأنه جاهد جهادا عنيفا
ليحتفظ بآثار هذه المدينة وكراماتها من غارات الألمان الذين كانوا
يريدون أن يستأثروا بكل شيء . ولقد أثر في نفسى صوت هذا
الرجل حين كان يقول لنا : « تعالوا أيها السادة الى الميدان الكبير
فستمعون فيه صوت جرسنا العتيق الذى لا يجهله مؤرخ .
واذكروا أيها السادة حين تسمعون صوت هذا الجرس أنى أقفذه في
آخر لحظة حين كان الألمان يريدون أن يرسلوه الى المسبك » ذهبنا
الى الميدان الكبير وسمعنا صوت الجرس : صوتا يملأ المدينة .
وليس فى ذلك غرابة فهو قد أنشئ لذلك ، سمعنا صوت الجرس
يوقع ألحانا موسيقية مختلفة ، واننا كذلك واذا الرءوس حاسرة
لأن الجرس كان يوقع النشيد الباجيكي واذا الأستاذ ينتحب
ويقول فى صوت متهدج : « معذرة أيها السادة فانى يلجئى »
ولم يكن الأستاذ يكي وحده وانما بكى معه بعض المؤتمرين .

باريس فى ٥ مايو سنة ١٩٢٣

عدنا الى العمل صباح الخميس ١٢ ابريل فسمعت محاضرات كثيرة مختلفة لا أعرض لها لأن الصحف السيارة لا تتسع لمثلها . ولكنى أذكر محاضرة واحدة سمعتها فى لجنة تاريخ الديانات ، لأن الذى ألقاها صديق لكثير من المصريين وهو الأستاذ « لويس ماسينيون » (Louis Massinon) ولأن هذه المحاضرة أثارت مناقشة طويلة حادة ، ولأن موضوع هذه المحاضرة يمس الاسلام وهو « أثر التصوف فى تكوين العقائد الدينية عند المسلمين » . والحق أنى لم أفهم الغرض الذى رمى اليه المحاضر وان كنت قد اشتركت فى المناقشة ، لم أفهم هذا الغرض لأنه لم يكن بينا ، ولأن أساس البحث الذى ذهب اليه المحاضر خطأ فيما أعتقد ، فكثير من المستشرقين أمثال الأستاذ « لويس ماسينيون » على مهارتهم وحسن بلائهم فى فهم اللغة العربية وخدمتها ، يخطئون فى فهم هذه اللغة أحيانا ويقيمون على أغلاطهم نظريات طويلة عريضة عميقة ، ولكنها ليست بذات غناء ، لم أفهم الغرض الذى رمى اليه الأستاذ ، وأحسب أن كثيرا من الأعضاء لم يفهم هذا الغرض ، ومع هذا فقد تناقشنا كثيرا ، ولكن موضوع المناقشة لم يكن ماأراد الأستاذ أن

يثبت من تأثير التصوف في تكوين العقائد الدينية عند المسلمين . فلم يحفل أحد من الأعضاء بهذه النظرية وانما كان موضوع المناقشة هو أن التصوف العربي أثر خالص من آثار العرب أو شيء للعرب فيه حظ ، ولكن معظمه موزوث عن الأمم الأخرى . أما الأستاذ « ماسينيون » فكان يعتقد أن هذا التصوف عربي خالص أو يوشك أن يكون عربيا خالصا ، وأن ما يمكن أن نجد فيه من موافقة لما عند الأمم الأخرى لم يؤخذ عن هذه الأمم وانما هي المصادفة . وتوارد الخواطر ووحدة النظام العقلي في التفكير مهما تختلف الأمم ومهما تختلف البيئات . فليس حتما إذا فكر العربي كما فكر اليوناني أن يكون العربي قد أخذ عن اليوناني ، ولكن من المقبول جدا أن يكون اليوناني والعربي قد فكرا بطريقة واحدة فاهتديا الى نتيجة واحدة واذن فيجب ألا نفلو في القول بأن العرب قد أخذوا عن غيرهم هذه النظرية أو تلك .

هنا اشتدت المناقشة فمن الظاهر أن توارد الخواطر ممكن . بل انه واقع . بل ان هناك نظريات تشترك فيها أمم مختلفة دون أن تكون احداها قد أخذتها عن الأخرى ، ولكن امكان الشيء غير وجوده بالفعل ، وليس يستطيع التاريخ أن يكتفى بالامكان والفرس فذلك شيء قد يكتفى به الفلاسفة والمفكرون . فأما المؤرخون فيريدون الحقائق الواقعة ولا يلجأون الى الافتراض

الا لتفسير هذه الحقائق تفسيراً مؤقتاً حتى يتاح لهم استكشاف الحقائق الواقعة التي تفسر ما لديهم . فاذا رأينا عند العرب فكرة صوفية أو غير صوفية توافق ما رأينا عند اليونان أو عند الفرس كان لنا أن نفترض توارد الخواطر ، وكان لنا أن نفترض أن العرب قد أخذوا عن اليونان أو عن الفرس . كان لنا أن نفترض الأمرين جميعاً وأن نبحث عما يرجح هذا الفرض أو ذاك ، وهنا تظهر قيمة المؤرخ وتظهر قيمة التاريخ . وليس يجب أن نجد النص التاريخي الذي لا يحتمل الشك على أن العرب قد أخذوا عن اليونان أو عن الفرس لنفي توارد الخواطر ، فكثيراً ما تضعي النصوص دون أن يكون نسيانها معدداً لضياع الحقيقة . وليست النصوص كل شيء في التاريخ فهناك الصلات التي تختلف قوة وضعفاً وتتفاوت متانةً ووهنا بين الأمم . وهذه الصلات إذا ثبت ثبوتاً تاريخياً كافياً أباح للمؤرخ أن يرجح تأثير الأمم بعضها في بعض . وليس يجب أن يكون هذا التأثير ظاهراً يعلمه الناس جميعاً ، يعلمه من أثر ومن تأثير فائده أنواع التأثير عملاً في الحياة الاجتماعية بل في الحياة الدولية — ان صح هذا التعبير — هو ما كان خفياً يجهله مصدره كما يجهله قابله . فاذا ثبت أن اليونان مثلاً كانوا يرون هذا الرأي بعينه وكان فلاسفتهم يشرحونه ويفسرونه ويدرسونه في المدارس المختلفة ، وأن اليونان قد وصلوا إلى الشرق ونقلوا إليه علمهم

وفلسفتهم وتركوا فيه عادات وضروبا من التفكير ليس الى انكارها من سبيل . واذا ثبت أن هذه الآراء أو هذا الرأي لا يلائم ما نعرف عن بداوة العرب ولا عن صدر الاسلام ، كان من الحق أن يرجع المؤرخ أن ظهور هذا الرأي أو هذه الآراء في الفلسفة العربية أو في التصوف العربي — بعد أن اختلط العرب بالأمم التي خضعت لتأثير اليونان . وبعد أن تعربت هذه الأمم فكتبت عليها وفلسفتها بالعربية ، بعد أن كانت تكتبهما باليونانية — أثر من آثار الفلسفة اليونانية والملم اليوناني لا نتيجة من نتائج الابتكار العربي . وقل مثل هذا في الفقه ، فنحن نعلم أن العرب لم يترجموا فقه الرومان ولم يدرسوه درسا منظما ، ولكننا لا نشك في أن الفقه الاسلامي قد تأثر بالفقه الروماني قليلا أو كثيرا سواء أعلم بذلك الفقهاء أم لم يعلموا . ذلك لأن البلاد الاسلامية قد خضعت لحكم الرومان وقوانينهم دهرًا ، ولأن هذه القوانين قد درست درسا مزهرا في الشام والجزيرة ومصر . فيجب أن يترك حكم الرومان وقوانينهم ودرس هذه القوانين آثارا قوية في حياة الشعوب التي خضعت لها وأن تتكون من هذه الآثار الحياة الاجتماعية لهذه الشعوب ، والعرب لم يهدموا كل شيء ، وإنما صبغوا أكثر الأشياء التي وجدوها بالصبغة الاسلامية ، فليس غريبا بل ليس من شك في أن كثيرا من أحكام الفقه الروماني قد اصطبغت بالصبغة الاسلامية

دون أن يشعر الفقهاء بذلك . فنحن نحسب هذه الأحكام اسلامية خالصة حين هي اسلامية رومانية . لا يغضب العلماء فأنا أذكر الفروع لا الأصول ، ولعلمهم لا ينكرون أن الفقهاء يعتبرون العرف في كثير من مسائل الفقه ، وأن هذا العرف انما يكون من النظام اليوناني والروماني والفارسي ، هذه النظم التي تماقت على الشام ومصر والجزيرة واذن فهناك تأثير خفي قد يكون أشد وأقوى من التأثير الواضح الذي تحدثه الأمم بعضها في بعض ، ومن الاسراف أن نقطع بأن هذا الرأي أو هذه النظرية أثر عربي خالص أو أثر يوناني خالص ، وانما سبيل القصد في ذلك — اذا لم توجد النصوص — هو ترجيح تأثير الأمم بعضها في بعض حتى يظهر ما يبين خطأ هذا الترجيح .

حول هذه النقطة دارت المناقشة ولم يستطع الأستاذ «ماسينيون» أن ينكر صحة هذا الاستدلال . ولكن الذي أعجبني في هذا كله أن خمسة أو ستة اشتركوا في هذه المناقشة غير الأستاذ «ماسينيون» وغيرى . وكان منهم الفرنسي والانجليزى وكانوا جميعا يلمون بتاريخ الدين الاسلامى الماما حسنا يكنهم من المناقشة والاستدلال ببعض النصوص ، بل ان أحدهم كان يستدل بنصوص لا نستطيع نحن في مصر أن نستدل بها مع أنها نصوص اسلامية لأنها نصوص فارسية ولأن علماء الدين الاسلامى في

مصر يكتفون بدرس شيء من الكتب العربية ، وليس منهم من
يتخصص بدرس تاريخ الدين الإسلامى عند الفرس أو عند الهنود
وبقراءة ما كتب الفرس أو ما كتب الهنود فى الدين ، وحسبك أن
المثات من علماء الاسلام فى مصر لا يعرفون الا اللغة العربية ،
ولست أطالب العلماء بدرس اللغة الفرنسية والانجليزية فقد يكون
ذلك واجبا محتوما ، وانما أطالبهم بشيء آخر أشد من هذا وجوبا
وهو أن يدرسوا الدين الإسلامى كما ينبغى . والدين الإسلامى
عربى ولكن أما غير العربية قد اعتنقته ودرسته وكتبت فيه ،
وأؤكد للعلماء أن الدين الإسلامى قد أثر فى هذه الأمم كثيرا وتأثر
بها كثيرا ، واذن ؟ واذن فمن الحق على علماء الاسلام أن يدرسوا
تاريخ الاسلام لا فى مصر والشام وحدهما ، بل فيهما وفى بلاد
الاسلام الأخرى . ولو أنى من علماء الاسلام ، ولو أن لى كلمة
مسموعة بين علماء الاسلام ، لاقترحت وألححت فى الاقتراح أن
تدرس اللغات الأجنبية الإسلامية فى الأزهر الشريف وأن تكون
هناك فصول تخصص فى درس الفارسية وأخرى فى درس التركية
وأخرى فى درس اللغات الإسلامية التى ليست تركية ولا فارسية .
فمن المؤلم ومن المخزى أن تدرس كتب الدين التى كتبت بالفارسية
أو بالتركية أو بلغة أخرى من لغات الهند مثلا فى فرنسا وانجلترا
وألمانيا وأمريكا وأن يجهلها علماء الاسلام فى الأزهر الشريف .

والأزهر الشريف بعد هو الجامعة الإسلامية الكبرى ١١١

هلموا أيها السادة العلماء طالبوا بأن تدرس اللغات الإسلامية
في جامعتكم الإسلامية درسا مفصلا نافعا فانكم ان لم تفعلوا
أضعتم على الأزهر حقه في أن يكون الجامعة الإسلامية الكبرى .
وليس ينبغي أن تكون مدرسة اللغات الشرقية في باريس أنفع
من الأزهر الشريف .

أليست المطالبة بهذا والالاحاح فيه أوفق بعلماء الدين وأجدى
عليهم وعلى الدين من مطالبة من كان يطالب بأن تكون المعاهد
الدينية فوق الدستور ؟

أما مساء الخميس فقد كان لذيذا لانا قضينا شطرا منه نستمتع
بلذة المونيقى وقضينا الشطر الآخر في بيت وزير المعارف .
اجتمعنا الساعة الثانية في كنيسة أثرية كبرى في بروكسل هي كنيسة
« سانت جودول » وكنا قد دعينا الى هذا الاجتماع لا للصلاة
ولا للتقديس ، ولكن للدرس والتاريخ في لذة ومنفعة . هنا
خطبنا قسيس فلم يتحدث إلينا في دين المسيح ولم يفسر لنا اصعاحا
من الانجيل أو آية من التوراة . وانما تحدث إلينا في الفن، وتحدث
إلينا في الآثار ، ذلك أن هذه الكنيسة قديمة بعيدة العهد بالتاريخ،
بديء في انشائها في القرن الثاني عشر واختلفت عليها أطوار الفن

والعمارة الى آخر القرن السابع عشر . فخطبنا هذا القسيس ساعة
وبعض ساعة مينا لنا هذه الأطوار المختلفة التي مرت بها الكنيسة
مقارنا بين هذه الكنيسة وبين ما يشبهها من كنائس فرنسا وألمانيا
من الوجهة الفنية الخالصة ، مناقشا آراء بعض الفنين والأثريين
من الألمان والفرنسيين ، لأن هذه الكنيسة لاتزال تشغل الباحثين
الى اليوم والى الغد ، أعترف بأننى لم أكن أفهم شيئا كثيرا من
خطبة القسيس لأننى لست أثريا ولا فنيا ولا أكاد أتصور فن
العمارة ، ولكنى مع هذا كنت أعجب بهذا القسيس اعجابا شديدا
لا بعدله الا اعجابى بقتيس آخر خطبنا فى المؤتمر خطبة ليس بينها
وبين الدين صلة لأنها كانت تتناول نسخة قديمة يختلف العلماء
فى تحديد العصر الذى نسخت فيه ، فىرى بعضهم أنها نسخت
فى القرن العاشر وبعضهم قبل ذلك وبعضهم بعد ذلك ويحكم
القسيس بين هؤلاء العلماء المختلفين . كنت اذن أعجب بهذين
القسيسين ، ولعل مصدر اعجابى بهما لا يخفى على السادة العلماء .
وأنا أعذر الى السادة العلماء ، فلست أريد أن أغضبهم وما أبغى
بهذا الحديث الا الخير لهم ولنا . ذلك لأن علماءنا لا يستبدون
بملك أنفسهم فلنا عليهم بعض الحقوق لأننا نريد أن يكون علماء
الدين فينا أئمة وفخرا فى وقت واحد . ويؤلمنى جدا أن أقارن بينهم
وبين رجال الدين فى أوروبا ، لأن هذه المقارنة لاترهم ولا ترضيهم

كما أنها لا تسرفا ولا ترضينا وكما أنها تدل على أن الفرق عظيم جدا بين علماء الدين اليوم وبينهم منذ قرون .

هذا قسيس قد درس دينه فأتقنه وهو يؤدي واجبه الديني .
وأؤكد لك أن الواجب الديني الذي يؤديه القسيس أشق وأعسر
وأشد استغراقا للوقت من الواجب الديني الذي يؤديه العالم المسلم
لأن الاسلام دين هين لين سهل لا كلفة فيه ولا تعقيد . وحسبك
أن صلاة المسلم تستغرق دقائق ، وأن صلاة القسيس المسيحي
لا تقاس بالدقائق . وحسبك أن العالم الديني عندنا إذا صلى وأدى
واجباته الدينية الشخصية وألقى درسه أو درسيه فهو حر . وأن
القسيس ليس له من الحرية مثل هذا المقدار العظيم . ومع ذلك
فالقسيسون في أوروبا لا يكتفون بدرس الدين وأداء واجباتهم
الدينية . وإنما كثير منهم رجال دين ورجال علم ، وكثير منهم
رجال دين ورجال فن ، وكثير منهم يستطيع أن يناهض العلماء
والفنيين الذين اختلفوا بالعلم والفن فينهمضهم وينفوق عليهم .
وهذان القسيان اللذان ذكرتهما قد اختلف أحدهما بفن العمارة
واختص الآخر بعلم من علوم التاريخ . وأؤكد لك أن لجنة من
لجان المؤتمر لم تكن تخلو من قسيس وأن اللجنة التي كنت فيها
كان يرأسها قسيس ، وأنه أظهر عناية شديدة بصبح الأعشى وما
يشتمل عليه صبح الأعشى، وأؤكد لك شيئا آخر وهو أن الفلاسفة

إذا ائتمروا فيشترك معهم القسيون ، وأن علماء الكيمياء اذا ائتمروا فيشترك معهم القسيون ، وقل مثل ذلك في الأطباء وقل مثل ذلك في علماء الحياة ، وقل مثل ذلك في علماء الرياضة . ومالي أذهب بعيدا وفي مصر مدارس اليسوعيين ومدارس الفرير ، وفي فرنسا جامعات تقوم على رجال الدين ويدرس فيها أبناء الأرستقراطية المحافظة ، فاذا تقدموا الى الامتحانات العامة في الجامعات الحكومية لم يكونوا أقل نجاحا من غيرهم وربما كانوا أكثر منهم فوزا .

فأحب الآن أن تحدثني عن علمائنا في مصر ، مع من يستطيعون أن يأتروا ؟ أمع المؤرخين وهم يجهلون جهلا تاما تاريخ أوروبا وأمريكا بل تاريخ الشرق بل تاريخ اليونان والرومان . وأستحي أن أذكر تاريخ الاسلام ؟ أمع الجغرافيين أم مع الرياضيين أم مع علماء الحياة ؟ سينقد في مصر مؤتمر جغرافي بعد سنتين ، فهل يشترك فيه علماء الدين ؟ ذلك لأنني لقيت في بروكسل أسقفا فرنسيا سألتني عن جمعيتنا الجغرافية الملكية وعلمت منه أنه سيشارك في مؤتمرنا الجغرافي ، وثق بأنه لن يكون الوحيد من رجال الدين المسيحي في هذا المؤتمر .

أليس يحسن ؟ أليس يجب على علماء الاسلام في مصر أن يبذلوا ما يملكون من جهد وقوة ليكونوا كغيرهم من رجال

الدين ؟ ليكون منهم المؤرخ والجغرافى وعالم الكيمياء وعالم الطبيعة والفلكى (وانما أريد الفلكى الحديث) كما أريد اذا ذكرت المشتغل بالطبيعة من لا يكتفى بدرسها فى اشارات ابن سينا .

أيشعر علماء الدين عندنا بهذا البون الذى يباعد بينهم وبين علماء الدين فى أوروبا ؟ أيشعرون بأنهم يحسنون الى أنفسهم ان أزالوا هذا البعد ؟ ويحسنون الى أمتهم أيضا لأنها تستطيع يومئذ أن تعتز بهم حقاً وأن تأنم بهم حقاً فى دينها وديناها ؟

سمعنا خطبة القسيس ، ثم سمعنا بعدها ضروباً من الموسيقى الدينية القديمة التى أحدثها يرجع الى القرن الخامس عشر، وأشهد أنى أعجبت بهذه الموسيقى وأشهد أنى ملرت لهذا الغناء اللاتينى الجميل . ولكنى لأطالب بأن أسمع موسيقى أو غناء فى مساجدنا، فأنا أعلم أن مساجدنا انما أنشئت لذكر الله ، ولذكر الله فى سداجة وسهولة . لا أطلب بذلك ولا أفكر فيه ، وحسبى أن التذكر فى المسجد بترتيل القرآن الكريم . وانما أطلب بشئ وألح فيه الانحاح كله ، أطلب بأن يكون من بين علمائنا من يستطيع أن يحدثنا عن تاريخ الأزهر الشريف ، وجامع قلاوون وجامع برقوق ، من الوجهة الفنية كما استطاع قسيس بروكسل أن يحدثنا عن كنيسة « سانت جودول » .

سمعنا الموسيقى وطربنا لها ، ثم أردنا أن ننصرف فاذا الكليل

من الزهر ضخيم بديع قد وضع ناحية في الكنيسة . وإذا قوم من جماعة المؤرخين قد تقدموا فحملوه ومضوا فتبهم المؤتمرون في وقار واجلال ، وما هي الا دقائق حتى وصلنا الى قبر الجندي المجهول ، فاذا هذا الاكليل يمثل تحية مؤتمر العلوم التاريخية لأبناء بلجيكا الذين قضوا في الدفاع عن وطنهم .

أما ليلتنا عند وزير المعارف فلا أحدثك عنها الا بشيء واحد وهو أن جميع المؤتمرين كانوا في قصر الوزير ، وكان معهم سفراؤهم أو وزراؤهم المقوضون الا مصر ، فلم يكن لها سفير ولم يكن لها وزير مفوض ، ولم يكن لحكومتها مندوب وانما كان هناك طربوش حائر بين هذه الجماعات . ولولا أن وزير المعارف كان قد أنبىء بسكان هذا الطربوش لما شعر به أحد . ولكن الوزير أقبل ومعه رئيس مكتبه فحياني تحية حسنة ودعائي مندوب مصر فلم أصلح خطاه . ثم لقيت أثناء السهرة مؤرخا شابا بولونيا تعرف الى لأن زوجه تعرفت الى زوجي ودعاها الى هذا التعرف الطربوش ، وكان هذا العالم البولوني الشاب مندوب عصبة الأمم في مؤتمر العلوم التاريخية . لأن عصبة الأمم قد مثلت نفسها في مؤتمر العلوم التاريخية وكيف لا تفعل وقد أنشأت لجنة علمية ستمتها لجنة التعاون العلمي ؟

صافحني هذا الشاب وقال : هناك مسألة تحيرني ولعلك

تجيبني عليها ، ما بال مصر لم تمثل في عصبة الأمم ومتى تطلب
هذا التمثيل ؟ هنا أعترف أيها القسارىء بأنى كذبت ولم يكن
مصدر الكذب الا الحياء ، ذلك لأنى أجبت سائلى على الفور بـ
« ستطلب مضر الانضمام الى عصبة الأمم في هذه السنة » . قال
صاحبى : اذن فيرد طلبها قبل انعقاد الجمعية العمومية ؟ قلت :
أعتقد ذلك .

فهل لرئيس الوزراء أن يعطينى من خزانة هذه الكذبة التى
لم يضطررنى اليها الا تفسير حكوماتنا وتفريعاتها فى الاستمتاع بها
لنا من حق ؟

باريس فى ٧ مايو سنة ١٩٢٣ .

A

كان يوم الجمعة ١٣ ابريل يوم الشرق في المؤتمر وبعبارة أخرى يوم مصر . ولم يكن يوم الشرق أو يوم مصر في المؤتمر وحده بل كان في بروكسل كلها . فقد اشترك كثير جدا من أهل هذه المدينة رجالا ونساء في جلة المؤتمر العامة التي عقدت بعد الظهر لسماع خطيبين تكلم أحدهما عن استكشافات فرنسية على شاطئ الفرات ، وتكلم الآخر عن مقبرة توت عنخ آمون ، وكان كلا الخطيبين يحسطنع الفانوس السحري لعرض صور ، ما استكشف على شاطئ الفرات أو في مصر ، وكانت الصحف قد أعلنت هاتين الخطبتين وتحدثت بهما ، فأسرع المؤتمرين وغير المؤتمرين الى استماعهما ، وما أشك أننا كنا آلافا من الساعة الثانية الى الساعة الخامسة بعد الظهر . على أن صباح هذا اليوم قد أنفق في أعمال هادئة فاجتمعت اللجان وسمعت ما ألقى فيها من الخطب وما قدم اليها من المذكرات . وسمعت أنا في صباح هذا اليوم مذكرات ثلاثا مستعات : احداها في قد بعض الطبقات لمحتوفات رسمية فرنسية تتصل بما قبل الثورة ، والأخرى في اظهار تزوير كتب رسمية نشرها أحد السفراء الرسميين للويس

الرابع عشر عن أعمال قام بها في إنجلترا وهولندا باسم لويس الرابع عشر ، والثالثة فيما كان من تبادل المحفوظات الرسمية بين النمسا وبولونيا بعد الحرب الكبرى . ولكنى لا أمل في ذكر هذه المحاضرات وقيمتها فقد لا تصلح الصحف السيالة لمثل هذه المباحث العلمية الجافة التي ليس بينها وبين مصر صلة ما .

عدينا الى الاجتماع اذن بعد الظهر وكان رئيس المؤتمر كان يشعر بشوق الناس الى استماع هاتين الخطبتين ، وكان يجد لذة شيطانية في معاناة هذا الشوق ، فقدم الى الخطابة عالما روسيا تحدث عن التاريخ الروماني وعما كان من الأزمة الاجتماعية في الامبراطورية الرومانية أثناء القرن الثالث بعد المسيح وكانت خطبته لذيذة مفيدة ، وكان الناس يستمعون لها في شيء من الضجر والسأم لأنهم لم يحضروا لاستماعها وانما حضروا لشيء آخر ، ومع أنه أطال فلم يكتف رئيس المؤتمر بخطبته بل قدم أمريكيا تكلم عن أخلاق « كاترين دي ميديسيس » وكان يتكلم بالانجليزية فلم يفهمه الا قليلون ، ثم قدم الرئيس خطبيا ايطاليا تكلم عن نقوش مسيحية استكشفت في ايطاليا وعن جمعية ايطالية أسست للبحث عن النقوش المسيحية التي تفتت بعد انتهاء عصر التاريخ القديم ، وقدم الى المؤتمر مجلدات نشرتها هذه الجمعية مشتملة على بعض هذه النقوش . ثم قدم الأستاذ

« كيمون » تحدث عن الاستكشافات الفرنسية على شاطئه
الفرات ، هنا ابتهج الناس وأظهروا سرورا ما أظن إلا أنه ساء
الخطباء الأولين . وكانت خطبة الأستاذ « كيمون » إلذ ما سمعت
في المؤتمر ، بل أعترف بأنها لذتني أكثر من الخطبة التي تلتها عن
مقبرة فرعون .

ذلك لأن هذه الخطبة التي تناولت استكشاف الفرات كانت
تتناول موضوعا أفهمه وأستطيع أن أستفيد منه فائدة ما . ولم
يكن هذا الموضوع ضئيلا ولا قليل الخطر وإنما كان عظيم
الخطر جدا . وحسبك أن هذه المدينة التي استكشفت وهي
مدينة « دورا » كانت من أعمال « تدمر » وكانت ملتقى
لحضارات ثلاث ، كلها تعينا ، وكلها نستطيع أن نفهمها ونستطيع
أن نبحث عنها ونخرج من البحث بشيء من الفائدة . كانت ملتقى
الحضارة السامية والحضارة اليونانية والحضارة الرومانية . وقد
استكشفت هذه المدينة أثناء الحرب ولكن استكشافها والبحث
عنها لم يتم إلا في ديسمبر الماضي . فإذا الآثار اليونانية والسامية
والرومانية متجاورة يفسر بعضها بعضا ويضيف بعضها إلى بعض .
وإذا نقوش سامية ويونانية ولاينية توجد في المعابد وعلى
الجدران . وإذا الفن اليوناني والسامي يتزجان ويؤثر كلاهما
في صاحبه . وإذا الساميون يتعلمون اليونانية ويصطنعون الفن

اليوناني ويتسمون بالأسماء اليونانية ويؤدون العبادة لآلهتهم السامية في ضروب ليست بالسامية الخالصة ، ولا باليونانية الخالصة ، وإنما هي مزيج مما ألف الجحسان . وإذا الساميون ينحتون التماثيل لآلهتهم فيدخلون في فنهم شيئا من رقة الفن اليوناني . وإذا اليونانيون ينحتون التماثيل لآلهتهم فيدخلون في فنهم شيئا من غلظة الفن السامي . وكان أجدل ما عرض ، فأعجب الناس صورة فوتوغرافية لتمثال الزهرة الهة الحب . فإذا هي صورة سامية ، وإذا الالهة تمثل امرأة شرقية تتأزر بما كان يتأزر به مثال الجمال الشرقي في هذه القرون الأولى للتاريخ المسيحي من الضخامة والنفخامة وكثرة العلى والميل الى شئ من النعومة والاسراف في الترف ، يخالف ما ألف الناس في الفن اليوناني من صور « افروديت » الهة الحب والجمال التي كانت — على أنها مصدر الفتنة — لا تخلو من قوة وشهامة توشك أن تكون حربية . وإذا هذه المدينة الصغيرة التي لم يتم درسها بعد تمثل ما كان من الجهاد بين الامبراطورية الرومانية وبين الامبراطورية التدمرية . فقد نرى أن الساميين واليونانيين قد وجد بينهم اختلاط شديد ، بل امتزاج شديد فكان بينهم الاصهار والتزاوج . وأثر هذا الامتزاج في فنيهم فأخذ من جديد يوجد فن ليس هو بالسامي القديم ، ولا باليوناني القديم . ولكن الآثار

الرومانية منفصلة أو تكاد تكون منفصلة انفصالا تاما عن الآثار
اليونانية السامية .

أعجبت بهذه المحاضرة لأنى ألم بشئ من التاريخ اليونانى ،
وبشئ من التاريخ الرومانى ، وبشئ من الجهاد بين « تدمر »
وروما ، ولأن اسم تدمر يذكرنى الزباء وما روى عنها فى أمثال
العرب من هذه الأساطير اللذيذة التى تفيض حكمة وتملؤها
الأمثال السائرة . ولكنى لما سمعت خطبة الأستاذ « كابار » الذى
رافق ملكة بلجيكا فى مصر لم أجد ما كنت أنتظر أن أجد من
اللذة . وبينما كان الناس يسحبون ويصفقون كنت أنا هادئا
مطمئنا . ولعلى أعرف سبب هذا الهدوء والاعلحشان . فأنا أولا
أجهل التاريخ المصرى القديم ، ولا أعرف منه أو لا أكاد أعرف
منه شيئا . فإذا سمعت أخبار توت عنخ آمون أو غيره من فراعة
مصر لم تحدث هذه الأخبار فى نفسى هذه الحركة العلمية التى
تحدثها أخبار اليونان والرومان والعرب فتسكننى من أن أصل
شيئا بشئ وأنتقل من شئ الى شئ ، أن تسكننى من أن أستفيد
قائدة علمية ما . ومثل هذا يستطيع أن يقوله الذين يعلمون تاريخ
مصر القديم ويجهلون تاريخ الرومان واليونان والعرب ، وإن كان
هؤلاء الناس لا يكادون يوجدون . فإذا وجد مصرى يجهل تاريخ
مصر فقد لا يوجد أجنبى يجهل تاريخ اليونان والرومان . فإذا

أضاف إليهما تاريخ مصر استطاع أن يعجب بمحاضرة الأستاذ « كيمون » وبمحاضرة الأستاذ « كابر » فإذا سألت عن مصدر هذا النقص الذي يجده المصري في نفسه حين يشعر بجهل تاريخ مصر ، وحين يسمع محاضرة في تاريخ مصر فلا يلذ لها كما يلذ لها الانجليزى والفرنسى فالجواب يسير وهو تقصير الحكومة المصرية أو وزارة المعارف المصرية في نشر التاريخ المصرى . فلو أن التاريخ المصرى القديم يدرس في مصر كما ينبغي لكان لكل مصرى متعلم حظ من الاعجاب بما استكشف اللورد كارنارفون . ولكن ماذا تقول وفي مصر أساتذة في الأدب والعقود والفلسفة والطب يجهلون تاريخ مصر ولا يعرفون من أمر توت عنخ آمون الا ما يقرءون في الصحف وكثير منهم لا يقرءون ما تنشره الصحف . يجب أن نحمد الله على صدور الدستور فلن يغفر البرلمان في المستقبل لوزارة المعارف المصرية مثل هذه الجرائم .

وهناك سبب آخر حال بينى وبين الاعجاب بخطبة الأستاذ « كابر » وهو أن الأستاذ لم يقل شيئا جديدا أكثر مما نشرته « التيمس » و « السياسة » . فكان من المعقول وقد قرأت هذا وذاك ألا يشتد اعجابى به حين يعاد . وهل أستطيع أن أضيف سببا ثالثا أعترف بأنه لا يليق بعضو في مؤتمر علمى وهو أن الأستاذ « كابر » كان شديد الميل في محاضراته الى الانكليز

وكان يسرف في الشناء عليهم وعلى ما بذلوا من جهد وما أدوا الى مصر والى العلم من خدمة . وكنت أحب أن تذكر مصر بشئ من الخير وان لم تكن أهلا له في هذا الموضوع لأنها لم تعمل شيئا في استكشاف مقبرة توت عنخ آمون . ومهما يكن من شئ فقد خرجت عن طور العلماء وضاق صدرى بهذا الشناء الكثير يهذى الى الانجليز كنت متأثرا بالسياسة أكثر مما كنت متأثرا بالعلم .

كان اعجاب الناس شديدا جدا بهذه الصور الفوتوغرافية التي عرضها الأستاذ « كابر » ولا سيما السيدات ، فقد كانت هذه الصور وصور الجواهر بنوع خاص تقتنهن فتنة شديدة فيصفقن ويتهامسن ويجتهذن في أن يملأن أعينهن بهذه الصور التي لن تلبث أن تلهم الصاغة وأصحاب الفن فتعرض جواهر على مثالها في الأسواق والمحال التجارية . ولعل كثيراً من هؤلاء السيدات كن يتحدثن الى أنفسهن باليوم الذي يستطعن فيه أن يتخذن من الحلى والآنية ما يشبه الحلى والآنية التي وجدت في مقبرة توت عنخ آمون .

كانت هذه الجلسة جلسة مصر أعجب فيها الناس اعجابا شديدا بمصر القديمة وذكروا فيها مصر الحديثة . وكانت هذه الجلسة آخر الجلسات العلمية للنوثر . فنستطيع أن نقول أن

هذا المؤتمر ابتدئ بذكر مصر في تحية الملكة وختم بذكر مصر
في خطبة الأستاذ « كابر » .

ذهبنا بعد ذلك الى قصر البلدية فتناولنا هناك الشاي . وكنت
أحب أن أصف لك ما في هذا القصر من آيات الفن ولكنني مع
الأسف قاصر عن هذا كل القصور ثم كان يوم السبت فاقسم
قسمين : أما الصباح فخصص لزيارة دار المحفوظات (الدفترخانة) -
وأما المساء فخصص للترقى في أنحاء بلجيكا القريبة من بروكسل
والتي تمثل فائدة تاريخية ما . أريد أن أذكر دار المحفوظات هذه
وأريد أن أقارن بينها وبين دار المحفوظات في مصر . ولكن أسول
المقارنة تنقضى لأنى أجهل نظام الدفترخانة المصرية ولا أعلم من
أمرها إلا أن زيارتها مستحيلة على العلماء والباحثين إلا بعد عناء
ومشقة واذن من وزير المالية قلبا يظفر به من يطمع فيه . فالدفترخانة
المصرية ديوان من دواوين الحكومة تنتفع به الحكومة وحدها في
أعمالها الرسمية ولا ينتفع به العلماء والمؤرخون . بل لست أدري
علام تشتمل الدفترخانة المصرية ؟ وهل فيها حقا ما يفيد المؤرخ
إذا أراد أن يبحث عما قبل العصر الحديث الذى نعيش فيه ؟ وإلى
أى عصر من عصور مصر التاريخية يرجع أقدم ما في الدفترخانة
المصرية من المحفوظات . لا أعلم من هذا شيئا كما أنى لا أعلم شيئا
من النظام الذى يصطنع في الدفترخانة المصرية ولا مما يتخذ فيها

من وسائل الاحتياط لوقاية الأوراق والمحفوظات القديمة ،
ولما شينا من النظام الذى يتخذ لتسجيل هذه المحفوظات واتخاذ
فهارس وأبواب تسهل البحث على من يريد أن يتفحص بها . أجهل
أذن مقدار المحفوظات المصرية وقيمتها ونظم حمايتها والارتفاع بها .
ولكننى أعلم أن قسما واحدا من أقسام الدفترخانة البلجيكية يشتمل
على أكثر من ٥٠٠٠ دفتر من دفاتر الحساب والقرارات التى
كانت تتخذها الحكومات المختلفة منذ القرن الثالث عشر الى الآن .
وأعلم أن هذه الدفترخانة البلجيكية كغيرها من دور المحفوظات فى
أوروبا مباحة للعلماء والباحثين . قد اتخذت فيها كل الوسائل التى
تسكن العلماء من البحث وتسهل عليهم أسياها ، فاتخذت فيها
الأبواب المتقنة والفهارس البديعة واختص بكل قسم من أقسامها
نفر لا أقول من الموظفين وإنما أقول من العلماء النابهين يقومون
على حفظه وتنظيمه والاستفادة منه وتسهيل الاستفادة على من
أرادها سواء أكان بلجيكيا أم أجنبيا . ولكن فى دار المحفوظات
البلجيكية شيئا أعجبت به حقا وأتمنى على الحكومة المصرية أن
توجد لنا مثله فى مصر لأنه يفيد فائدة لا تقدر سواء فى ذلك
الدفترخانة ودور الكتب المختلفة . وجدت فى دار المحفوظات
البلجيكية معملا واسعاً فيه كثير من العمال يشتغلون فى أشياء
مختلفة غريبة ، يشتغلون مثلا فى تنظيف الأوراق القديمة التى

بعد بها العهد وأفسدها الزمان فطست الأحرف التى فيها ،
ويشتغلون بتقوية الأوراق التى بعد بها العهد وأفسدها الزمان
فوهت ورثت حتى أصبحت لا تحتل لمس الأيدى ، يشتغلون بما
يشبه هذا مما يمكن من الاستفادة بكل ورقة قديمة مخطوطة مهما
تكن أعراض البلى التى أصابتها . ولقد رأينا العمال يشتغلون فى
ذلك . رأيناهم قد أخذوا أوراقا قدرة لا تكاد تقرأ بل لا تقرأ ،
فما زالوا بها فى غسل وتنظيف حتى زال عنها الدنس وبدأت أحرفها
جلية واضحة للقارىء ، ورأيناهم يتخذون أوراقا بالية لا تكاد
تمس فما يزالون بها يسلطون عليها بعض مواد الكيمياء حتى تقوى
وتثبت وتستطيع أن تتناولها وتقلبها كما تقلب ورقة صنعت أمس .
أليس مثل هذا العمل مفيدا فى مصر ؟ أليس الأستاذ لطفى بك
السيد محتاجا الى مثله فى دار الكتب المصرية ؟

شئ آخر أعجبنى هو استفادة دار المحفوظات البلجيكية
استفادة تجارية بما يوجد فيها من المحفوظات . ففيها نماذج لاتكاد
تخصى لأختام الملوك والأمراء والقواد والامبراطرة والرؤساء على
اختلافهم منذ القرون الوسطى . فهى تنتفع بهذه النماذج فتتخذها
على المعدن أو على العجس أو على غير ذلك وتعرضها للبيع . وأؤكد
لك أن تهافت الناس عليها شديد ، ولأ سيما العلماء وأصحاب الفن
والآثار الذين يريدون أن يدرسوا هذه النماذج كل من وجهته

الخاصة . فهم لا يطلبون الدفاتر والأوراق وهم ان استطاعوا أن ينظروا الى هذه الدفاتر والأوراق لا يستطيعون أن ينقلوها ولا أن يستميروها ولا أن يخرجوها من دارها فضلا عن بلجيكا . بينما هذه النماذج المصنوعة مباحة لهم يصنعون بها ما يشاءون ، وهذه النماذج ليست سهلة ولا يسيرة فلا بد من أن تتخذ بطريقة علمية . ولا بد من أن تنظم وترتب وتتخذ لها الفهارس والأبواب . ولست أنسى محاضرة ألقتها علينا في دار المحفوظات فتاة بلجيكية هي القائمة بالقسم العلمى من ادارة هذه النماذج . ولست أنسى مناقشة كانت بينها وبين عالم فرنسى في نظام « الفيش » الذى يجب أن يتخذ لهذه النماذج . لا أنسى هذه الفتاة ولا أنسى محاضرتها ولا مناقشتها . وأتنبى على الله أن أجد بين فتياتنا بل بين كهولنا من يستطيع أن يقوم في دار المحفوظات المصرية أو في دار الكتب المصرية مقام هذه الفتاة البلجيكية .

تفرقنا بعد الظهر فاخترت الذهاب الى « واترلو » ولكن لا أستطيع أن أذكر لك من أمرها شيئا . فقد تغيرت فيها المعالم ، ومحت فيها آثار هذا اليوم العظيم الذى اندك فيه عرش نابليون . وكل ما هو قائم فيها الآن صناعى متكلف الا القليل .

ولكنى لاحظت شيئا له قيمته في هذه الأيام وهو أن الذين ذهبوا الى واترلو كانوا جميعا من الانجليز ولم يكن منهم فرنسى

واحد الا زوجي ، أما الفرنسيون فتنفروا الى الجهات الأخرى
حول بروكسل .

ثم اجتمعنا يوم الأحد في الجلسة الأخيرة للمؤتمر فاتخذت
قرارات مختلفة أهمها هذا القرار الذي أتمنى ألا تهمله مصر ،
وهو تأليف جمعية تاريخية دولية دائمة تشترك فيها الأمم على
اختلافها إلا ألمانيا طبعاً . اتخذ هذا القرار وظل مجلس ادارة المؤتمر
باقيا بعد انحلال المؤتمر لوضع نظام هذه الجمعية ، فهل تتصل
بها مصر ؟ وهل تقوم بما عليها وبما لها من الحق في خدمة التاريخ
ونشر التاريخ ؟

الكلمة في ذلك الى وزارة المعارف .

باريس في ١٠ مايو سنة ١٩٣٣ .

القِسْمُ الثَّالِثُ هُوَ أَطْرَسَاخُ

١ فى الطررق

كانت السفينة تجرى فى بحر هادىء مطمئن . وكانت نفوس
السفر هادئة مطمئة أيضا ، وكان قد شمل السفينة ومن فيها شىء
من الدعة والأمن لا يكاد يوصف كأننا اشترك فى تكوينه هدوء
البحر وجماله ، وصفو السماء واشراقها ونزوع المسافرين جميعا
الى هذا الأمل الذى كانوا يترقبونه منذ حين والذى هم مشرقون
عليه الآن وهو الراحة بعد تعب والهدوء بعد اضطراب وكنت أشد
الناس اطمئنانا وأكثرهم دعة وأعظمهم اغتباطا بالحياة ، أفكر فيما
تركنت من ألم وأتمثل ما أستقبل من لذة وأعبت من حين الى حين مع
هذين الطفلين المبتسمين اللذين لا يعرفان من الحياة الا صنعوا
وابتهاجا . كنت أقص على ابنتى ألوانا من أحاديث « هوميروس »
فى « الأودسا » فأجد منها ابتهاجا للقصص واستعدادا للحديث
فأمضى فى القصص والحديث وتفرق هى فى اللذة والابتهاج ، ثم
تسألنى أحق هذا الحديث أم أنت تنزع ؟ فلا أجد لهذا السؤال
جوابا . نست أمزح وانما أقص شيئا قرأته ولم تهجرت له ، وقرأته

الأجيال من قبلى وإبتهجت له ، وسعته أجيال قبل هذه الأجيال
فإبتهجت له وآمنت به واتخذته يقينا بل اتخذته دينا ، وهل كان
يخطر لأحد من أولئك اليونان الذين كانوا يستمعون لأقاصيص
الأودسا وأعاجيبها أن يسأل المنشد : أحق هذا الحديث أم أنت
تمزح ؟ كلا ! لقد كان هؤلاء الناس يؤمنون بأعاجيب الأودسا
وأساطيرها كما تؤمن أنت وأنا بالبخار والكهرباء . وكانوا يتخذون
من أحاديث الأودسا وأعاجيبها مقاييس للخير والشر ونماذج
ينظمون عليها حياتهم الخاصة والعامة كما نبحت نحن عن هذه
المقاييس والنماذج في علم الأخلاق والاجتماع الآن . ثم تتابعت
الأجيال واتصلت العصور وتطور العقل الانسانى حتى أصبحت
هذه الطفلة فى السابعة من عمرها تسألنى حين أقص عليها أحاديث
الأودسا وأعاجيبها وأخبار السندباد البحرى : أحق هذا الحديث
أم أنت تمزح ؟ وكنت أترك ابنتى تلاعب أخاها وتلهو مع أترابها
وأصرف الى قرينتى فنأخذ فى ألوان من الحديث منها الجد والهزل
وربما اتهمنا غفلة الطفلين فقرأنا فصلا من كتاب أو مقالا من
صحيفة حتى اذا أقبل الليل جلس نفر بعضهم الى بعض
يتحدثون وانصرفت طوائف منهم الى « البيانو » فسنهم من يعزف
ومنهم من يرقص وانصرفت طوائف أخرى الى ألوان من اللعب
بين فرد وشطرنج وورق حتى يتقدم الليل . وعلى هذا النحو

قضينا أربعة أيام وبعض يوم لم نخل من بهجة لا تعدلها بهجة حين
ظهرت السواحل الإيطالية وحين مضت السفينة بنا في مضيق
« مسينا » فالناس جميعا ينظرون ، منهم من يعجب بالساحل وجماله
ومنهم من يذكر كوازث مسينا ومنهم من ينمى في الذكرى الى
عهد بعيد فيمثل الحياة اليونانية والرومانية والفينيقية على هذه
السواحل وفي هذا البحر ويذكر ما امتلأت به هذه الحياة القديمة
من لذة وألم ومن جمال وكآبة ويذكر ما تغنى به الشعراء القدماء
من ألوان هذه الحياة . ثم تحدث الناس أنا سنصبح في مرسيليا
واقصرف الناس عن حديثهم ولهوهم الى حقائبهم يحزمونها والى
متاعهم يعدونه . ولكن السفينة التى كانت هادئة مطمئة أخذت
تضطرب قليلا قليلا وماهى الا ساعات حتى كان اضطراب البحر
قد انتهى الى أقصاه وحتى كان الناس لا يكاد يسمع بعضهم بعضا
إذا تحدث بعضهم الى بعض . فالمسوح مصطخب والريح تعصف
عصفا ، والسفينة لا تتمايل وانما يتقاذفها الموج وقضينا الليل في
هذا الهول وأصبحنا وقد أشرفنا على الساحل الفرنسى بل بلغناه ،
فهذه أبنية مرسيليا يراها الناس ويشيرون اليها وليس من شك في
أننا سترك السفينة بعد ساعة أو ساعتين . كلا ! لن نترك
السفينة بعد ساعة أو ساعتين ولا ساعات . لماذا ؟ تستطيع أن تبحث
وأن تتكلف العناء في البحث دون أن تجد جوابا على هذا السؤال ،
فيحسن أن أجيبك أنا .

كان بين أهل السفينة شرقي أخذه حر شديد بينما كانت السفينة تجتاز القناة فما هي الا أن رأى بطيخ مصر فاندفع اليه اندفاعا وأكل بطيخة بأسرها ثم كان البطيخة لم تنقع غلته فعد الى ماء مثلج فشرب منه ما أذن الله له أن يشرب . ولم تكذ السفينة تتجاوز مصر حتى أخذ صاحبنا قىء ومشاء ودعى الطبيب فلم يؤمن للبطيخ ولا للماء المثلج ولا سبيا وقد حسنت حال صاحبنا بعد يوم وليلة فلم يبق من قيئه ومشائه الا بطن منتفخ ولم يشك الطبيب في أن الرجل مطعون ... وكان هذا الرجل في الدرجة الرابعة فلا أحد فك عن عناية الطبيب به واشفاقه عليه . فانظر اليه تحوطه عناية الطبيب والخدم وانظر اليه في سرير نظيف نقى وانظر اليه تقدم اليه ألوان الطعام مختارة منتقاة وانظر اليه يحمل من حين الى حين الى حيث يتنسم هواء البحر وكان الرجل قد استعذب هذه الحياة واستلذها فتعارض وأمعن في الشكوى وشك الطبيب وأمعن في الشك فأبرق الى مرسيليا أن قد ظهر الطاعون في السفينة وكم الطبيب وربان السفينة الخبر عن المسافرين حتى لا يأخذهم وهم ولا وجل . فلما أشرفت السفينة على مرسيليا أنبأنا أن السفينة ملوثة وأن لا بد من الحجر الصحي وأننا سنمكث على بعد من الساحل خمسة أيام نرى الأرض ولا نستطيع أن نطأها . تستطيع أنت أن تتأمل نفسية المسافرين كما يقولون عند ما وقع عليهم هذا

النبا وقع الصاعقة ولكن المسافرين ولا سيما الذين أبحروا من مصر ليسوا شيئا الى جانب البحارة والذين أبحروا من أقصى الشرق فقد كان هؤلاء الناس قد قضوا في البحر شهرين أو أكثر من شهرين وكانوا يتحرقون شوقا الى فراق البحر واذا هم يقضى عليهم أن يحجزوا في السفينة خمسة أيام وقضينا ساعات في هذا الاضطراب . ثم أقبلت زوارق تحمل الأطباء وذاع النبا أن هؤلاء الأطباء قد أقبلوا ليمتحنوا المسافرين واحدا واحدا فمن رأوه بريئا أذن له بترك السفينة ومن رأوه مريضا أو كالمريض حجروه . ولكن الأطباء لم يمتحنوا أحدا وانما قضوا ساعات يدفعون الى المسافرين جوازات صحية ، ويكلفونهم أن يقدموا هذه الجوازات في أن لا يتجاوز خمسة أيام الى عمدة المدينة أو القرية التي يقصدون اليها ليتحقق هذا العمدة من أمر المسافرين أمطعونون هم أم يارئون من الطاعون ؟ وكانوا كلما دفعوا الى مسافر جوازا كتبوا كتابا الى عمدة المدينة أو القرية ينبئونه بأن فلانا قادم الى مدينته أو قريته وأن حالته الصحية تدعو الى الحذر والاحتياط فلا بد من امتحانه والاحتياط لأمره ، وانقضى أكثر النهار في هذا العبث الصيني كما يقول الفرنسيون . وأذن للمسافرين جميعا أن يطنوا الأرض الا البحارة وعمال السفينة فقد قضى عليهم بالحجر خمسة أيام وبلغنا القرية التي كنا نقصد اليها وذهبنا في اليوم الخامس الى العمدة وكنت أتحدث بأن لا نذهب ولكن

الجواز الصحى الذى دفع الينا كان يشتمل على طائفة من مواد القانون الصحى تبين العقوبات أو الغرامات التى تتعرض لها اذا أهملنا . فذهبنا ولم نر العمددة وانما رأينا سكرتير العمددة . وسكرتير العمددة فى معظم القرى القرنية هو معلم القرية وهو يشبه فقيه الكتاب عندنا . رأينا هذا المعلم وقصصنا عليه قصتنا فلم يكذب يسبح أول الحديث حتى أظهر عناية ، لأنه تسلم كتاب الأطباء منذ أيام وأخذ يبحث عن هؤلاء المسافرين الذين يوشكون أن يحملوا الطاعون الى قريته دون أن يوفق اليهم ، فلما رأنا خيل اليه أن قد ظفر بطلبه . وأؤكد لك أننا قد تكلمنا كثيرا لنقنعه بأنه ليس فى حاجة الى إحالتنا على الطبيب . على هذا النحو انتهت رحلتنا وما كنت لأقص عليك هذا القمص لولا أن فيه عبرة لأبأس بالتفكير فيها . أرأيت الى مئات من المسافرين يضطربون ويحزنون يوما كاملا ؟ أرأيت الى مصلحة الصحة فى مرسيليا تضطرب وتعنى هذه العناية وتتكلف هذه النفقات ؟ أرأيت الى مئات من المعلم فى قرى فرنسا يضطربون ويشفقون من الطاعون أن يضيب قراهم ؟ كل ذلك لأن رجلا ظمى فأكل بطيخة وشرب أقداحا من الماء المثلج !! أشهد أن هذه الحياة لا تخلو من عبث ، بل أشهد أن هذه الحياة كلها لون من ألوان العبث وفن من فنون المزاح ، تضحك حيناً وتحزن حيناً آخر ، وهى مضحكة حين تحزن وم حزنة حين

تضحك ، هي عبث كلها . نعم ! انى لأفكر فى أمر هذه البطيخة
التي استتبت ما استتبت من الأحداث فلا أضحك ولا أمزح :
وكثيراً ما ضحكت ومزحت حين كنت أفكر فى أمرها ، ولا أضحك
الآن ولا أمزح وانما أفكر فى هذا الأمر مع حزن شديد لأنى أرى
أن الحياة كلها تجرى على نحو ما جرى أمر هذه البطيخة . ذلك
أن أبناء مصر قد وصلت الى فقرات فيها ماقرات وابتسمت فيها
لأشياء وبكيت فيها لأشياء أخرى ولم يبق لى من هذا البكاء وذلك
الابتسام الا أنى تركت أصدقاء كنت أتعنى لقاءهم بعد عودتى
وأحدث بما سأجد من لذة حين ألقاهم وأستأنف معهم حبات
الصفاء . وتركت كذلك خصوصاً كنت أفكر فى أنى سأعود الى
خصوصتهم وسألقى منهم شراً وسيلقون منى شراً ، فاذا أنا الآن
مقنن بهذه الحقيقة المؤلمة وهى أنى لن أجد هؤلاء الأصدقاء ولن
أجد هؤلاء الخصوم . لن أصافى أولئك ولن أخاصم هؤلاء ، لأن
الله قد آثرهم بالحياة فى تلك الدار التي لا تجرى فيها الأمور على
نحو ما تجرى عليه فى حياتنا من اللهو والعبث .

* * *

انتهى بنا سفر طويل لم يخل من مشقة الى هذا البلد الصغير
الذى قضينا فيه أسابيع ما أعلن أنى قضيت ثلثها فى بلد قبله . ليس
بالقربة ولا بالمدينة ، ولكنه شىء بينين ، فيه حضارة المدن ولا سيما

فى الصيف حين يأوى اليه الناس من كل صوب يلتئمون الراحة .
ويستمتعون بالطبيعة التى تريك فتونا من الجمال قلما تظفر بها
فم غير هذه البيئة من فرنسا ، فيه حضارة المدن وفيه بذاجة القرى
فأنت تجد فيه من العادات والخصال ما يذكرك بما كنت تقرأ من
تاريخ هذا القسم من فرنسا قبل أن تبلغ أوروبا ما بلغت من هذا
الرقى الحديث . تجد قوما يحتفظون بأزيائهم القديية ويتحدثون
لهجتهم الخاصة التى لا يفهمها الفرنسيون من غير هذا الاقليم ، فأذا
تحدثوا الفرنسية فلهم فيها لهجة تميزهم من غيرهم من الناس ، ولهم
عاداتهم فى عباداتهم وفى غير عباداتهم من مظاهر حياتهم العامة .
ولكنى لم أكتب لأحدثك عن هؤلاء الناس ، ولا لأحدثك عن هذا
البلد فليست أكتب رحلة وإنما هى خواطر خطرت لى أتحدث بها
اليك من حين الى حين .

لا أعرف مكانا كهذا المكان يدعو الى التفكير والتأمل ويبعث
فيك نشاطا نفسيا غريبا ينطقك بالشعر ان كنت شاعرا ويعجب اليك
قراءة الشعراء ان لم يكن لك حظ من الخيال . لا أغلو ولا أبالغ
فأنت لا تكاد تخطو فى هذا البلد أو حوله خطوة الا سمعت هذه
الأنغام الموسيقية اللذيذة التى تختلف لنا وعفا وتباين نحافة
وضخامة والتى تتغنى بها هذه الغدران المتدفقة من أعلى الجبل .
فى كل مكان غدير ينحدر أو نهير يجرى أو سيل يتدفق ، هنا غدير

هاديء يسمى في لين ورقة فيسمعك نغما رقيقا عذبا ، وهنا نهير
ليس بالهاديء ولا بالثائر تسمع له فلا تستنيم ولا تضطرب وانما
تقف وقد استعذبت الحياة ووددت لو تستزيد منها ، وهنالك سيل
ثائر ينحدر في عنف ويدفع بين يديه صغار الأحجار وضبابها
ويسمك هديرا كقصف الرعد يأخذ عليك سمك ثم يأخذ عليك
نفسك ثم يهرك فاذا أنت لا تسمع من حولك ، واذا أنت كلك
اعجاب بهذا الجلال الذي لا حد له . وكل هذه الغدران والنهيرات
والسيول تسمى وتندفق شاقة غابات تختلف كثافة ونحافة
وتأخذ جوانبها من كل مكان وقد اختلفت فيها الأشجار وانبثت في
أرضها أنواع من العشب والزهر لا يبلغها الاحصاء ولا ينالها العد،
وامتلاء الجو من عبير هذه الأزهار وأنفاس هذه الأشجار وريح
هذه الأعشاب بشيء من العطر لا تستطيع أن تميزه ولا أن تحلله
الى أجزائه ولكنك تستمتع به استمتاعا غريبا وتكاد تلمس يديك
ما يبعث في جسمك من الحياة . والى هذا النغم المائي ، والى عبير
هذه الغابات تضيف الطير ألحانها المختلفة التي تصل الى أذنيك
في سهولة ويسر اذا كنت الى غدير هاديء أو نهر غير ثائر والتي
لا يصل الى سمك منها الا أطراف خفية دقيقة مختلفة اذا كنت
الى سيل ثائر مضطرب . ثم أنت لا تسمى في هذه الأرض على
مكان سهل منبسط وانما أنت مصعد أبدا أو منحدر أبدا . ونظير

أن الذين يبصرون يجدون في هذا التصعيد والإنحدار روعة
لا تعدلها روعة ، يشرفون فيروعهم منظر ثم ينحدرون فيروعهم
منظر آخر . ويظهر أن هذه المناظر المختلفة الرائعة تتباين الى غير
حد باختلاف الجو صفوا وكدرا وباختلاف ما ترسل الشمس من
أشعتها على هذه القمم المحيطة بك والتي يجللها الثلج أبدا والتي
تقدم اليك من مختلف الألوان نماذج ساحرة .

وأجمل ما يكون هذا المكان وأشد ما تكون فيه تأثرا وشعورا
بضالة الانسان وجلال الطبيعة حين يظلم الجو وتكفهر السماء
وتتكاثف السحب بعضها فوق بعض منها ما هو فوقك ومنها ما هو
تحت قدميك ومنها ما يكاد يحاذيك . ثم يضطرب هذا كله ويضطدم
فاذا رعد يقصف قصفا رائعا مهيبا ، واذا برق يأخذ أنعاء الجمر
واذا الجبال المحيطة تردد أصداء هذا الرعد القاصف واذا هذه
السحب قد انشقت فأنهر المطر انهارا واذا هي ساعة أو بعض
ساعة وقد هدأ كل شيء واستنار كل شيء وظهرت الشمس ساطعة
بهية وهر بهذه الغابات والأزهار والأعشاب نسيم عليل ليليل يحمل
اليك عطرا نديا .

في هذا البلد « أرجليس » « جازو » قضينا ثلاثة أسابيع ،
وفيه فكرت كثيرا وتأملت كثيرا ووددت كثيرا لو استطعت أن أكتب
ولكن الله أراد ألا أكتب ، وكنت قد أردت ذلك أيضا .

نعم كنت قد بلغت من التعب حظا عظيما قبل أن أترك مصر ،
وكنت قد انتهيت من ذلك الى أن كرهت القراءة والكتابة وكل
ما يقرأ وكل ما يكتب ، فاعتزمت اذا أتاح الله لى السفر أن أقضى
شعرا كاملا لا أقرأ فيه ولا أملئ ولا أسمع بقراءة ولا املاء . وقد
ثم لى ذلك . وأقسم لقد كنت به شقيا كل الشقاء ، ذلك أنا نخطيء
الخطأ كله فى تقدير آلامنا وفى تقدير لذائنا وفى تقدير
حاجتنا . يبلغ بنا الألم أقصاه أحيانا فيخيّل الينا أنه قد بلغ
بنا أقصاه حقا ، وأنا لن نستطيع أن نحتلّ ألما فوق ما احتملنا ،
ثم تمنى الراحة ونطمح الى اللذة فنقيس الراحة التى تمنّاها
واللذة التى نطمح اليها بمقياس التعب الذى لقيناه والإلم الذى
احتملناه ، تمنى راحة مطلقة ولذة لا حد لها ، فاذا أتيج لنا أن
نستريح فما أسرع ما نلّ اللذة وما أسرع ما تمنى الألم ، كذلك
كنت فى « ارجليس » ضيق الذرع بهذه الراحة التى اضطررت
نفسى اليها ، شديد السأم لهذه اللذة التى طالما طعمت فيها عظيم
التمنى لدنك الألم الذى طالما شكوت منه ، وكانت زوجى تضحك
منى وتتخذنى سخرية ، وربما رقت لى فقرأت على فصلا أو فصولا
من كتاب ولكنها كانت قد آلت كما آلت أن أستريح فلا أحدنك
عن هذه الراحة الثقيلة .

هناك خاطر يخفى لى فى كثير من الأحيان ، ولست أدري

أيخطر لغيري من الناس أو هو مقصور على لأن حالى الطبيعية هي
التي تضطرنى اليه .. ذلك أنى أبفض نفسى أشد البعض وأبفض
معها الحياة وأرى كل شيء سيئا مردولا فأسأم كل شيء وأزهد
فى كل شيء ، وأنا تعرض لى هذه العلة اذا اتصلت خلوتى الى
نفسى كما اتصلت فى هذه الراحة التى أكرهت نفسى عليها . اذا
اتصلت خلوتى الى نفسى فلم أقرأ ولم أكتب ولم أشارك فى الحياة
العامة ، وأنا أقطعت الى نفسى أحيا هذه الحياة الخاصة الفاترة التى
تكاد تنحصر فى الحياة الجسية ، فى هذا الطور من أطوار الحياة يخلو
الإنسان الى نفسه حقا واذا كان العقل الإنسانى لا يعرف الراحة
ولا يستطيعها وإنما هو مفكر أبدا مشتغل أبدا فإن العقل فى أول
هذه الخطوة يمضى فى عمله وتفكيره معتندا على ما بقى له من المادة
الفكرية أثناء العمل وقبل الراحة . فاذا فرغ من هذه المادة بحثا
وتفكيراً احتاج الى تجديدها ، احتاج الى الغذاء المعنوى كما
يحتاج الجسم الى الغذاء المادى . ولكنه قد أكره نفسه على الراحة
وأخذ نفسه بالآلا يقرأ ولا يعمل وهو مع ذلك مضطر الى التفكير
بطبيعته ، وهنا الشر كل الشر ، فهو يبدأ فى أن يفكر تفكيراً خطراً ،
يبدأ فى أن يتخذ نفسه موضوعاً للتفكير كما تبدأ المعدة الخالية فى
هضم نفسها . يفكر الإنسان فى نفسه فيحللها ويبالغ فى تحليلها
ويدرس الدقائق من عواطفه ومشاعره وأهوائه درساً مفصلاً دقيقاً
فلأيرى من هذا كله الا ما يشعره بأنه ضئيل ضعيف ، بأنه ليس

شيئا يذكر ، بأنه ليس شيئا يستحق الحياة ، وربما فكر في الحياة
فراى أنها ليست شيئا يستحق العناية ، واذن فالسأم يقوى شيئا
فشيئا حتى ينتهى الى السخط والى سوء الخلق والى التشاؤم
وما أظن إلا أن كثيرا من هؤلاء الفلاسفة المشائمين قد اتخذوا
مذهب التشاؤم ديناً لهم لأنهم فكروا فى أنفسهم وحللوها ودرسوها
أكثر مما ينبغى . لا أميل الى أن يفكر الانسان فى نفسه كثيرا
فالانسان لا يستحق هذا التفكير ، وانا أميل الى أن يشغل الانسان
نفسه عن نفسه بالقراءة والحديث والعمل والاستمتاع بلذات
الحياة التى أباحها الله والأخلاق . ولولا هذه اللذات التى قدمت
لك وصفها فى أول الكلمة ، ولولا أنى كنت أشغل بها نفسى عن
نفسى كلما أحسست الحاجة الى التفكير لأصابنى شيء من سوء
الخلق غير قليل . لذلك تعبت فى « أرجليس » ولم أسترح . فلم
أقض يوما هادئا ولعلنى لم أقض ساعات متصلة فى اطمئنان وهدوء
وانما كنت طوال الوقت أضطرب فى الأرض وأهيم فى أنحائها
منتقلا من غابة الى غابة ومن شاطئ الى شاطئ ومن قرية الى
قرية ، أترك هذا المرج لأسمى الى مرج آخر وأدع هذه القرية
لأزور قرية أخرى . وكذلك قضيت هذه الأسابيع لم يحس عقلى
جوعا ولم يستمتع جسمى براحة . وكان من بين القرى أو المدن
التي قضيت فيها يوما وفكرت فيها كثيرا مدينة « لورد » .

(البوليجين) فى ١٢ أغسطس سنة ١٩٢٤ .

مدينة لورد Lourdes

يجب أن نعدو مع الطير لنذكر القطار الأول ولنبلغ « لورد » في مبتدأ النهار . وغدونا مع الطير فاذا جو بارد يلمح الوجه زمهريره وينسيك أنك في أواخر شهر يولية . واذا الحاجة ماسة شديدة الى المعطف ، واذن لا بد من اخفاء اليدين ومن ستر العنق والوجه . ولكننا آيينا أن نصطنع من ذلك شيئا عنادا لهذا الجو ولهذا للطبيعة التي تريد أن تغير الأشياء فتقر الشتاء مكان الصيف ، آيينا الا أن نحتفظ بلباس المصطافين ومضيئا في طريقنا لنحفل بهذا الهواء البارد ولا نحفل بهذا المطر الذي أخذ ينهر بعد حين والذي ما أسرع ما اخترق ثيابنا الصيفية وبعث فينا اضطراب العصفور بلله القطر . ولكننا مضينا في عنادنا ولم نحفل بهذا الاضطراب وآيينا الا أن نعتبر أنفسنا في الصيف . ولم لا ؟ ألم تعود في مصر ضروبا من الصبر والمقاومة والوفا من الجلد والاحتفال ؟ ومضى القطار بنا حتى بلغنا « لورد » قبل الساعة التاسعة صباحا . فاذا مدينة كآحسن ما نعرف من المدن الفرنسية موقعا ، يشرف عليها

الجبل ويجزى من تحتها النهر ، يتردد فيها هواء خفيف ولكنه مبتلىء حياة ونشاطا لا يكاد يسك حتى يجعلك حياة ونشاطا ، فإذا أنت أقدر ما تكون على الحركة وأرغب ما تكون فيها ، وإذا أنت أقدر ما تكون على التفكير وأشوق ما تكون اليه . ولم نكد نترك المحطة ونندفع في الشارع الذي ينتهى الى المغارة حتى أحاطت بنا جموع من الرجال والنساء كلهم يعرض بضاعته وكلهم يلح في عرضها وكلهم يتملقك ويترضاك وما هذه البضاعة الا الفنادق والا الغرف في منازل بعض السيدات اللاتي نزلن في هذا الفصل عن بعض حجرهن وغرفهن واتخذنها تجارة ومصدرا للكسب . يتقدم اليك هذا السائق ليأخذ متاعك الى سيارته الفخمة التي ستنتهى بك ان شئت الى فندق كذا ، وهو ليس غاليا ولا مرفا في الشطط ، على أن فيه كل ما تحتاج اليه من أسباب الراحة ووسائل النعيم . ويتقدم اليك هذا السائق ليأخذ متاعك الى عربته التي ستنتهى بك الى فندق كذا ، وهو فندق حسن الموقع تشرف منه على مناظر بديعة ، وليس بينه وبين الغار الا دقائق ، أما الأجر فقليل . وتتقدم اليك هذه السيدة باشة مبتسمة تعرض عليك غرفة جميلة واسعة حسنة الأثاث تشرف منها على الغار ، أما الأجر فستطيع أن تتفق عليه ، وثق بأن ستكون مسرورا . ولكننا نجهتد في أن نخلص من هؤلاء الناس جميعا ، فلم نأت « لورد » لناوى

الى فندق أوخان ، ولا لنمكث فيها أياما ، وانما أتيناها لنمكث فيها ساعات ثم نعود أدراجنا فقد زرنا « لورد » وزرناها وأكثرنا من زيارتها . ولولا شيء سعتاه أمس لما فكرنا هذه السنة في أن نراها . ولكننا نتحدث فيما بيننا ونحن نشق صفوف هذه الجوع المزدهمة أمام المحطة بأن الفصل سيء هذه السنة في « لورد » وأن تجار هذه المدينة سيشقون بهذا الصيف . فقد كانت «لورد» دائما شديدة الغلاء ولا سيما في شهرى يولية وأغسطس حيث يزدحم عليها الحجيج من كل صوب ، وحيث تضيق بالأجيال المختلفة التى تؤمها من أقطار الأرض المسيحية كلها . نعم ! الفصل سيء في هذه السنة فالحجيج قليل والفنادق بعيدة كل البعد عن أن تسترد شيئا من نفقاتها الضخمة وهذه الحوانيت الكثيرة التى لا تكاد تحصى والتى تكتظ بألوان البضائع المختلفة ولا سيما هذه البضائع التى تخصص للتقوى والعبادة . هذه الحوانيت محزونة كثية تجس الكساد وتألم له ، فالتاس لا يزدحمون عليها ، وهم لا يستبقون الى الصلبان والسبح والتمايم ، وانما يسرون بهذا كله معرضين عنه زاهدين فيه . وما مصدر هذا الكساد ؟ وما علة هذا الاحجام عن الحج في هذا العام ؟ أما أنا فضحككت وعلت ذلك بانتصار حزب الشمال في الانتخابات الفرنسية الأخيرة . فأنت تعلم أن حزب الشمال الفرنسى ملحد مسرف في الالحاد الى حد أنه يتخذ الالحاد

دينا . واذا قد انتصر هذا الحزب وانتصر بالطرق الديمقراطية الصحيحة أى برضا الفرنسيين وارادتهم فلا بد من أن يكون هناك اتصال بين انتصار الاتحاد وكساد التجارة فى « لورد » واحجام الناس عن الحج إليها . وأما زوجى فضحكت وسخرت منى ومن حزب الشمال ومن أحزاب اليمين أيضا وأخذت تلتبس العلة لهذا الكساد واحجام الناس عن الحج الى « لورد » فى ظروف الحياة الاقتصادية التى ارتفعت لها حاجات الناس ارتفاعا شديدا . ألم ترتفع أجور السكك الحديدية ارتفاعا فاحشا أحجم له الناس لآ عن الحج الى « لورد » وحدها بل عن الحج الى هذه المواقع الطبيعية البديعة فى الجبل وعلى سواحل البحر . فالفصل ليس سميئا فى « لورد » وحدها وإنما هو سىء فى هذا الاقليم كله وما أحسب إلا أنه سىء فى جميع مواضع الراحة فى فرنسا . ومن هم الذين يحجون الى « لورد » ؟ ألم تكن كثرتهم المطلقة من الفقراء والذين يشبهون الفقراء والذين يحتاجون الى الحساب والتدقيق فى الحساب ليعيشوا فضلا عن أن يستمتعوا بشىء من اللهو والراحة ، أو أن يبيحوا لأنفسهم سياحة من السياحات . الظروف الاقتصادية اذن هى التى صرفت الناس عن « لورد » لا الظروف الدينية ولا الظروف السياسية ، ومهما يكن من شىء فقد زرنا « لورد » ومضينا فى شوارعها واتهينا الى الغار والى ينبوع ، فاذا حولهما

جماعات من الناس لا تذكر بالقياس الى تلك الجماعات التي كنا نراها من قبل ، ولكنها مع ذلك كثيرة ولكنها مع ذلك هائسة ، ولكنها مع ذلك تملأ القلوب حزنا وحسرة ، ولكنها مع ذلك تدعو العقل الى التفكير وتبعث الانسان اذا كان جافيا غليظ الطبع على أن يسخر من الانسان ، وتبعثه ان كان رقيقا حساسا على أن يعطف على الانسان . انظر الى هؤلاء الناس الذين انبثوا حول الغار والينبوع حاسرين يصلون ويضرعون ويتوسلون ويتسحرون بالأحجار ويمسسون أيديهم في الماء ويشربون منه وفيهم المكفوف وفيهم المقعد وفيهم من أصابته ضروب الشلل وفيهم من ألح عليهم الجذام وفيهم من أنهكتهم العلل المتباينة ، وفيهم الأصحاء أقبلا يتضرعون لأبنائهم وبناتهم وآبائهم وأمهاتهم وأخوانهم وأخواتهم ، كل هؤلاء منبثون حول الغار والينبوع لا يضحكون ولا يلهون ولا يحفلون بجمال الطبيعة ولا يستمتعون بروعة المنظر ولا يكثرثون لهذا الجو الذي قد يبرد حتى يبعث الرعدة وقد يسخن حتى يتسبب له العرق وهم منصرفون عن هذا كله الى صلاتهم يبتهلون الى العذراء التي ظهرت في هذا المكان سنة ١٨٥٨ للفنائة « برناديت » وأوحت اليها أن تأمر الناس بأقامة كنيسة لها في هذا المكان وأثبتت ظهورها باخراج هذا الينبوع الذي تفجر عنه الصخر أمام هذه الفنائة الراعية فرآه الناس وآمنوا له ، وصدقوا الفنائة ، وتحولت له

هذه القرية التي كانت خاملة الى مدينة ضخمة فيها من أسباب الترف واللوان النعيم ما لم تبلغه مدن كثيرة قديمة العهد بالنحو في هذا الاقليم . يتהל هؤلاء الناس الى هذه العذراء أن تشفى مرضاهم وينتظرون الساعة المعينة التي يقوم فيها رجال الدين بحركاتهم اليومية فيغسبون المرضى في الماء المقدس ، ماء الينوع ، ويصلون ويتهللون وينتظرون المعجزة فتواتيهم حيناً وتخلفهم حيناً . ومن سوء حظ « لورد » ورجال الدين في هذا العام أن العذراء لم تحدث معجزة منذ ابتداء الفصل وهم يتهللون ويتضرعون ويلحون في الابتهاال والتضرع ويفسسون المرضى في الماء ويخرجونهم منه ثم يردونهم اليه ويخرجونهم منه ، والأساقفة يترددون على المدينة ويشرفون على هذه الحفلات والصلوات ، ولكن العذراء عنهم معرضة لا تسمع لهم ولا تلتفت اليهم ، وكانت قد عودتهم أن تحدث لهم في كل عام معجزة أو معجزات ، فما لها هذا العام قد تركت مدبنتها وأعرضت عن عبادها ؟ أما أنا فضحكت هذه المرة كما ضحكت في المرة الأولى وقلت ان العذراء معصية لأن حزب الشمال قد انتصر في الانتخاب ولو قد انتصر حزب اليمين لما تصرم يوم من أيام هذا الفصل دون أن تحدث العذراء معجزة تضطرب لها أرجاء الأرض ، ولو قد انتصر حزب الوسط الذي ليس هو بالمؤمن ولا بالملحد ولكنه على كل حال قد استأنف العلاقات السياسية

مع « البابا » لما رضيت العذراء أن يتصرم الفصل أو جزء عظيم منه دون أن تحدث معجزة أو معجزات . ولكن زوجي زجرتني زجرا شديدا وهي تقول ما يصلح هذا الموضع لمثل هذا الهذيان فأرجئه الى حيث تخلو الى نفسك فلا تؤذ به أحدا . . فسكت ولكني لم أحدثك الى الآن عن السبب الذي من أجله فكرت في أن أورد « لورد » هذا الغام ، وهو سبب لا يحتاج الى أن يكون موضوعا للحديث ولكنه مع ذلك كلفني هذه السياحة القصيرة وأزعجني عن مضجعي ولما تشرق الشمس . ذلك أني سمعت القسيس يخطب الناس في « أرجليس » ويقرأ عليهم منشورا أصدره « البابا » رفع به « برنيت » هذه الفتاة الراعية التي ظهرت لها العذراء في « لورد » الى منزلة السعداء التي ليس فوقها الا منزلة واحدة فيما أظن هي منزلة القديسين . قرأ القسيس هذا المنشور ثم انتقل منه الى حياة « برنيت » فذكرها مفصلة حتى اذا بلغ ظهور العذراء لهذه الفتاة الراعية أخذ يلح في اثبات ذلك بالأدلة المختلفة ثم أخذ يسرد المعجزات أو طائفة من المعجزات التي أحدثتها العذراء في « لورد » فان هذه المعجزات لا يمكن أن تحصى . وأخذ يذكر لنا معجزات قائمة بين أيدينا لاسبيل الى جحودها فهذه السيدة التي تتردد في الكنيسة لتجلس الناس وتتقاضى منهم أجور الكراسي وتتقاضى منهم الصدقات ، هذه السيدة التي ترونها جميعا في حركتها

بوشاطها وخفتها ، هذه السيدة انظروا اليها تسمى بينكم . ليس
بينها وبين أشدكم قوة فرق . انظروا اليها لقد كانت مقعدة فأطلقت
العذراء ساقها في « لورد » وأنتم أهل هذه المدينة تعرفون فلانة
وتعرفون علتها التي أعيت الأطباء أعواما لقد شفتها العذراء في
العام الماضي وماأظن أن منكم من يجرؤ على انكار هذه الواقعة ..
وفي الحق أن أهل المدينة لا ينكرون هذه الواقعة ولا الواقعة التي
سبقتها ولكن في الحق أيضا أني رأيت امرأتين احدهما بدالة تبيع
ألوان البقل وضروبا من المتاع وهي عرجاء أصابها ألم في القدم
منذ سنين وعجز الأطباء عن شفائه ولم تن فيه المياه المعدنية المختلفة
شيئا وهذه المرأة تتردد كل عام الى « لورد » فتشرب من ينبوعها
وتستحم في أحواضها كما كانت تتردد الى المدن والقرى التي تمتاز
بمياهها المعدنية الحارة والباردة وتصلي الى العذراء وتبتهل دون
أن تحدث العذراء فيها معجزة وهي غير يائسة ولا قانطة ، بل هي
تعتزم السفر الى لورد بعد أيام . والأخرى امرأة عرجاء أيضا ،
ولدت معوجة الساقين فهي لا تمشي وانما تحجل وتجذ في ذلك
مشقة شديدة . رأيتها في بعض الرياضات لأنها مكلفة أن تحرس
ممر القطار في طريق مسلوكة ، وكنا قد أخطأنا الطريق الى المدينة
فما زالت معنا حتى اهتدينا ، وقد قطعت بنا طرقا مجهولة شاقة
فتحدثنا اليها أكثر من نصف ساعة وعرفنا علتها وعرفنا أنها ألحت

على العذراء وشربت كثيرا من ينبوع « لورد » وانفست كثيرا
في أحواض « لورد » ولكن العذراء لم تلتفت اليها فيست من
العذراء وحدثت « لورد » وسجرت منها ورضيت علتها واطمأنت
اليها . رأيت هاتين المرأتين ولكنهما فيما يظهر لا تصلحان حجة
على أنصار « لورد » فالعذراء ليست مكلفة أن تشفى كل مريض
والما هي تشفى من تريد أن تشفى — ومن يدري ؟ لعلها تشفى
المرأتين في يوم من الأيام . سمعت ما سمعت ورأيت ما رأيت فاشتقت
الى زيارة « لورد » وطمعت في أن تظهر معجزة يوم زيارتي ،
ولست أمزح ولا ألهو فان المعجزات قد ظهرت في « لورد » وما أظن
الا أنها ستظهر أيضا ، غير أن العلماء يعللون هذه المعجزات تعليلا
ويملأها القسيسون تعليلا آخر ، وأنت خذ في أن تصدق العلماء
أوفي أن تصدق القسيسين . أما أنا فقد طمعت في أن أرى المعجزة
ولكني لم أر شيئا . ثم طمعت في أن أسمع بالمعجزة أثناء اقامتي
في « أرجليس » على مسافة قصيرة من « لورد » ولكني لم أسمع
شيئا . ثم سافرت من أرجليس واني لفي القطار الى حيث أقيم
الآن واذا سيدتان تتحدثان .. ماذا أسمع . أصغيت ثم استعدت
السيدتين حديثهما .

ظهرت المعجزة في لورد منذ يومين اثنين ، ذلك أن أسرة أسبابة
أقبلت الى لورد ومعها فتاة مقعدة فلم يكدر رجال الدين يفسوك

هذه الفتاة في الحوض ويفرغون من صلاتهم ودعائهم حتى
نهضت الفتاة معتدلة القوام ، لا أقول تسمى بل تجرى . . ظهرت
المعجزة في لورد وذاع أمرها وتحقق الناس صحتها واعترف بذلك
مكتب الاثبات الطبي الذي أقيم في لورد ليثبت صحة المعجزات
أو ينكرها ، واذن فسيحسن الفصل في لورد هذا العام ، ولكنى
آسف الأسف كله لأننى لم أسمع بهذه المعجزة إلا في القطار على
بعد عشر ساعات من لورد . .

بوليجان (فرنسا) في ١٩ أغسطس سنة ١٩٢٤ .

—————

الخييل ! الخييل !

دوى هذا النداء فى أرجاء الغابة وما أسرع ما استجاب له
الفرسان يهرعون من كل صوب حتى بلغوا جيادهم فامتطوها ،
وما هى الا أن أخذت تعدو بهم عدوا سريعا ، ولكنه منسجم
تنظمه ألحان الموسيقى التى لا تخلو من عذوبة ساذجة ، ولا تبث
على حرب ولا تدعو الى قتال . ذلك أن هؤلاء الفرسان لم يكونوا
رجالا ، وإنما كانوا أطفالا ، وأن هذه الخيل لم تكن جيادا مطهمة
كريمة النسب ، وإنما كانت جيادا من الخشب .

دعا الداعى : الخيل ! الخيل ! فأسرع الأطفال الى الخيل
فامتطوها وأسرعت الخيل فدارت بهؤلاء الأطفال ، وأسرعت
الموسيقى فعزفت لهم ألحانها ، ووقف الكبار من رجال ونساء
ينظرون ويسمون فرحين مبتهجين بما يستمتع به أبناءهم من هذا
اللهم البرىء ، ثم انتهت دورة الخيل وآن دفع الأجر ، وتقدم
الناس يؤدون هذا الأجر عن أبناءهم فاذا هذا الأجر مضاعف هذا
المساء واذا الذى يتقاضاه من الناس قسيس يزدان بلباسه التيلى ،

وإذا الناس يبذلون ما يطلب إليهم عن طيب نفس وقرة عين ، وإذا
القيس يستألف دعاءه بصوته الضخم : الخيل الخيل ! وإذا
الأطفال يسرعون إلى هذه الخيل فيمتطونها وإذا الموسيقي تستألف
لحنها . وقضى القيس مساءه على هذه الحال يدعو إلى الخيل
ويعرف على دورة الخيل ويتقاضى أجور الخيل .

وعلى مسافة قصيرة من هذا القيس الذى وقف مساءه على
تلهية الأطفال وجمع المال طائفة من السيدات ، من خيرة السيدات
من ذوات المكانة فى المدينة قد اتخذن لباس الخدم وطفن على
الناس يقدمن إليهم ألوان الحلوى وصنوف القاكهة وأكؤس
الشاي ويقدمن مع هذه الأطعمة والأشربة بسات عذبة وضحكات
حلوة ولحظات فتاة ، ويتقاضين أجر هذا كله أضعافا مضاعفة .
وعلى مسافة من هؤلاء السيدات طائفة أخرى من الفتيات
الناشئات يطفن على الناس بأوراق النسيب ، والناس يتهافتون
على هذا كله يطعمون ويشربون ويشترون الورق ويمزحون
ويفتنون فى اللهو التزيه اقتنان الأطفال فى اللهو البريء . ذلك
أن المدينة قد أقامت فى هذا اليوم حفلا لعمل من أعمال البر ،
قأدى كل واحد من أهل المدينة ما للبر عليه من حق ، دفع هذا
ماله ووقف هذا وقته وآثر هذا بلهوه هذا العمل الخيرى . وليس
فى هذا الأمر بدع فحفلات البر مألوفة فى أوروبا ومصر ، وأسواق

البر معروفة هنا وهناك ، والخلقيون يختلفون اختلافا شديدا في الحكم على هذه الحفلات والأسواق ، قوم يحدونها لأنها تؤدي الى الخير وقوم يمتدونها لأنها لا تخلو من لهو وتكلف ، ولأن الخير خليق أن يصدر عن الانسان كما تصدر الأشياء القطرية في غير حيلة ولا تصنع . ليس في هذه الحفلات بدع اذن ، وما كنت لأحدثك عنها لولا أن رأيت هذا القسيس قد اختار لنفسه هذا النوع من العمل ، فقفى ساعات من نهاره لا يقدر الله ولا يقرأ الانجيل ولا يتغنى بهذه الأغاني التي يقصر عليها القسيسون ظهر يوم الأحد عادة في كنائسهم ، وانما يشرف على لهو الأطفال ودورة الخيل ويصيح بأعلى صوته من حين الى حين : الخيل ! الخيل ! ويتوسم وجوه الناس فيأخذ منهم أجر الخيل متناسبا مع ما توسم في وجوههم من ثراء أو عسر . لولا أني رأيت هذا القسيس سمعته لما فكرت في أن أتحدث اليك بشيء عن هذا الحفل ، بل لقد كنت أود لو لم أكتب بهذا الحديث الى « السياسة » ولا الى صحيفة «سيارة» . كنت أود لو جعلت هذا الحديث موضوع رسالة خاصة أبعث بها الى صديق من أصدقائي علماء الدين الاسلامي في مصر ، أبعث بها الى الأستاذ الزنكلوني مثلا ! ولكني أحببت أن تكون هذه الرسالة دائمة يقرأها الأزهريون جميعا ويفكرون فيها قليلا أو كثيرا .

لست أخفى على الأزهريين وعلى علماء الدين خاصة أنى
أعجبت بهذا التفسير وتمنيت لو أرى علماء الدين عندما يشرفون
على مثل هذه الخيل ويدعون إليها مثل هؤلاء الأطفال ويتقاضون
على ذلك مثل هذا الأجر يضاعفونه ما شاءت لهم حاجة الأعمال
الخيرية التي يدعون إليها الدين أو التي تمس إليها حاجة الفقراء
والبائسين في مصر .

أعتقد أن علماء الدين في حاجة شديدة الى الوقار والمهابة وأن
حاجتهم الى الوقار والمهابة تحظر عليهم حركات ومواقف تباح
لغيرهم من الناس ، ولكنى أعتقد أن هذا التفسير الذي كان يدعو
الأطفال الى الخيل لم ينزل من وقاره عن قليل ولا كثير وانما أضافه
الى هيبته ، والى وقاره وقارا ، وأدى عمله الدينى كما ينبغي
أن يؤديه حين سلك الى الخير هذه السبل الضخمة التي تجمع له
من المال ما يحتاج اليه دون أن يكلف استجداء أو يتحمل العناء في
دعوة الناس الى الصدقة والاحسان . فما الذى يمنع رجال الدين
في مصر أن يسلكوا مثل هذه السبل ؟ ما الذى يمنع رجال الدين ؟
يمنعهم أنهم يعيشون في عصرهم هذا دون أن يكونوا من أهله
ودون أن يشعروا شعورا صحيحا بحاجاته وضروراته ووسائل
العيش فيه . ثم يمنعهم أن الدولة تدر عليهم أرزاقا قد لا تكون
كثيرة ولا غزيرة ولكنها الآن أكثر وأغزر منها منذ عشر سنين . هي

بصيت تمكنهم من الحياة الهادئة المطمئنة ، وما أحسبهم يطعمون مع
الأسف الشديد في أكثر من الحياة المطمئنة ، ثم ينعمهم شيء آخر
هو أجل من هذا كله خطرا وأنا قائله ومعتذر الى علماء الدين من
هذه الصراحة في القول ، ينعمهم أن الواجب الذي يشعرون به
ويعتقدون أنهم مكلفون أدائه في هذه الحياة ضيق جدا أضيق من
الواجب الحقيقي الذي يفرضه عليهم الدين وحاجة الاجتماع . هم
يعتقدون أنهم علماء أى أن الله قد أودعهم علوم الدين فهم يبذلون
هذه العلوم للناس في الأزهر وملحقاته ، وهم يصلون ويشرفون
على إقامة الشعائر الدينية الرسمية . وإذا ألقوا دروسهم وأدوا
صلواتهم وألقى بعضهم من حين الى حين خطب الوعظ ، فقد أدوا
ما يجب عليهم لله والناس واذا كان الناس لا يطعمون في علوم الدين
اليوم كما كانوا يطعمون فيها في القرن الماضي ، واذا كان الناس
لا يختلفون الى المساجد في هذه الأيام كما كانوا يختلفون اليها في
الأيام الماضية ، فقد أصبح نفع العلماء للمهنة الاجتماعية كما يقولون
محدودا ، قليلا ، وسيشتد قلة مع مضي الزمن لأن اختلاف الناس
الى الأزهر سيتقل غدا كما قل اليوم . ومن هنا يزيد العلماء على
حاجة الاجتماع ، وتصبح طائفتهم بعد زمان طويل أو قصير طائفة
لا تستد الحاجة اليها . اذن فالعلماء بين اثنين ، إما أن ياربوا بين
أنفسهم وبين العصر الذي يعيشون فيه وأن يصبحوا كغيرهم من

الناس يشعرون بما يشعر به معاصروهم ، واما أن يستمدوا لهذا اليوم الذي ليس منه هذا ، والذي يصبحون فيه عائلة على البضاعة المصرية لا يرجي منهم خير ولا يعتمد عليهم في ثقل .

نعم ! يتصور العلماء واجبههم تصورا ضيقا جدا ، فهم مكلفون شيئا آخر غير القاء الدروس واقامة الصلوات ، هم مكلفون أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، ولم يقل أحد ان القاء الدروس واقامة الصلاة هما كل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . هم مكلفون أن يشتركوا في جميع أعمال الخير . هم مكلفون أن يحتملوا ألوان العناء في كشف الضر عن البائسين . هم مكلفون ألا تخلو منهم جماعة خيرية . هم مكلفون ألا تخلو محطة في مصر من آثارهم الخيرية . هم مكلفون أن يتصوروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تصورا صحيحا واسما يجعلهم عضوا نافعا في الجماعة .

لو يعلم رجال الدين عندنا ماذا يصنع رجال الدين في أوروبا من هذه الناحية لدهشوا دهشا عظيما ولعلموا أنهم بعيدون كل البعد عن أداء واجبهم الديني . كتبت من أوروبا في السنة الماضية فصولا عن رجال الدين الغربيين وعن هذا الجهد العظيم الذي يبذلونه ليكون معظمهم من العلم والفن كحظ غيرهم من رجال العلم والفن ، وذكرت هذا الأسقف الذي اشترك في مؤتمر التاريخ في بروكسل وذكرت هؤلاء القسيسين الذين قدموا الى هذا المؤتمر مذكرات قيمة تمس

فروع التاريخ على اختلافها وتمنيت لو استطاع عالم من علماء الدين عندنا أن يشترك في المؤتمر الجغرافي الذي سيقام في مصر في العام المقبل . أما في هذا الفصل فلست أذكر علم رجال الدين الغربيين ولا اجتهدهم في تحصيل العلم ، وإنما أذكر تصورهم لواجبهم الديني وهو مع الأسف الشديد أصبح وأرقى من تصور علمائنا لواجبهم .

أذهب الى أصغر قرية وأحقرها من قرى أوروبا وتبين عمل القسيس في هذه القرية تجده عظيما شديدا التشعب ، فهو يؤدي قبل كل شيء واجبه الديني المعقد في الكنيسة يقيم هذه الصلوات الكثيرة المتنوعة ويتقبل اعترافات المؤمنين الى غير ذلك من أعمال الكنيسة ، وهو يعنى بكنيسته عناية مادية فيشرف لا على أن تكون نظيفة حسنة النظام بل على أن تزدان بما استطاع أن يزينها به من آثار الفن ، ثم هو بعد هذا أستاذ ديني للأطفال القرية جميعا يختلفون اليه في كل يوم يأخذون عنه مبادئ الدين وأصوله ، ثم هو موسيقي بحكم عمله الديني وهو أستاذ للموسيقى في قريته ثم هو متغلغل في حياة القرية لا يفلت من يده مولود ولا ميت ، يتلقى المولود ليعمده ويزور المحتضر ليصلى عليه ويلهيه كلمته الدين ، وهو يوجود بنفسه ، ويودعه الى قبره ، ثم هو بعد هذا كله مكلف بحكم الدين أن يبحث عن الضعفاء وذوى الحاجة

فيواسيهم ويمزيهم ويلقى ألوان العناية في حمل الناس على الصدقات
يأخذ من أغنيائهم ما يرده على فقرائهم ، ثم هو بعد هذا وذالك رجل
طلعة يريد أن يتعلم ، فهو يختص بدرس نوع من أنواع العلم أو
لون من ألوان الفن .

هذه خلاصة حياة القسيس في قرى أوروبا ومدنها . فأين
منها حياة رجال الدين في الشرق الاسلامي ؟ ومن هنا انتهت
أوروبا الى ما انتهت اليه من الالحاد والكفر ورفض الدين ،
ولكنها لم تستطع ولن تستطيع أن تخلص من القسيسين . ذلك
لأن القسيسين يتطورون مع أوروبا ويحتالون في ألا تفوتهم
الجماعات أو تفلت من أيديهم ويسلكون السبل المختلفة ليصلوا
الى قلوب الناس من طريق الدين ان كانوا مؤمنين ومن طريق
العلم ان كانوا علماء ومن طريق الفن ان كانوا فنيين ، ومن طريق
الخير ان كان شيء من هذا لا يعينهم . ومن هنا كان القسيس في
أوروبا جزءا غير منفصل من الجماعات لا يستغنى عن الجماعة
ولا تستغنى الجماعة عنه . ومن هنا انفصلت الكنيسة عن الدولة
في فرنسا مثلا وانقطعت معونة الدولة للكنيسة فما الهارت
الكنيسة ولا افتقر رجالها وانما أدى الناس الى الكنيسة ورجالها
أضعاف ما كانت تؤديه اليهم الدولة . وهذه مدارس الكنيسة في
فرنسا تراهم مدارس الدولة فتزحمها . فأين رجال الدين في الشرق

الاسلامى من رجال الدين فى الغرب المسيحى ؟ وماذا يرى الأستاذ
الزنگلوني والأستاذ أبو العيون وأصحابهما فى هذا كله وأيهما
أجدى وأليق بالكرامة ؟ أن يعمل رجال الدين حتى يكرهوا الدولة
والأمة على أن يشعروا بالحاجة اليهم أم لا يعملوا وإنما يلحون فى
الطلب ويبالغون فى الالاحاح ويعرضون على أن يتدخلوا فى كل
شئ دون أن يشعر الناس بنفعهم حين يتدخلون فى كل شئ ؟ أما
انى أتسنى على الأساتذة علماء الدين أن يفكروا فى هذا ويبتليوا
التفكير فيه فقد يجدون فيه عظة وعبرة . ثم لا أخفى عليهم انى
بمعجب بهذا القسيس الذى سمعته يدعو الأطفال الى الخيل وأتمنى
أن أجد بين سيوخا من يستطيع فى يوم من الأيام أن يدعو
الأطفال الى الخيل دون أن يجد من جيبته أو عمامته ما يصرفه عن
ذلك أو يزهد فيه .

البوليجين فى ٢١ أغسطس سنة ١٩٢٤

ع

سبارليس

أريد أن أكتب عن باريس ، ولكنى لا أدري ماذا أقول عن باريس ، لا لأن الكلام يعوزنى ، ولا لأن الخواطر تنقصنى ، بل لأن لدى خواطر لا أستطيع أن أحصيها ولا أن أنظمها ، ولأن لدى كلاما لا أستطيع أن يؤثر بسطه على بعض ، فما أكثر ما أريد أن أقول ، وما أشد عجزى عن تمطير ما أريد أن أقول . وماذا تريد أن أفعل ؟ ولست من الفن ورقة القلب بحيث كان الكاتب الفرنسى « رينان » الذى زار عاصمة العالم القديم فقدم الى آلهتها هذه الآية الفنية الخالدة التى هى صلاته الى آلهها الحكمة فى أثينا . ، اذا تريد أن أفعل وليس لى حظ « رينان » من الفن ولا من رقة القلب ، وقد حرمنى الله كل خيال أو قدرة على التصرف فى الخيال . ومع ذلك ففى باريس آلهة يستحقون أن يتقدم اليهم الانسان بالصلاة كما تقدم « رينان » الى آلهة الحكمة فى مدينة أثينا .

فى باريس علم لا يقاس اليه علم الأتيمين ، وفى باريس

فلسفة لا تقاس اليها فلسفة الأتنيين ، وفي باريس حرية لا تذكر معها حرية الأتنيين ، وفي باريس حضارة تهينها ان قرنت اليها حضارة الأتنيين ، وفي باريس حياة يعجز الفرد مهما تكن قوته عن فهمها والاحاطة بها والتعمق في تحليلها ثم يعجز الفرد مهما تكن قوته عن أن يعطيك منها صورة صحيحة أو مقاربة . ليس بين أتينا وباريس الا شبه واحد وهو أن أتينا كانت عاصمة العالم القديم ، وان باريس عاصمة العالم الحديث . فاذا قرنا هذا الشبه فيجب أن نقرر ما بين المدينتين من فرق وهو عظيم أعظم من أن نتصوره ، هو الفرق بين العالم القديم والعالم الحديث .

أنا مفتون بأتينا وفلسفتها وفلاسفتها وحريتها وزعمائها ، ولكنني على هذه الفتنة لا أستطيع أن أقيس أتينا الى باريس .

علم الأتنيين وفلسفتهم ، ماذا كانا بالقياس الى ما في باريس من علم وفلسفة ؟ كانا محاولة ساذجة غليظة فيها ضعف الأطفال وغرورهم لفهم الحياة وتفسيرها . حرية الأتنيين ماذا كانت بالقياس الى الحرية في باريس ؟ كانت نوعا من الامتياز لطائفة من الناس وضربا من التسلط والاحتكار انتهى بمصادرة حرية الرأي وبالحكم على سقراط بالموت . أما باريس فيكفي أن تصل انيها وأن تعيش فيها يوما أو بعض يوم لتشعر بما لها من عظمة وجلال وحق في الخلود لست في حاجة الى أن تفهم ، ولست

في حاجة الى أن تحلل ولست في حاجة الى أن تكون عالما أو
أديبا لتكبر باريس أو تقدر مكائنها في الحياة الحديثة وانما
يكفى أن تكون قادرا على أن ترى وقادرا على أن تسمع وقادرا
على أن تتنسم الهواء وأنا زعيم لك بأنك ستقدر باريس
وتكبرها وتحبها .

ليس لي حظ « رينان » من الفن لأقدم الى باريس الخالدة
مثل ماقدم هو الى أتيينا الخالدة ، وليس لي حظ هذا الصديق
المسافر الذي يرسل مذكراته الى « السياسة » من حين الى حين
والذي أحسبه عاد الآن الى مصر ، أقول ليس لي حظ من حلوة
الفكاهة ودقة الملاحظة وخفة الروح وسلامة الذوق لأحدثك عن
باريس بشيء يشبه ما حدثك به عنها ، وانما أنا بعيد كل البعد
عن هذه الخصال التي امتاز بها هذا الصديق فجعلت فصوله
ومقالاته حلوة عذبة أو جعلتها الحلوة والعذوبة تقسها ، ولكن
لي وجها خاصا في حب باريس والاعجاب بها والحياة فيها .
وأحسب أن لكل انسان يحب باريس وجها خاصا في حبه لهذه
المدينة ، فأنت لا تستطيع أن تحبها من كل وجه لأنها أوسع من
حياتك وأعظم من قدرتك على الحب وأرفع وأجل من أن يحيط
بها حب فرد أو أفراد . أما حين كنت مقيما في الجبل أخرج من
حين الى حين للرياضة فأزور القرى وأتبع ما فيها من جمال طبيعي

أو المائى فقد كنت لا أصل الى قرية أو محلة الا حاولت أن
أشرب من مائها ، وكان يخيل الى أنى متى ذقت هذا الماء الذى
ينحدر الى هذه القرية أو المحلة ويعيش منه أهلها فقد اتصلت
نفسى بهذه القرية أو المحلة ، وشاركت أهلها فى شىء من الأشياء .
كذلك كنت وأحببى سأكون أبدا لا أبلغ مكانا الا حاولت أن
تكون بينى وبينه صلة قوية أو ضعيفة ، أما اذا بلغت باريس
فلمست أطمع فى أن أشرب من مائها لأوجد الصلة بينى وبين أهلها ،
وانما أطمع فى أشياء أخرى بها توجد هذه الصلة . ولا أعتقد
أنى فى باريس حقا الا اذا أرضيت نفسى من هذه الأشياء يجب
أن أشتري كتابا فى العلم أو فى الأدب وأن أقرأ منه فصلا أو
فصولا ، ويجب أن أذهب الى ملعب من ملاعب التمثيل الهازل
أو الجاد وأن أصفق مع المصنفين وأضحك مع الضاحكين أو أبكى
مع الباكين . ثم يجب أن أذهب الى مكان من هذه الأماكن التى
يختلف فيها الباريسيون الى آيات الموسيقى فأستمتع لهذا اللحن
البديع وأنسى أمامه نفسى ساعة أو ساعتين فاذا اشتريت كتابا
وقرأت ، واذا ذهبت الى ملعب التمثيل وتأثرت ، واذا سمعت
الموسيقى وذهلت لها فأنى فى باريس حقا أشعر بها يشرب به
الباريسيون ، وقد وجدت بينى وبينهم هذه الصلة التى أحب أن
توجد بينى وبين كل مدينة أو قرية أزورها .

ولنغيرى وجوه أخرى في حب باريس . هناك من يحب باريس لما يجد فيها من هذه الحركة العنيفة ، حركة الحياة العمالية وهناك من يحب باريس لأن فيها « مونتمارتر » ، وهناك من يحب باريس لأن فيها للفرد حرية لا تعدلها حرية ، وضربا من اللذات منها المباح ومنها المنكر ، منها ما يستطيع الانسان أن يملئه الى الناس جميعا ، ومنها ما يحب الانسان أن يخفيه حتى على نفسه ، وهناك وجوه أخرى لا يكاد يبلغها الاحصاء ، ولكنها كلها تنتهى الى نتيجة واحدة وهى أن شعوب الأرض جميعا قد تحب فرنسا وقد تكرهها وقد تكون سلما لها أو حربا عليها ولكنها كلها خجيمة على حب باريس وإثنا الإقامة فيها حينما من الدهر أو شسطرا من العمر .

ولقد قرأت منذ أسابيع فصلا نقلته جريدة « الطان » عن احدى الصحف الأميركية الكبرى حاول فيه كاتبه أن يتقصى الأسباب التى تحل الناس جميعا على أن يحبوا فرنسا ويؤثروا الإقامة فيها وفى باريس خاصة فأعجبني هذا الفصل لأنه لا يخلو من صواب ولا من طرافة ، ولكنه بعيد كل البعد عن أن يحيط بأطراف المسألة حقا . يظهر أن الأميركيين يحبون فرنسا عامة وباريس خاصة لأن فيها سهولة العيش ولين الحياة وضربا من اللذة لا يجدونها فى بلادهم ، أهمها لذة الطعام والشراب . فيظهر

أن الله لم يرزق بلدا من البلاد من المهارة في اجادة الطعام- ما رزق
فرنسا . ويظهر أنه لم يرزق بلدا من البلاد من جودة الأشربة
ما رزق فرنسا . فكثير من الأجانب الذين يهرعون الى فرنسا في
جميع أجزاء السنة انما يهرعون اليها لأنهم يأكلون فيها فيجدون
الأكل ، ويشربون فيها فيجدون الشراب . وكثير منهم يهرعون الى
فرنسا والى باريس خاصة لأنهم يجدون في الشعب الفرنسي
والباريسي لنا في الخلق وصفاء في الطبع ورفقا في المعاملة وحلاوة
في الصلات لا يجدونها في بلد آخر . وكثير منهم يهرعون الى
فرنسا والى باريس لأنهم يجدون في فرنسا وفي باريس شيئا من
الفرح والابتهاج والابتسام للحياة مهما تكن صروفها ، ومهما
تكن خطوبها ، لا يجدونه في غير فرنسا وفي غير باريس . وهناك
أسباب أخرى ذكرها هذا الكاتب وأسباب لم يذكرها . وماذا
يعني أن نوفق الى احصاء الأسباب التي تجلب فرنسا الى الناس
وتخلصهم على أن يهرعوا الى باريس كلما وجدوا الى ذلك سبيلا .
ماذا يعني من هذا كله ونحن لا نكتب تاريخا ولا فلسفة وانما
الاحظ حقيقة لا تحتل شككا ولا الكارا : وهي أن الناس جميعا
مهما تختلف أهواؤهم بالقياس الى فرنسا فهم يحبونها ويحبون
منها باريس بنوع خاص .

لست كهذا العالم المصرى الذى كان يحب باريس ، وكان اذا
وصل اليها تمرغ على أرضها كما كان يتمرغ قيس بن ذريح على

آثار لبنى ! لست كهذا العالم . فلما حدثتني نفسى في يوم من الأيام
أن أهوى الى أرض باريس ثما وتقيلا . بل ان في باريس لأماكن
كثيرة يعرفها المصريون الذين اختلفوا الى هذه المدينة ولا أعرفها
ولم تحدثنى نفسى بأن أعرفها ، وان في باريس لأماكن كثيرة أكرهها
وأمقت الاختلاف اليها ، ولكنى أعشق في باريس مكانا أعتقد أنه
أقدس مكان في العالم الحديث ، وأنه الرأس المفكر لهذا العالم ،
لا أستثنى منه بلدا ولا مكانا ، وهو الحى اللاتينى . أنا أعشق هذا
الحى وأهيم به هياما وأعلن في ضعف وتواضع أنى لا أكاد أحس
نفسى فيه ولا أكاد أشعر بأنى أمشى في شوارعه حتى أشعر أن قد
تجدد شبابى واستأنفت كل ما فقدت من نشاط ، فأنا آنفسى في
حرية ، وأفكر في حرية ، وأتحرك في حرية ، وأنا أحب الحياة
وأحرص عليها وأتمنى منها المزيد . وأقول ان هذا الحى اللاتينى
هو أقدس مكان في العالم الحديث وهو الرأس المفكر لهذا العالم ،
ولست أقول هذا عبثا ، ولا يدفعنى اليه الحب والاعجاب ، وإنما
هو الحق الذى لا يقبل شك ولا جدالا . وانى لأشعر بشيء من
المهابة والاحلال لا أستطيع وصفه كلما ذهبت الى هذه الرقعة من
الأرض التى يقوم فيها « البطيئون » وترتفع فيها كنيسة « سانت
جنيفيف » . أشعر بهذه المهابة وهذا الاحلال لأن هذه الرقعة
الصغيرة من الأرض كانت مصدر النور الذى انبعث في أوروبا
المظلمة أثناء القرون الوسطى قبل أن تظهر النهضة في ايطاليا . لأن
هذه الرقعة كانت مهد الفلسفة وماواها حين لم تكن فرنسا كلها

ولا أوروبا كلها إلا ميدانا تصطرع فيه المطامع والمنافع أقبح صراع
وأشنعه . كانت هذه الرقعة من باريس مصدر الحياة العقلية لأوروبا
كلها في القرون الوسطى . ولقد تغير الزمان ودأرت الأيام دوراتها
المختلفة وعبثت الخطوب والأهوال بالعالم الحديث ، وظل هذا
المكان من باريس مصدر الحياة العقلية للعالم كله أليست تقوم فيه
جامعة « السربون » ؟ أليست تقوم فيه « الكوليج دى فرانس » ؟
ولقد أحب أن أجد مهذا علميا في أوروبا أو أمريكا أقرنه الى
« السربون » و الى « الكوليج دى فرانس » وأحصى له من الآثار
في احياء العقل الانسانى وترقيته ما يقرب من آثار « السربون »
و « الكوليج دى فرانس » فيعيني البحث ويخطئني ما أريد .

ان فرنسا تستطيع أن تتعرض للآزمات المختلفة وأن تتجشم
من الأهوال ضروبا وصروفا ، وأن تنزل بها المحنة بعد المحنة والبلاء
بعد البلاء ، وان فرنسا تستطيع أن تبلغ من المجد ما تريد وما
لا تريد ، وأن تحرز من ألوان الظفر ما تحب وما لا تحب ، وان
فرنسا تستطيع أن تنزل من قلوب الناس منزلة البغض أو منزلة
الحب ، تستطيع فرنسا أن تفعل هذا كله وأن تتعرض لهذا كله
ولكنها واثقة بالخلود واثقة باكبار الناس إياها وتقديسهم لها ما بقى
فيها الحي اللاتيني ، وما قامت في هذا الحي « السربون »
و « الكوليج دى فرانس » .

باريس في ٩ سبتمبر سنة ١٩٢٤ .

في ملاهى باريس

لعم ! فقد لهوت وكانت رغبتى في اللهو من البواعث القوية
التي تحببت الى الذهاب الى باريس . ولم أخفى ذلك واكتفه ؟
وأنا أعلم والناس جميعا يعلمون أن المسافر الى باريس أو غيرها
من مدن أوروبا انما يتخذ اللهو غرضا من الأغراض الأساسية في
برنامج رحلته . وهل كان السفر نفيه الاضربا من اللهو وفنا من
فنون العبث يعمد اليه المتعبون ليستريحوا ويرغب فيه
المستريحون ليتعبوا ؟ وكنت متعبا . وكنت أريد أن أسترخ .
وكنت أرى الراحة في أن ألهم عن هذه الأشياء التي
قضيت فيها العام كله فأجهدتني ، وبغضت الى الحياة .
وكنت وما زلت أعتقد أن من الحق للناس على وأن من الحق لي
على نفسي أن أعود الى هذه الأشياء التي سئتها نفسي وسئمتني
وأن أستأنف هذا العمل الذي أجهدتني طوال العام الماضي حتى
بنفض الى الحياة . وكنت أعلم أنني لن أستطيع العودة الى هذه
الأشياء واستئناف هذا العمل الا اذا استرحمت ولهوت وأخذت من
الراحة واللهو بحظ عظيم . وقد فعلت ، وقد عدت الى مصر ، وقد

استأنفت هذا العمل الشاق ، فإذا هو حين لين لا عسر فيه
ولا مشقة . ولكنى أعلم أنه سيمسر وأنه سيشتق وأنى سأسأله وأنه
سيسامنى وأنى سأنصرف عنه وأنه سيزهد فى ، وأنى سأحتاج الى
الراحة واللهو وأنى سأستريح وألهو ثم أستأنف الجهد والعمل .
وكذلك حياتنا لتعب لنستريح ونستريح لتعب حتى يأتى هذا اليوم
الذى لا تعب بعده ولا راحة .

إذا فقد لهوت فى باريس ، لا أكنم ذلك ولا أخفيه . ولم أكنه
أو أخفيه وليس فيه والحمد لله مأثم ولا مدعاة الى لوم ؟ وإنما هو
ضحك برىء وبعث تطمئن اليه النفس الهادئة التى لاتعيب بها
الأهواء ولا تعصف بها الشهوات .

لهوت فى باريس واختلفت فيها الى أندية اللهو التى هى ذينة
تلك المدينة وبهجتها ولها فى رفع شأن باريس وتقديمها على غيرها
من مدن الأرض أثر قد لا يكون أقل من أثر « السربون »
و « الكوليج دى فرائس » والجامع العلمية المختلفة . ولم لا ؟
أليست جامعة باريس ومعاهدها العلمية ملجأ للعقل الانسانى أقوى
اليه ثمراته وتنتج بحته فى العلوم والفنون المختلفة ؟ وهل أندية
اللهو الباريسى البرىء الا ملاجئ للعقل الانسانى والشعور
الانسانى ؟ فيها تظهر ثمراتها الحلوة والمرّة وفيها يتعلم الانسان من
الانسان ، ويظهر الانسان على الانسان ، وفيها يتعلم الانسان كيف

يكون حيوانا اجتماعيا كما يقول أرسطو ليس أو مدنيا بالطبع كما يقول فلاسفة العرب .

لست أدري أيشعر المصريون المتعبون الذين يذهبون الى باريس بمثل ما كنت أشعر به هذا الصيف ، فقد كنت شديد الميل الى أفدية الهزل والضحك شديد الانصراف عن أفدية الجد والعوس . لم أكن أميل في هذا الصيف الى بيت مولير ولا الى ما يمثل فيه من جد . بل لم أكن أميل بوجه بها الى التراجيديا انما كان ميلي كله الى الكوميديا من جهة والى الموسيقى من جهة أخرى . ولقد حاولت أن أثبت في نفسي أسباب هذا الميل الى ما يضحك ويلهى والانصراف عما يحزن ويعط فلم أوفق الا الى سبب واحد لا أدري أخطأ هو أم صواب ؟ ذلك أننا « مفلطمون » في مصر كنا يقول الفرنسيون من اللهو الصريح البريء ومن الضحك الذي يريح النفس حقا ويجلو عن القلب أصداء الحياة العاملة . وهذه الحياة العاملة نفسها كثية في مصر منذ سنين ، وقد أثقلتها الهموم وأفعتها الأحزان ، فنحن مشفقون على منافعنا العامة نخشى أن يعث بها الخصوم في الخارج أو أن يضيعها المواطنون في الداخل . ونحن مشفقون على منافعنا الخاصة نخشى أن تعث بها الخصومات الحزبية وتأتى عليها العواصف السياسية . نحن قلقون لا نطمح الى شيء ولا نثق بشيء ولا لبسهم شيء . فليس عجيبا اذا خلصنا

من هذا الجوع القلق المضطرب أن تنهالك على هذه الأشياء التي
حرمتها في مصر وحال بيننا وبينها طبعنا من جهة واضطرابنا
السياسي والاجتماعي من جهة أخرى .

نعم ! فطبعنا لا يخلو من ظلمة ، ومزاجنا أقرب الى المروءة
والحزن منه الى الدعابة والابتسام .

نحن لا نلهم لأننا لا نعرف اللهو ولأن في طبعنا نفورا من
اللهو ، ولست أدري أمخطيء أنا أم مصيب في هذه الملاحظة وهي
أننا كنا بعد الثورة الوطنية الأخيرة قد أخذنا نتعلم اللهو بل لسرف
فيه ، فكثرت الأغاني الفكاهية ذائعة عامة ، وكان التشيل الفكاهي
راقعا ، منتشرًا ، وكنت لا تكاد تمضي في الشوارع العامة الا
سمعت الأطفال والشبان من العمال ومن اليهم يتغنون أغاني
« كشكش » وكنت لا تكاد تر بين الدور في الأحياء الراقية اذا
أقبل المساء أو جن الليل الا سمعت البيانو يوقع الحان كشكش ،
وربما وقفت لاستماع صوت رخيم عذب يتغنى مع هذا الايقاع .
وكان أصحاب الأخلاق وأهل الحرص على الآداب العامة ينكرون
هذا الفساد ويشفقون منه . وكنا نقول ان هذا الانحلال الخلقي
عرض من أعراض الثورة ، وكنا نستبشر به لأن الثورة الفرنسية
قد استتبعته مثله ، فكان الفرنسيون يجاهدون أعداءهم الداخليين
والخارجيين ، وكانوا يحتلمون آلام الجوع والفاقة ولكنهم كانوا

يلهون ويسرفون في اللهو . وربما كانوا يستمعون باللهو على ما
كافوا يأتون من جلائل الأعمال ويحتملون من أثقال الحياة .

كنا كذلك ، وأظن أن السلطة العامة احتاجت في بعض الأحيان
الى أن تدخل في الأمر وتكفكف من غلواء المسرفين فأقفلت أو
حاولت تقفل بعض المراقص . أما الآن فأحسب أن هذا قد تغير
وأنا قد انصرفنا عن اللهو انصرافا واضحا .

انصرفنا عن اللهو دون أن يعظم حقنا من الجدي ، فليست حياتنا
العامة والخاصة أكثر إنتاجا وأشد خصبا الآن منها حين كنا للهو
ونعيب . ولعلنا لا أغلو في الخطأ إذا لاحظت أن حياتنا الدستورية
هي التي صرفتنا عما كنا فيه من للهو ، وأزالت عن شفافنا هذا
الابتهام للحياة . ذلك لأننا اعتقدنا يوم نفذ الدستور وأشرف
البرلمان على الحكم أن الأمر قد رد إلى أهله ، وأنا مقبلون على
ساعات الجد والعمل فانتظرنا وما زلنا ننتظر .

ولم لا نقول كلمة الحق ؟ كانت الوزارات التي أشرفت على
الحكم قبل الدستور قليلة الحظ من ثقة الجماهير ، فلم يكن الناس
يحفلون بها ، ولا ينتظرون منها خيرا بل كانوا يسيئون بها الظن
ويتخذونها موضعا للعبث والنقد . وكأنت أعمالها وقراراتها تهم
الممثلين الهازلين والمنعنين المباشين . وكان الناس يرتاحون الى

القصك منها واتخاذها سخرية وهزوا . أما الآن فقد أشرف على الحكم رجال كانت تحبهم الجماهير وتفتن بهم ، فلم يكن من الميسور أن تتخذهم الجماهير موضوعا للهو والعبث . وإذا لم تعبت الجماهير بحكامها ولم تسخر من وزرائها ونوابها فهي مضطرة الى الحزن والكآبة .

سلنى عما يميز الديمقراطية حقا ، أجبك بأن النظام الديمقراطى الصحيح هو الذى يتيح للجماهير أن تلهو على حساب حكوماتها بل على حساب أبطالها . فإذا أردت دليلا ناطقا بصدق هذا التعريف فاذهب الى باريس واختلف الى أندية اللهو فيها واسمع الى ما يقال عن « هريو » و « دومرج » وعن « بوانكاريه » و « ملران » وافطر الى هذه الجماهير الفرنسية المختلفة تنهالك ضعكا من وزرائها ورؤساء جمهوريتها ، أستغفر الله بل من علمائها وكتابها . ومهما أنس فلن أنسى أغنيتين سمعتهما فى باريس ورأيت ابتهاج الجماهير لهما . فى احدهما مقارنة بين أمعاء المسيو هريو رئيس الوزارة الفرنسية القائمة وأمعاء المسيو بوانكاريه رئيس الوزارة الفرنسية المستقيلة ، وفى الأخرى عبث بالمسيو هريو حين يعمد الى التليفون .

ولكنى قد بعدت أشد البعد عما كنت أريد أن أتحدث اليك فيه ، وهو ملاهى باريس وقد يحسن أن أعود الى هذا الحديث .

لم أكن حسن الحظ هذا الصيف ، وما أظن أن غيرى كان أحسن حظا منى . فقد وصلنا الى باريس أيام الراحة حين يتفرق عنها الممثلون النابهون ليجوبوا أقطار الأرض الفرنسية والأجنبية ويعرضوا فنهم على المصطافين في سواحل البحر ومدن المياه ، وحين يستريح الكتاب استعدادا لفصل الشتاء اذ يعرضون آثارهم الجديدة على الجمهور الباريسى وقد عاد من مصايفه الى باريس ، وحين تجتهد الملاعب التمثيلية في أن تستغل ما لديها من قصص الفصل الماضى لتلهم بها المائحين الذين يبرون بباريس . ومع ذلك فقد لهُوت حقا وضحكت كثيرا .

ولقد يكون من العسير أن أذكر دون أن أضحك قصة شهدتها في ملعب « الباليه رويال » عنوانها « قبلنى » كان الممثلون يمثلونها للبرائات الأخيرة ويستعدون لتمثيل قصة أخرى ظهرت أول هذا الشهر ومع ذلك فقد كان الملعب مكتظا بالنظارة . والغريب من أمر باريس أنك تستطيع أن تزورها في أى فصل من فصول السنة وأن تختلف الى ملاعبها وأنديتها وبيوتها التجارية ، فتجدها دائما مكتظة بالناس وستضطر دائما الى أن تتخذ الحيلة لتبلغ منها ما تريد .

تريد أن تشهد قصة تمثيلية فيجب أن تؤجر كرسيك في الملعب قبل يوم التمثيل . تريد أن تشتري شيئا في أحد البيوت التجارية

الكبرى فيجب أن تذهب في الصباح أو أن تكون صبوراً محتملاً
إن ذهبت في المساء .

ذهبت إلى الملعب بعد ظهر يوم من أيام الآحاد الباريسية ،
ولم أكن قد احتظت وكان المطر غثيفاً ثقيلاً فلم أجد إلا كراسي
فاحشة الغلاء فاتخذت منها كرسيين ، وأعترف بأنني لم أسف على
ما أنفقت لأنني ضحكنا بأكثر من ستين فرنكاً !!

أسرة شريفة كانت غنية ثم أصابها الفقر ، تقيم في قصرها
المرهون محتضنة الوانا من الضيق ، ثم تصبح ذات يوم وإذا القصر
قد بيع من أجنبي ، وإذا هي مضطرة إلى أن تترك هذا القصر الذي
تتوارثه منذ خمسة قرون . ولكن لهذه الأسرة شاباً سرفافاً في اللعب
والعبث قد أدى واجبه الوطني أثناء الحرب وعرف في الخندق
صديقاً من الطبقات المنحطة أمه تباع الفاكهة ، وقد انقضت الحرب
واغتنى ابن بالعة الفاكهة حتى أصبح ضخم الثروة فكتب إليه
صديقه الشريف يقترض منه مالا لأله خسر في اللعب ، وأقبل هذا
الصديق يحصل إلى صديقه ما أراد . فأنظر إلى هذه الأسرة النبيلة
تأبى أن تقبله في القصر ، وأن تضيفه أياماً حتى إذا قبلت ذلك بعد
مشقة أخذت تتبرم بالفتى وتزدريه . لأنه لا يعرف طرائق الحياة
الأرستقراطية . وكانت عمة الشاب النبيل أشد الأسرة بغضاً له
وتبرماً به ، لا تمكاد تلحظه ولا تكاد تحسب لوجوده حساباً . ولكن

الفتى علم ببؤس هذه الأسرة واضطرابها الى أن تترك القصر
فأسرع فاشترى سرا ثم أخذت الأسرة تظهر شيئا فشيئا على هذا
السر حتى علمت به ، وإذا هي العوبة في يد هذا الشاب الذى
تزدريه ولا تضيفه الا كارهة . ولكن هذا الشاب كريم خير ، فهو
يعرض القصر على الأسرة ولا يبتغى له إلا ثمنًا ضئيلا هو أن
« يقبل » هذه المرأة التى تزدريه وتغلو في بغضه ، فإذا عرض عليهم
هذه الصفقة اضطربوا لها اضطرابا شديدا ، فأما الأسرة كلها
فقبلت ، وأما هذه المرأة فتأبى وتنفر ثم تذكر أنها قد تطرد من
القصر وأن الأسرة قد تصبح مشردة ، فتضطر الى القبول مقتنعة
بأنها تقدم نفسها ضحية في سبيل الاحتفاظ بالكرامة والثرث
القديم . وقد استعدت لهذه التضحية كما استعدت « ايفيجينى »
لتضحي على مذبح أرتميس . ثم خلت الى الفتى فوقفت موقف
الجلال وقالت له فى ازدراء وسخرية واذعان للقضاء المحتوم
« قبلنى » ولكن الفتى كريم ، فهو لا يريد أن يقبل هذه المرأة ،
وإنما يكفيه أنها قد أذعن لما يريد وهو مستعد لأن ينزل للأسرة
عن هذا القصر ، ولكن المرأة قد دهشت لهذا الإنصراف عن تقييلها ،
وكانها تعجب بكرم هذا الفتى ، وكانها فى الوقت نفسه تسخط على
هذا الكرم وكانها كانت تحرص على هذه القيلة دون أن تعلم بهذا
الحرص ، وكانها ترى عدول الفتى عن تقييلها اهانة لها واضطرابا

لجمالها . تشعر بهذا كله شعورا واضحا غامضا في وقت واحد .
وكنْتَ ترى الفتى يكره هذه المرأة ويريد أن يذلها ، ولكنك
تراه الآن لا يكرهها بل يكرها ولا يريد أن يذلها بل يريد أن
يجلها ، وإذا هو يعلن اليها حبه في هذه اللغة الشعبية العليظة
الصريحة ، وإذا هي تضطرب لهذا الحب اضطرابا غنيا ، وإذا
الحب قد أزال ما كان بينهما من مسافة مادية ومعنوية ، وإذا هو
يتجاوز القبلة ، فإذا كان الصبح فهي آسفة نادمة تنقطع لوعة
ونداما لأنها اقترفت هذا الاثم مع رجل ليس من طبقتها ، وهي تعلم
أن نساء من أسرتها قد اقترفن هذه الخطيئة ولكن احداهن اقترفتها
مع رجل من رجال القصر الملكي والأخرى مع كردنال ، أما هي
فقد اقترفتها مع رجل أنه كانت تبيع الفاكهة . وهي تريد أن تأخذ
نفسها بأشد أنواع العقوبة تريد أن تزهد في الحياة وأن تذهب إلى
الدير والفتى بين يديها يعتذر ويستغفر ويعلن اليها في ضراعة ومذلة
أنه سيجز القصر حتى لا ترى وجهه البغيض ، فإذا سمعت هذه
الجملة قضيت غضبا لا حد له وعنت الفتى تعنيفا ثقيلا قائلة :
أهكذا تريد أن تسليني عن هذه النكبة المنكرة ؟ ثم فهمنا أنها تريد
لوعا آخر من أنواع التسلية وفنا آخر من فنون النسيان
والغراء ... ١١

ولست أتم لك تلخيص القصة ، وإنما يكفي أن تعلم أنها

تنتهى بالزواج بين هذين المحبين لأن شريفا انجليزيا تبني الفتى
ومنحه القاب شرفه فأصبح كقنا العشيقته .

ولم تبني الشريف الانكليزي هذا الفتى ؟ لا تسل عن ذلك .
فقد يكون في الجواب على هذا السؤال ما يفضح أم هذا الفتى
وقد ماتت . ولا ينبغي أن يذكر الموتى الا بخير .

على ألى قد زرت ملاعب أخرى وشهدت فيها قصصا أخرى
وسأحدث عنها في فصل آخر .

زوج ألين

كنت أريد أن أضحك حين ذهبت الى ملعب ميشيل لأشهد تمثيل هذه القصة « زوج ألين » وكنت واثقا بأننى سأضحك وسأضحك كثيرا ، لأن العنوان فى نفسه مضحك ولأن القصة كانت تمثل لأول مرة ، فلم يكن النقاد قد كتبوا عنها بعد ، ولأن أسماء الممثلين الذين اشتركوا فى تمثيلها كانت تدل على طائفة من الذين مهرؤا فى الفن المضحك ، فأسرعت الى الملعب مبتهجا ، وكأنى كنت أضحك مقدما ، وكذلك شأن الناس فى باريس يذوقون مقدما ما يتغنون من لذة لأنهم يعلمون أن هذه اللذة ستكون قوية حادة ، وأنهم سيظفرون منها بأكثر مما يتغنون .

ذهبت الى الملعب ضاحكين ، ولم يكدر رفع الستار حتى أغرقنا فى الضحك ولكن ما هى الا دقائق حتى استحال هذا الضحك الى حزن وعيوس ، وحتى أحسنا فى أنفسنا شعورا غريبا ليس من اليسير تفسيره لأنه شئ ليس بالسرور الخالص ولا بالحزن الخالص أو قل اله شئ أبلغ أثرا فى النفس من الحزن الخالص ، ولكنه

يكرهك مع ذلك على الابتسام ، وربما أكرهك على الضحك
والاغراق فيه ، تبسم وأنت عابس وتضحك وأنت محزون .

ذلك لأن المثل يعرض عليك من لحصال الانسان ما يضحكك
مظهره أردت أم لم ترد ، وما يحزنك مخبره رضيت أم لم ترض .
لا يكاد يرفع الستار حتى ترى امرأة متقدمة في السن أقرب
الى الشيخوخة منها الى التوسط في العمر ، لباسها ملائم لسنها
وملائم لمصدرها ولطبقتها الاجتماعية ، فلا تكاد تسمع حديثها
حتى تحس أنها ليست من باريس ، وانما وفدت من الأقاليم ،
وحتى تفهم أنها من هذه الطبقة الغامضة التى لا تبلغ أوساط الناس
ولا تريد أن تنحط الى سفلتهم . قدميات عنها زوجها وترك لها ابنة
هى « ألين » وهى بارعة الجمال رشيقة القد ، عذبة الصوت ، وقد
ضاعت الحياة بها وبابنتها ، فلجأتا الى باريس ، وآواها رجل
موسيقى بارع فى فنه ، ولكنه سىء الحظ بهذا الفن ، لا يكسب
حياته إلا بمشقة ، أحب الفتاة فأواها وآوى أمها وأصبح أستاذها
وعشيقها والقيم على حياتها . وقد مهرت الفتاة فى الغناء كما مهرت
فى الرقص وتقدمت الى أحد الملاعب الباريسية ، فقبلت فيه مغنية
راقصة ، وهى تبدأ عملها هذه الليلة وأمها تنتظرها متأثرة ، مضطربة
فرحة ، مشفقة تقدر الفوز وتريد أن تحتفل به ، فهى تعد مائدة
عليها من الطعام والشراب هذه الألوان التى لا يرضاها الموسرون .

ولا يظهر بها المعسرون الا بعد الجهد والعناء ، وهى تتحدث بكل ما فى نفسها الى خادم لها حديثة السن ، خفيفة الحركة ، مسرعة فى القول ، فلا تكاد تسمع حوارهما حتى يأخذك الضحك فتغرق فيه حين ترى هذه المرأة التى تكاد تكون شبيخة تتحدث فى لهجة الجدة الى هذه الفتاة التى تكاد تكون طفلة !! وهما فى هذا الحديث الذى تريانه جدا ونضحك نحن منه ، اذ يدخل الموسيقى فرحا ، قد ملأه الفرح اضطرابا ، فهو يبكى ولكن بكاءه نفسه مضحك ، وهو يعلن الى الأم فوز ابنتها ويحاول أن يمثل لها هذا الفوز ، فيجتهد فى تقليد الفتاة حين غنت بعض المقطوعات التى أعجب بها الجمهور ، والأم سعيدة مضطربة ، ولكنها مع ذلك ليست راضية لأنها تكره الملاحى وكانت تود لو استطاعت أن تجد عنها مهنرفا لابنتها ، أما الموسيقى فسعيد بهذا الفوز ولكنه مشفق منه ، مشفق لأنه يخشى أن تنصرف الفتاة عنه الى هؤلاء النظارة الأغنياء الذين سيرونها فى الملهى وسيتملقونها .

تحس منه ذلك ، وتحس أيضا أنه يحاول كتمان هذا الخوف ، وقد أقبلت الفتاة فرحة ، مبتهجة ، متأثرة ، فهى تقبل أمها وتضم عاشقها وتشكره ، ولكن لن ينأى هؤلاء الناس أن يحتفلوا بهذا الفوز فيما بينهم فقد أقبل مدير الملهى وأعوانه ورجل غنى من زعماء الصناعة يهتفون الفتاة بهذا الفوز ويدعونها الى أن تنفق

مهم شطرا من الليل في حانة من هذه الحانات التي يفسد اليها
الباريسيون اذا خرجوا من الملاعب فياكلون ويشربون ويعبثون ،
ولحن نحس أنهم عرضوا ذلك على الفتاة فقبلت قبل أن تعود الى
أهلها ، ولكنها تظهر التردد الآن ، لأنها لا تريد أن تترك صاحبها .
فما أسرع ما يدعو القوم صاحبها الى الذهاب معهم فيعتذر ويلحون
وتظهر هي الرغبة فيقبل كارها ، وينصرفون على أن يرسلوا اليها
السيارة بعد حين . فاذا خلا العاشقان رأينا هذه الأشياء التي تطير
القلوب سرورا وتقطعها حزنا . رأينا هذا الموسيقى يريد أن يلبس
زى السر ، فاذا ثيابه وأدواته من الرداءة والبلى بحيث يخلط
ذلك ويؤذيه . ولكنه مبسم يجتهد في أن يكون حسن الزينة ،
واذا هو يفتقد أزراره ، فاذا وجد منها واحدا أخطأه الآخر ،
وصاحبه تزين ، وقد أعارها الملب ثوب الرقص فهي فيه خلافة
بأرعة . ولكن كثيرا من أدوات الزينة ينقصها وهي تشكو ذلك
مفتاة ، فاذا أحست من صاحبها الألم ابتست وتكلفت تهوين
الأمر عليه ، وصاحبها يعدها بمضاعفة العمل ليكسب لها ما تحتاج
اليه ، وقد أقبلت السيارة فانظر الى الأم مبتهجة ، مفتونة بجمال
ابنتها ، وانظر اليها تتبع ابنتها وقد أخذت بفصل ثوبها حتى
لا يصيبه غبار السلم ، وانظر الى الخادم العفلة تسبقهم جميعا وفي
يدها الشمعة تضيء السلم وانظر الى العاشق ممزولا يتكلف
الابتهاج ، وبائسا يتكلف النعيم .

فإذا كان الفصل الثانى فقد تغير هذا كله ، وسئرى قوما
تشكرهم لأن النعمة ألت بهم فأزالت كل ما رأيت فى الفصل الماضى
من مظاهر البؤس . ذلك لأن « ألين » قد اشتهر أمرها وظهر لبوغها ،
فابتسست لها الثروة وأصبحت لا تشكو عنرا ولا ضيقا ، وظهرت
آثار ذلك حولها فأما أمها فليست شيخة ولا كالشيخة ، وإنما هى
امراة وسط فيها قوة وشباب ، تلبس على آخر طراز ، وتزدان على
آخر طراز ، وقد تغيرت لهجتها فهى باريسية ، وتغير صوتها فهو
رخيم ، وتغيرت حركاتها فهى رشيقة متازة . وأما الموسيقى فقد
أصبح شابا قويا بادى الظرف حسن الزينة رائم المنظر وقد اقترن
بصاحبه . وكذلك الخادم تغيرت وامتازت . والغريب أنها ليست
وحدها فى البيت بل يشاركها غلام عليه العناية بفرف الاستقبال
وما إليها . ولنا فى باريس ولا فى ذلك البيت الذى يضاء بالشمع
ويخشى غباره على فضل الثياب وإنما نحن فى بيت أتيق فخم فى
مصطاف على ساحل البحر يجمع أرقى الطبقات وأغناها إذا أقبل
الصيف من كل عام . ونحن نرى مدير الملعب وصاحبه وأعوانه
وذلك الرجل الغنى يترددون على « ألين » فيلعبون ويصنفون ،
ونحن نرى زوج « ألين » سعيدا معتبطا ينىء صديقه بأن الله قد
أذن له أن يكون غنيا ، وأنه يضع قصة موسيقية ستنال الجائزة من
غير شك ، وأنه سيكون ناقدًا موسيقيا لصحيفة كبرى ، وأن كل

شيء في الحياة يسبب له . ولكن انظر الى القوم قد أقبلوا ، وانظر الى الموسيقي قد خرج مع صديقه في بعض شأنه ، وانظر الى « ألين » قد دخلت الى الرجل الغني بينما يجلس الآخرون أمام غرفة الاستقبال يرقبون عودة الزوج وكأنهم يلعبون ، واسمع الى هذا الحديث يقع بين « ألين » وبين صاحبها الغني . فاذا هما عاشقان واذا هي تخون زوجها ، واذا هذه الخيانة مصدر ما ترى من نعيم ، ولكن هذا الرجل ضيق الصدر بهذا الزوج الغني .

ضيق الصدر لأنه يريد أن يستأثر بصاحبه وهذا الزوج الغني يحول بينه وبين ذلك .

وفي الحق أغبى هذا الزوج حقاً أم هو متغاب ؟ أليس يتكلف الغفلة ليستمتع بنعيم الحياة ؟

ذلك شيء يفترضه الغني وتأباه « ألين » وهما في الحديث والعبت اذ يسمعان صياح أصحابهما الذين يلعبون « لقد أقبل فلان ! لقد أقبل فلان ! » .

تنبها ، فانفصلا . ودخل الموسيقي وانصرف القوم ، وأخذ الزوجان يتحدثان ، فاذا الرجل محزون بائس ، واذا امرأته اللعوب تسأله عن مصدر هذا الحزن فيتردد ثم يجيبها بأنه سمع الناس يذكرونه فيقولون « زوج ألين » ولا يسمونه باسمه ، وبأنه رأهم يشيرون اليه ويتسمون ، فهو اذن يشك . وهي تدافعه عن هذا

الشك بما أوتيت من حيلة ودل ودعابة . وانظر اليه قد أخذ حقيبته
امراته ونظر فيها فاذا مقدار ضخم من المال فلا يزداد الا شكاً .
والنظر اليه يذكر أن امراته لعبت الميسر أمس وخسرت كثيراً ولم
تنبئه بشيء وانما سمع بذلك عفواً ، فهو لا يزداد الا شكاً . وانظر
اليه قد استكشف عند امراته عقداً من الجواهر لا علم له به
فلا يزداد الا شكاً . ولكنها ماهرة وهو عاشق فتستطيع أن تخدعه
عن أمرها وأن تستنيله اليها وأن تخلبه بما تبذل من لذة ، وهو
أغبي من غلامه الذي يفهم كل شيء ويتحدث الى زميلته الخادم
بكل شيء .

فاذا كان الفصل الثالث تحدث الموسيقى الى صديقه وقد
استيقن كل شيء ، وأصبح لا يشك في خيانة امراته .

ذلك أن القوم اعتزموا الخروج للنزهة وتخلف هو عنهم متكلفاً
العمل ثم تبهمهم وهم لا يعلمون فلم ير فيهم زوجه ، ولم ير فيهم
ذلك الرجل الغني ، واذن فقد كذبت عليه امراته حين زعمت أنها
خارجة للنزهة وأنفقت يومها مع صاحبها . ونحن نعلم ذلك لأننا
سمعناه في الفصل الثاني . وانظر الى هذا الموسيقى متألماً محزوناً
ولكنه متجلد صبور ، يعلن الى صديقه أنه سترك هذه الحياة
كلها وسيعود الى حياته الأولى ؛ حياة البؤس والشرف والكرامة ،
ولكنه يريد أن يلهو قبل هذه المودة ، والله للهو اليم .

أقبل القوم جميعا من نزهتهم وفيهم « ألين » وفيهم الرجل
الفنى ، وكلهم يقص ما رآه ويصف جمال النزهة والموسيقى مبتهج
يتحدث اليهم جميعا حديث من لا يشك فى شيء وأنت ترى من
القوم جميعا أنهم يسفحرون منه ، ويرون فيه الغفلة ، وقد هموا
بالانصراف ليلتقوا بعد حين الى مائدة العشاء فى الحانة . وإذا
الموسيقى يسك الرجل الفنى ليقى معه حيناً ، فإذا انصرف القوم
وخلأ الزوجان الى هذا الرجل الفنى بدأت طائفة من المواقف
المؤثرة التى تملؤك عطفاً على الزوج وسخفاً على امرأته واعجاباً
بالكاتب والممثلين . انظر الى هذا الزوج الموتور يريد أن ينتقم
لنفسه ولكرامته ، ولكنه لا يريد أن يكون سخيفاً ، ولا ضحكة ،
ولا مجرماً ، فهو لا يريد العنف ولا سفك الدم ، وإنما يريد أن
يكون مترففاً فى انتقامه . انظر اليه يعذب الخائنين عذاباً أليماً لأن
موضعه الضمير . يستثير غيرة الرجل الفنى بما يبدئ من التلطف
لامراته ، وبما يتكلف من مداعبتها وقد ضمها اليه . ثم أجلسها
على حجره ، وأخذ يداعبها هذه المداعبة المشروعة بين الزوجين ،
والتي لا تكون الا فى الخلوة ، والرجل ينظر ويتألم دون أن يستطيع
اعتراضاً أو احتجاجاً ، والمرأة خجلة ذليلة بين هذين الرجلين اللذين
يتقسانها وهى تتكلف الحياء لتخلص من هذا الموقف الأليم ولكن
الزوج لا يحفل بحياتها ولا بألمها . وهو الآن ينتقل من المداعبة

الى الحديث ، فيقص على صاحبه أسرار الزوجية وما تمنحه امراته من لذة اذا خلّت اليه حتى اذا قضى وطره من تعذيب الفخائين . واذلالهما أطلق امرأته فذهبت لتصلح من شأنها قبل العشاء ، وخلا هو الى الخائن ، وهنا موقف ليس أقل من الموقف الذى سبقه جمالا وتأثيرا . هذا الزوج يتحدث الى عاشق امرأته ، فما همى الا أن يعلن اليه أنه يعلم كل شيء ، فاذا وجم الرجل وسأله عما يريد وانتظر الكارثة ، أعلن الزوج اليه أنه لا يريد شيئا وأنه راض بهذه الحال واذا الرجل الخائن شديد الأزدراء لهذا الزوج الذى لا يجرى الدم فى عروقه والذى يرضى أن تكون امرأته شركا بينه وبين غيره . يريد أن ينصرف فيسكه الزوج ، اذ ليس بد من الاتفاق على أشياء وتدير مصالح لا بد من تديرها . هما شريكان فى المرأة وقد يمكن أن يكونا غدا شريكين فى طفل تلده هذه المرأة . وما يزال هذا الزوج يرقى فى تمثيل الضعة والمهالة والخيانة والاثم حتى يكشف عن أخس ما فى النفس الانسانية من عاطفة . انه يلهو ، وهو يلهو بازدياء الانسان ، فاذا بلغ من ذلك ما يريد أطلق الرجل ، وقد اتفق معه على أن يأتى بعد حين ليحمل هذه المرأة فى سيارته الى حيث يريد . ثم تقبل المرأة فيلقاها زوجها مبتسما ، وتأخذ فى عتابه على ما أباح من أسرار الزوجية ، فما يزال بها حتى يعلن اليها أنه عالم بكل شيء ، وراض عن كل شيء ، وقابل لهذه الشركة التى تضمن

لهما الثروة والنعيم . وإذا المرأة تزدرى زوجها حقاً وتخشعه احتقاراً
لأحده ، وإذا هى تتألم حقاً لأنها كانت تريد أن يحبها زوجها ،
وأن يكون شديد الغيرة عليها ، فإذا هى ترى نفسها متاعاً يتقاسمه
رجالاً . ولكن الزوج قد أطل الصبر والتكلف وغلا فى كظم
عواطفه ، فهو لا يستطيع الآن صبرا ، وانظر اليه وقد انفجر كما
ينفجر البركان . فهو ثائر فائر لا يكاد يملك نفسه ، ولا يكاد
يمسكها عن اغتيال هذه المرأة ، وقد ظهر حبه قويا غنيا ، وظهرت
غيرته ، وكلها روع وهول وهو يصيح بأمراته « أترين فى ما يدللك
على أئنى قواد ؟ » والمرأة وجلة مضطربة ولكنها سعيذة مفتبطة
لأنها تشهد الحب والغيرة ، ولأن زوجها لا ينظر اليها نظره الى
المتاع ، وهى تريد أن تستغفر ، وتريد أن تتوب ، ولكن الزوج
يحاول طردها ، ثم يبدو له فيطرد نفسه : وقد أنبأها أن صاحبها
سيأتى بعد حين ليحملها فى سيارته ، وقد انصرف وتركها نعمة ،
بأئسة تلتحب وتصبح ، ولكن السيارة قد أقبلت ، وهى تدعو
بالباب ، فانظر الى هذه المرأة قد نهضت متثاقلة الى المرأة فأصاحت
من شعرها ووجهها وخرجت فى هدوء تجيب داعى اللهو والثروة
والنعيم .

الناس معنيون في هذه الأيام عندنا بالخصومة بين العلم والدين . وقد بدأت عنايتهم بهذه الخصومة تشتد منذ السنة الماضية ، حين ظهر كتاب « الاسلام وأصول الحكم » فنهض له رجال الدين ينكرونه ويكفرون صاحبه ، ويستمدون عليه السلطان السياسى . وزادت هذه العناية شدة حين ظهر في هذه السنة كتاب « فى الشعر الجاهلى » فنهض له رجال الدين أيضا ينكرونه ، ويكفرون صاحبه ، ويستمدون عليه السلطان السياسى .
والحق أن هذه الخصومة بين العلم والدين — كما قلستوفى غير هذا الموضع — قديمة يرجع عهدا الى أول الحياة العقلية الفلسفية ، والحق أيضا أن هذه الخصومة بين العلم والدين ستظل قوية متصلة ما قام العلم وما قام الدين لأن الخلاف بينهما كما سترى أساسى جوهرى لا سبيل الى ازالته ولا الى تخفيفه الا اذا استطاع كل واحد منهما أن ينسى صاحبه نسيانا تاما ويعرض عنه اعراضا مطلقا . وقد نعرض بمد قليل لهذا الموضوع فى شئ من التفصيل والاسهاب . ولكن الذى نحب أن نلاحظه منذ الآن هو أن التفكير فى هذه الخصومة بين العلم والدين قد حمل بعض المفكرين على أن

يلتمسوا لها أسباباً قريية أو بعيدة ، وعلى أن يسألوا أنفسهم أين
الى ازالتهما من سبيل ؟ وقد نشأ عن هذا التفكير نوع من الفلسفة
قيم كثرت فيه الكتب والمباحث . ولسنا نريد أن نعرض له الا من
ناحية واحدة وهى الناحية التى تتصل بالسياسة وتحملها على أن
تنتصر للعلم مرة وللدين مرة أخرى ، وعلى أن تعتر حينا بهذا
وحينا بذلك . واذا عرضنا لهذا الموضوع فلننا نريد الا شيئا
واحدا هو تحقيق التوازن بين هذه المؤثرات الثلاثة في حياة الأفراد
والجماعات وهى العلم والسياسة والدين .

الحق أن الخصومة لم تكن تنشأ بين العلم والدين أو بين
العقل والدين حتى دخلت فيها السياسة فأفسدتها وانصرفت بها عن
وجهها المعقول الى وجه آخر ، لم يغفل من الاثم بل من الاجرام .

أول خصومة ظاهرة بين العقل والدين هى هذه التى نشأت
في آخر القرن الخامس قبل المسيح حين أخذ سقراط يطوف في
شوارع أثينا ومعه حواراه وفلسفته يقف بها حينا عند هذا الحداء ،
وحينا آخر عند الحمام ، ومرة في أحد الميادين العامة ، ومرة أخرى
في نادى الألعاب الرياضية ، ويدعو اليه الشبان والكهول والشيوخ
أحيانا فيحاورهم في الحق والعدل والواجب والقصد وما الى ذلك
من هذه المسائل التى كانت تشغل الشعب الأثيني في ذلك الوقت .

لم يكن سقراط يتخذ عداوة الدين مذهبا ، ولا الخروج عليه غاية
لفلسفته أو خواره ، بل نستطيع أن نقول انه كان من أشد معاصريه
محافظا واعتدالا ، فهو لما كان يخاصم السوفسطائية ، ويريد أن
يهدم مذاهبهم في الشك ، وأن يرد الى العقل سلطانه ، ويبين أن
حقائق الأشياء ثابتة ، ولكنه كان يعاور على طريقة السوفسطائية ،
وكان يتخذ الشك سبيلا الى اليقين ولم يكن يكره أن يضع كل
شيء موضع البحث ، وأن يعرض كل شيء للشك حيناً وللانكار
حيناً آخر ، فلم يسلم الدين ولا غيره مما كانت تحتفظ به الجماعة
الأتينية من خطر هذا الشك والانكار . ولم يسلم الدين من خطر
هذا الشك ، ولم يسلم منه النظام السياسى الأتيني أيضا ، فقد
كان سقراط يعاور في كل شيء ويمرض — كما قلنا — كل شيء
للشك والانكار . وكان الشعب الأتيني في آخر القرن الخامس
قبل المسيح حريصا مسرفا في الحرص على نظامه الديموقراطى
الذى ائتمر به الأرستقراطيون غير مرة فعرضوه للخطر وأزالوه
حيناً ما . فلم يكن من الغريب أن يكره الشعب الأتيني كل فلسفة
تمس هذا النظام الديموقراطى ، أو تعرضه للشك ، أو لتصرف
عنه الشهاب قليلا أو كثيرا . ولم تكن الديموقراطية الأتينية قد
وصلت الى ما وصلت اليه بعض الديموقراطيات الحديثة من الفصل
بين الدولة والدين ، وإنما كانت تقيم السيادة على الدين وترى
الدين أصلا من أصول وجودها ، وأساسا من أسس حياتها ،

وفصلا من فصول نظامها السياسى . فكأنت فلسفة سقراط أمام الديمقراطية. الأتينية آئمة من وجهين : آئمة لأنها تعرض النظام نفسه للخطر ، وآئمة لأنها تفرض الدين للخطر . ومن هنا لم يكد خصوم سقراط يقفونه موقف القضاء من الشعب حتى ظهر تدخل السياسة فى الخصومة بين العقل والدين ، وكان موقف سقراط من قضائه أثناء الدفاع وبعد الحكم محققا ، يثير السخط ويدعو الى القسوة . فقسا القضاء وأئمت السياسة حين قضت بالمرت على أبى الفلسفة .

ومن ذلك الوقت أصبحت الخصومة بين العقل والدين ، أو قل بين العلم والدين أمرا لا مندوحة عنه : يخاف الدين كل فلسفة وكل علم ، ويرتاب العلم بكل دين . ومن ذلك الوقت تحدد موقف السياسة بين هذين الخصمين ، وظهر أنه لن يكون موقف اصلاح بينهما ، وإنما هو موقف افساد واحراج واثارة للحفيظة والحقد .

لم يقف سخط السياسة الأتينية على الفلسفة عند القضاء على سقراط وانفاذا هذا القضاء فيه ، وإنما تجاوزته الى اضطهاد تلاميذه والشك فيهم ، فتفرقوا فى الأرض واستغخت الفلسفة من آتينا حين فلما عادت اليها وسعتها ، ولكن مع شيء كثير جدا من التحفظ والارتياب ، فما اطمأنت الديمقراطية الأتينية يوما الى أفلاطون ولا رضيت على ارسطاليس ، والناس جميعا يعلمون أن المعلم الأول كاد يقف من القضاء موقف سقراط لولا أن هرب من آتينا .

ليست الخصومة بين العلم والدين اذن مقصورة على ما نعرف من الخصومة بين الديانات السماوية والعلم والفلسفة أثناء القرون الوسطى وفي هذا العصر الحديث . وانما هي كما رأيت قديمة ، قد ظهرت بين الديانة الوثنية اليونانية وبين فلسفة سقراط وتلاميذه . ومع ذلك فقد كانت الديانة الوثنية اليونانية من أيسر الديانات وأقربها الى السذاجة وأقلها حظا من التعصب . وحسبك أن هذه الديانة اليونانية كانت تخلو خلوا تاما من مؤثرين عنيفين : أحدهما الكلام ، والآخر الاكليروس . لم يكن للديانات اليونانية كلام أو لاهوت بل لم تكن للديانات اليونانية عقائد محددة وانما كانت هذه الديانات عبادات وطقوسا - كما يقولون - لا أكثر ولا أقل . لم تكن للالهة صفات معروفة معينة يكفر من ينكرها أو يشك فيها ، ولم يكن لليونان علم يشبه هذا العلم الذى يتقنه اليهود والنصارى والمسلمون وهو علم اللاهوت . وكذلك لم يكن لليونان قسيسون يحشرون هذا العلم ويقومون على حماية الدين وصيائمه من عبث العابثين ، أو العباد الملحدين ، وانما كان كل يونانى قادرا على أن يودى للالهة ما يجب لهم من عبادة ، وكان

زعيم الأسرة قسيسها ، وكان زعماء المدينة كهنتها . وإذا لم يكن للدين لاهوت يفرضه على الناس فرضا ، وإذا لم يكن للدين هيئة قسيسين أو كهنة يختكرون حياته والقيام عليه . فخلق بهذا الدين أن يكون قليل الحظ من التعصب والجمود ، وخلق بهذا الدين أن يكون قليل الحظ من مصادرة العقل ومخاصة حرية الرأي والوقوف في سبيل التطور والرقى . ومع هذا كله فقد اختصم هذا الدين الساذج اليسير مع الفلسفة واتهمت الخصومة بموت سقراط . ذلك لأن الخلاف بين العلم والدين لا يستند قوته وعنفه من الفرق بين جوهرى العلم والدين فحسب ، وإنما يستمد قوته وعنفه من مصدر آخر ، هو أن الدين حظ الكثرة والعلم حظ القلة ، فسواد الناس مؤمن ديان ، مهما يختلف العصر والطور والمكان ، والعلماء أو المفلسون قلة دائما ، فليس غريبا أن تظهر الخصومة قوية عنيفة بين هذه القلة الشاذة التي لسميها العلماء أو الفلاسفة والتي تفكر على نحو خاص لم يألفه الناس ، وليس من اليسير عليهم أن يالفوه ، والتي لا تكتفى بالتفكير لنفسها ، وإنما تريد أن تفكر لنفسها وللناس أيضا ، والتي إذا فكرت وانتهى تفكيرها الى رأى لم تكتف بإذاعته وترويجه ، وإنما تذود عنه وتجادل ، وتسرف في الذود والجidal ، والتي لا تكتفى بهذا كله وإنما تحرص على التأثير بشكيره ، وما ينتهى اليه من رأى ، وتحرص

على أن ثلاثين بين حياتها العملية وحياتها العقلية ، فتمتاز من الناس من ناحيتين مختلفتين : تمتاز منهم في حياتهم اليومية ، وتمتاز منهم في القول والتفكير . وأنت تعلم أن السواد أشد ما يكون كرها للتفوق وأعظم ما يكون بغضا للامتياز ، فهو يريد دائما أن يكون الناس سواسية في كل شيء ، سواسية في القول والعمل ، سواسية في الأكل والشرب والنوم والملئ وغيرها من مظاهر الحياة . وأنت مهما تبحث عن أسباب التطور التي اضطرت لها المدن القديمة ودالت لها الدول الحديثة ، فستجد في مقدمة هذه الأسباب سببا محققا هو بغض السواد للتفوق والامتياز ، وطموحه الى المساواة بين الناس فإذا كان هذا التفوق يمس أصلا من أصول الحياة العامة ، بل يمس أيسر هذه الأصول وأقربها تناولا وأشدّها اتصالا بالضمائر والنفوس وتأثيرا في الحياة اليومية ، تقول إذا كان التفوق يمس هذا الأصل الذي هو الدين فخلق بالسواد أن يبنضه ويشور به وينكل بالمتفوقين تنكيلا متى استطاع الى ذلك سبيلا .

وكذلك كان ميل السواد في أثينا . وكذلك كان موقفه من سقراط وتلاميذه .

على أن تقرير هذا الأصل ، وهو بغض السواد للجديد لا ينتهى بنا الى هذه النتيجة وحدها ، وانما يعيننا على فهم حقائق أخرى وقعت في المصور القديمة والوسطى ولم يحاول الباحثون أن يردوها الى أصولها الصحيحة . فالسواد لا يكره تفوق العلماء وحدهم ، وانما يكره التفوق من حيث هو . قل ان شئت انه يكره كل جديد ، وهو مضطر بحكم هذا الكره الى أن يقاوم هذا الجديد ما استطاع ، فاما أن ينتصر فلا جديد ، وانما أن ينخزل فيستلظ الجديد شيئا فشيئا حتى يصبح قديما ، ويستعير من خصمه الأول كل الأسلحة التي حاربه بها ، ليدافع بها عن نفسه ، ويناهض بها كل جديد . ومن هنا نستطيع أن نفهم أن السواد القديم اليونانى والرومانى لم يحارب الفلسفة وحدها ، وانما حارب الدين أيضا . فاما اليونان فقد وقفوا موقف الخصومة من ديانات شرقية حاولت أن تنبث في بلادهم ، ووقفوا بعض التوفيق في هذا الموقف ، فلم تستطع هذه الديانات الشرقية أن تنتشر في البلاد اليونانية جهرة ، وانما ارتدت عنها ارتدادا أو انتشرت فيها خلسة فكونت لنفسها جماعات سرية تؤدي واجباتها من وراء ستار.

وأما الرومان فكروهوا في أول الأمر فلسفة اليونان أشد الكره ، لقوها بالازدراء ، ثم قاوموها مقاومة سياسية ، فحظروا درسها وبلغ بهم ذلك أن زعيما من زعمائهم هو « كاتو القديم » توسل الى مجلس الشيوخ في أن يتمجل في قضاء حاجة بعض السفراء اليونانيين ليترك هؤلاء السفراء المدينة ، ويستريح منهم سواد الشعب . وكان بين هؤلاء السفراء فلاسفة انتهزوا سفارتهم فرصة لالتقاء محاضرات فلسفية في روما . ولكن الرومان لم يكرهوا الفلسفة اليونانية وحدها ، وانما كرهوا معها كل جديد أيضا ، وليس أدل على ذلك من اللفظ الذى اصطلح الرومان عليه للتعبير عن الثورة وقلب النظام فهو « الشئ الجديد » فهم لا يقولون ان فلانا يريد أن يثور ، أو ان فلانا ثار وانما يقولون : ان فلانا يريد أن يحدث شيئا جديدا . ذلك أن الرومان كانوا من أشد الشعوب القديمة في القرب محافظة وحرصا على القديم . ومع أن دينهم لم يكن أشد من الدين اليونانى تعقيدا ، ومع أنه لم يكن كالديانات السماوية يعتمد على كلام أو لاهوت ، فقد كان يمتاز من الدين اليونانى امتيازاً قويا من وجهين : الأول أنه كان أشد من الدين اليونانى تسلطا على حياة الفرد والجماعة ، فقد كان الفرد الرومانى من أشد الناس مليرة واشفاقا . يخاف من كل شئ ، ويرى تأثير الآلهة في كل شئ ، ويعصر على أن يشمله ويرضاهم . وكان

وجود الأسرة نفسها قائما على أصول من الدين . وكانت الجماعة الرومانية كالفرد الروماني حذرة متطيرة . وكان وجودها السياسى كوجود الأسرة قائما على أصول ثابتة من الدين . ونحن لا نعرف عند اليونان زجرا ولا عيافة ولا قيافة ، ولكننا نرى هذا كله عند الرومان ونراه مؤثرا أشد التأثير فى الحياة الخاصة والعامة جميعا ؛
الثانى أن هذا الفرق بين الفرد اليونانى والرومانى من حيث التأثير بالدين قد استتبع نتيجته الطبيعية ، وهى أن تكون عناية السياسة بالدين ملائمة لشدة ما لهذا الدين من التأثير فى نفوس الأفراد والجماعات ، فنظمت حماية السياسة بالدين فى روما تنظيما قويا ، وقام فى روما شئ يشبه (الاكليروس) له سلطته الدينية وله امتيازاته أيضا . واذا كان رئيس الدولة سواء أكان ملكا أو قنصلا إنما يستمد سلطته من الشعب بعد استشارة الآلهة ، أو قل من الآلهة بعد استشارة الشعب ، فقد كان الواجب الأول على الملك أو القنصلين حماية الدين . وكذلك قامت بحماية الدين فى روما جماعة (الاكليروس) وهيئة الحكومة ومجلس الشيوخ الذى كان واجبه الأول حماية ما ترك الآباء . فلا تعجب اذا رأيت الرومانيين يقاومون الجديد مهما يكن ، ويشتدون فى مقاومته اذا مس الدين . ولا تعجب اذا رأيت الرومان فى عصورهم الأولى يخضون أشد الخفض ويناهضون أشد المناهضة هذه الديانات الأجنبية التى حاولت أن تنبث فى روما بعد أن انبسط سلطان روما على الأرض .

كلم هذا يرجع الى أصل واحد وهو أن الدين أقوى ما يمثل نفس السواد ، فالسواد به كلف ، وله محب ، وعليه حريص ، وعنه ذائد ، يبذل في ذلك ما يستطيع من قوة وجهيد . وقد قلت منذ حين ان حرص السواد على دينه لا يكلفه محاربة العلم والفلسفة وحدهما وانما يكلفه محاربة كل جديد من شأنه أن يبس الدين . ومن غريب الأمر أنك اذا فكرت قليلا فيما تسميه خصومة بين العلم والدين رأيت أن بعض الديانات أو أن الديانات السماوية نفسها قد كان ينظر اليها كما ينظر الى العلم ، أى أن الديانات القديمة كانت تكره دين اليهود والنصارى وتحاربها كما كانت تكره فلسفة سقراط وتحاربها لا لشيء الا أن دينى اليهود والنصارى كانا جديدين ، مخالفين لطبيعة هذه الديانات الوثنية القديمة . ولما في حاجة الى أن تقف بك عند هذه الحرب المنكرة التى أثارتها وثنية الرومان على دين اليهود أولا وعلى دين النصارى ثانيا . فأنت تعرف من تفصيل هذه الحرب وعن اضطهاد الوثنية لليهودية والنصرانية ما يغنينا عن مثل هذا الاستطراد . ولكننا نلاحظ أن الأسباب التى حملت الوثنية الرومانية على أن تنكر توحيد اليهود

والنصارى وتنصب له الحرب وتمزق أهله تمزيقا ، هى بعينها الأسباب التى حملت وثنية اليونان فى آخر القرن الخامس قبل المسيح على أن تقضى على سقراط وتذيقه الموت . هى بعينها الأسباب التى تتصل بمواطن السواد وميوله الدينية من ناحية ، وبالسياسة واستخدامها لهذه المواطن والميول من ناحية أخرى . ولعلك تقتنع بهذا اقتناعا لا يقبل الشك إذا فكرت فى طبيعة الامبراطورية الرومانية التى حاربت اليهودية والنصرانية قرونا متصلة . كانت هذه الامبراطورية الرومانية تقوم على الدين كما كانت الديمقراطية الأتينية والأرستقراطية الرومانية تقومان على الدين أيضا . وكان الامبراطور قد جمع اليه السلطان الدينى والسياسى ، وأخذ الناس بعبادته فى أقطار الأرض على أنه مثل روما التى كانت تعبد أبان العصر الجمهورى ، وعلى أنه خليفة الله فى أرضه . وكانت الشعوب الوثنية الخاضعة للسلطان الرومانى لا ترى بأسا بعبادة قيصر كما أنها لم تكن ترى بأسا بعبادة روما . وكانت عبادة قيصر يسيرة على الشعوب الشرقية ، وعلى المصريين منهم بنوع خاص ، وقد ألفت هذه الشعوب منذ أول الزمان عبادة السادة والملوك . وكانت هذه العبادة عسيرة أول الأمر على اليونانيين الذين لم يألفوا من قبل عبادة الأفراد ، والذين ضحكوا من الاسكندر حين تقدم اليهم أن يعبدوه . ولكن اليونان خالطوا

الأمم الشرقية واتصلوا بها ، وكان لهم فيها ملوك عبدوا كما عبد
الفراعنة وعظماء الفرس ، فهان عليهم الأمر ومضوا فيه جادين حين
ولاعين حيناً آخر كدأبهم في كل شيء ، إنما هذا الشعب السامى
الذى بعد عهده بالوثنية منذ حين طويل ، والذى أُلِف التوحيد
وأُمعن فيه ، وهو شعب اسرائيل ، لم يستطع أن يفهم عبادة روما
ولا عبادة قيصر ، كما أنه لم يستطع أن يفهم عبادة فرعون ولا أن
يدين لآلهة بابل وآشور . ومن هنا كانت ديانة هذا الشعب السامى
منكرة ثقيلة على الرومان لأنها تعالف ديانتهم الوثنية وتخالف
سياستهم القائمة على هذه الديانة . وجاءت النصرانية فكانت أشد
مخالفة لطبيعة الوثنية ولطبيعة السياسة القائمة عليها من اليهودية .
فلم يتردد قيصر الرومان في محاربة هذه النصرانية إلا ريشاً فهموا
خطرها على السياسة والدين ، ولدينا أقدم نص تاريخى يتصل
باضطهاد النصارى ، وهو استفتاء من أحد حكام الأقاليم للإمبراطور
« تراجانوس » آخر القرن الأول للمسيح في أمر هذه المنتصرة
وما ينبغى أن يتخذ نحوها من سياسة ، وقد اعتاد المؤرخون أن
يشنوا على هذا الإمبراطور لأن رده على مستفتيه كان رفيقاً ايئناً .
ومع ذلك فإن هذا الإمبراطور لم يطلب إلى مستفتيه أن يقر حرية
الدين ، ولا أن يدع المنتصرة ، وإنما طلب إليه ألا يحفل بما يرفع
إليه الجواسيس ، فإما مغالبة النصرانى الذى تثبت نصرانيته فلم

يكن منهما بد ، لأن النصرانية كانت خروجاً على السياسة وعلى دين الدولة معاً .

وعلى هذا النحو من تعاون السواد وحكومة السواد ، أو قل على هذا النحو من استغلال السياسة لمواطن السواد سفكت دماء النصارى في الشرق والغرب .

وامض بعد ذلك في تاريخ النصرانية ، فسترى أنها صبرت وصايرت وجاهدت حتى كان لها النصر ، وأصبحت في القرن الرابع ديانة الدولة الرومانية . فلم تظهر بهذه المكانة السياسية حتى استغلتها فأسرفت في استغلالها ، وسفكت دماء الأتنيين وهدمت معابدهم وصادرت أموالهم كما سفك الوثنيون دماء النصارى وهدموا بيعهم وصادروا أموالهم . ومنذ ذلك الوقت كانت معالفة بين الوثنية والفلسفة لا شيء إلا لأن هذه الفلسفة قديمة كالوثنية ، مخالفة لطبيعة المسيحية كما أن الوثنية مخالفة لهذه الطبيعة . فأنت ترى أن الفلسفة كانت عدو الوثنية ولقيت منها ألوان الاضطهاد . وأنت ترى أن الفلسفة هي التي أعانت على اعداد الشعوب القديمة للمسيحية وترقية العقل القديم والمبااعدة بينه وبين الوثنية ، ولكنك ترى أن المسيحية لم تكد تظهر بالسلطان حتى أكرت العدو والصديق ، ونصبت الحرب للوثنية والفلسفة معاً . وأنت تعلم أن الأمر انتهى بالفلسفة الى أن التمس لها داراً

لا يتسلط فيها المسيح ، فهاجرت الى الفرس واستنظلت بلواء
الساسانيين . وعندنا أن المسيحية لو لم تظفر بسلطانها السياسى لما
خاصمت الفلسفة ولما تورطت فيما تورطت فيه من الجحود وانكار
الجميل . فهي مدينة بكثير للأفلاطونية القديمة وهى مدينة بكثير
للأفلاطونية الجديدة . ويخيل إلينا أن طينة المسيحية الخالصة ،
وطينة الأفلاطونية الخالصة ، لم يكن بينهما من الخلاف ما ينتهى
بهما الى الخصومة والحرب ، لولا أن السياسة قد دخلت بينهما
فأفسدت الأمر عليهما جميعا .

بل في الأمر ما هو أشد غرابة من هذا كله ، فقد وقعت نفس هذه الخصومة بين الديانات السماوية السامية نفسها وعلى النحو الذي وقعت به بين هذه الديانات وبين الديانات الوثنية القديمة . نريد أن الديانات اليهودية اعتبرت المسيح مجددا مبتدعا فأنكرته ، ونصبت له الحرب على نفس النحو الذي أنكر الأتينيون به سقراط ونصبوا له الحرب . ونريد أن نقول ان المسيحية بعد انتصارها قد اعتبرت النبي مجددا فأنكرته ونصبت له ولدينه الحرب ، وكل ما بين الاسلام والمسيحية من الفرق من هذه الناحية ، هو أن المسيحية لبثت حينا طويلا لا تعترف بالسلطان السياسى ، فطال اضطهادها ولقيت ما لقيت من بلاء ، وأن الاسلام لم يلبث بعيدا عن السلطان السياسى الا أعواما ريثما تمت الهجرة ، فما كاد يظفر بهذا السلطان حتى دافع عن نفسه فناهض الوثنية واليهودية والنصرانية وكان النصر له آخر الأمر .

فالخصومة في حقيقة الأمر ليست بين العلم والدين ، ولا بين الوثنية واليهودية والنصرانية والاسلام ، ولا هي بين دين ودين ، وانما هي أهم من ذلك ، وأيسر ، هي بين القابليين والجديدين ، هي بين

السكون والحركة ، هى بين الجمود والتطور . والا فكيف تستطيع أن تفهم أن يلغى سقراط والمسيح ومحمد عليهما السلام اضطهادا من نوع واحد ؟ وكيف تستطيع أن تفهم أن يتشابه موقف الوثنية والمسيحية واليهودية على اختلاف الأمكنة والأزمنة وأجيال الناس وطبائع جنسياتهم ؟ كيف تستطيع أن تفهم تشابه هذه المواقف جميعا ، اذا لم تردّها الى أصل واحد ، وهو الخصومة بين القديم والجديد ، أو استغلال السياسة للخصومة بين القديم والجديد ؟ وما الذى كان بعد أن تم النصر للإسلام فى ناحية من أنحاء الأرض واقسم العالم القديم بينه وبين النصرانية ، فاستأثر الإسلام بالشرق واستأثرت المسيحية بالغرب .

نحب أن تفكر فى الأمر تفكيراً علمياً مجرداً من الهوى مبرأ من الغرض ، لا يتأثر بالعصية الجنسية ولا الدينية فسترى أن الأمر قد سار فى الشرق والغرب على أسلوب واحد ، فلم يكف الإسلام ينتصر ويستقر فى الأرض ويظفر بالسلطان السياسى ويفرغ من الحرب والفتوح حتى كره ملوكه الجديد وأكثروا الحرص على القديم واستغلوا ميل العامة الى القديم وحرصهم عليه ، واتخذوا هذا الاستغلال وسيلة الى الحكم والتسلط ، فأفكروا كل جديد وحاربوه . وعلى هذا النحو سارت المسيحية فى أوروبا ، وكان لأصحاب الدينين صرعى فى الشرق والغرب . وكان العلم موضع

الاضطهاد في هذين القطرين من الأرض . ولكن هنا وقفة يجب أن نقفها لتكون منصفين ، فالحق أن ليس في طبيعة الاسلام ولا في طبيعة المسيحية ما يدعو الى الاضطهاد ولا الى محاربة الجديد ولا الى مناهضة حرية الرأي . ولك أن تقرأ القرآن والأناجيل وتمعن في القراءة ، ولك أن تبحث وتمعن في البحث ، فلن تجد نصا أو شبه نص ينكر التجديد ويدعو الى مناهضته ، أو يأخذ العقول بالجمود أو يحظر عليها حرية الرأي قليلا أو كثيرا ، ليس في الاسلام ولا في المسيحية اذن ما يدعو الى مناهضة حرية الرأي ، لم يكن في الوثنية اليونانية أو الرومانية ما يدعو الى مناهضة حرية الرأي أيضا . ومع ذلك فقد أثم الوثنيون وأثم اليهود والنصارى والمسلمون واعتدوا جميعا على حرية الرأي اعتداء يختلف قوة وضعفا .

أليس مصدر هذا في حقيقة الأمر انما هو استغلال السياسة لعماطف السواد؟ بلى ، ولولا أن السياسة تريد أن تتخذ ما تستطیع من الطرق والوسائل لتسلط على نفوس الناس وتملق عواطف السواد لما قتل الأتينيون سقراط ، ولما حاول اليهود صلب المسيح ؛ ولما سفك الرومان دماء اليهود والنصارى ؛ ولما أخرجت قریش محمدا وأصحابه من ديارهم ، ولما عذب ابن رشد و « جليلی » ولما حرق من حرق وشرذ من شرذ من العلماء والمفكرين .

وشئ آخر لابد من اثباته لتكون منصفين ، وهو أن تبعات
المسيحيين أثقل من تبعات المسلمين في مناهضة العلم ومجاربة حرية
الرأى ، فأنت تستطيع أن تعد العلماء والمفكرين الذين أودوا في
البلاد الاسلامية ، وأنت تستطيع أن تلاحظ أنهم قليلون جدا ،
وأن تلاحظ أيضا أنهم لم يلقوا من الأذى الا قليلا ؛ ولكنك
تستطيع أن تعد العلماء والمفكرين الذين أودوا في ظل المسيحية ،
فستراهم كثيرين جدا ، وسترى أنهم لقوا من الأذى ألوانا منكرا
أخفها السجن ، وأقساها الموت والمذاب بين هذين اللونين ومصدر
هذا أن الاسلام حر طلق ليس له ما للمسيحية من (الاكلهوس)
والكنيسة المنظمة ، وأن الاسلام حر طلق أيضا لا يأخذ العقل
الانسانى بما لا يطيق ولا يكرهه على الايمان بما لا يفهم ولا يضع
أمامه الأسرار التى يجب أن يقبلها دون روية أو تفكير . ومصدر
ذلك أيضا أن الاسلام حر طلق لم يجعل للحكومة على الناس
سيلا فيما يفكرون ويرون وانما اتخذ هذه القاعدة السحة أساسا
لسياسته بازاء حرية الرأى : « لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد
من الغى » وهو اذن لم يمنح السلطة السياسية على الناس حق
الموت والحياة ، وانما بين حدود الله تبيينا وعرف الأفراد حقوقهم
وواجباتهم ، ورسم للحكومة فى هذا الوجه طريقا لا تعدوه حتى
تأثم . فليس للحكومة المسلمة أن تعذب مسلما أو تؤذيه وهو يعلن

إيمانه بالله ورسوله ، وإنما موقف الحكومة المسلمة موقف الاسلام نفسه لا تتحرك الا حين يتعرض الاسلام للخطر . هو موقف دفاع لا بموقف هجوم . ومصدر ذلك أيضا أن الاسلام من أشد الديانات نصرا للتجديد ونعيا على الذين يسرفون في نصر القديم . وكثيرة جدا في القرآن هذه الآيات التي تسخر من المشركين الذين عاصروا النبي أو لم يعاصروه لأنهم أبوا الاجابة الى دين الله حرصا على القديم وكرهة أن يعبدوا ما لم يكن يعبد آباؤهم ، كل هذا جعل الحكومة الاسلامية وعلناء الدين من المسلمين أقل ميلا الى الاضطهاد وأشد احتراما لحرية الرأي من الحكومات المسيحية ورجال الدين من المسيحيين . وقد يكون من الخير أن نلاحظ أن المسلمين لم يعرفوا اضطهادا لحرية الرأي في عصورهم الأولى حين كانت الحكومة عربية خالصة منصرفة الى الشئون السياسية وحدها غير متدخلة في حياة الأفراد ولا فيما يرون . فلما عرف أيام الخلفاء الراشدين اضطهادا لحرية الرأي . ولما عرف شيئا من ذلك أيام بنى أمية ، مع أن البدع ظهرت وكثرت في هذه الأيام . ذلك لأن الحكومة في تلك العصور كانت عربية خالصة والعربي حر بطبعه ، ولأن الحكومة في تلك العصور كانت قربية الى الأصول الاسلامية الخالصة ، وأصول الاسلام حرة بطبيعتها . فلما كان عصر بنى العباس وتسلطت على المسلمين حكومة عربية في

ظاهر الأمر ، أعجبية في حقيقته ، ظهرت الخصومة بين العلم والدين
ويظهر اضطهاد الحكومة لحزبة الرأي ، فكان ما كان من تتبع
الزنادقة أول أيام بني العباس ، على أن الزنادقة كانوا يتحدثون
الاسلام حقاً ويحاولون الانفساد في الأرض أحياناً . ثم كان ما كان
من تتبع الذين يخالفون رأى الخليفة في الدين ، وقتة الناس في
آرائهم أيام المأمون ، ثم كان ما كان من تسلط الترك وتسلط
الجمود معهم على الحياة الدينية والعقلية ، فأنت ترى معنى أن
الاسلام والمسيحية بريئان من اضطهاد الرأي ومناهضة العلم وأن
ائم ذلك واقع حقاً على السياسة التي تدخلت بين الدين والعلم
أو بين السواد والعلماء . ولما كان حظ رجال الدين المسيحي من
سلطان السياسة أعظم من حظ رجال الدين الاسلامي ، كان اعتداء
(الاكليروس) المسيحي على الحرية أشد خطراً وأبعد أثراً .

ولك الآن أن تعكس الأمر ، فإن الدين لم يعتد وحده على العلم ، بل اعتدى العلم على الدين أيضا حين آل إليه السلطان . وقد رأيت أن المسيحية اعتدت على الوثنية وحاربتها بنفس الأسلحة التي حاربتها الوثنية بها . وقد رأيت أننا لا نرى الخصومة بين العلم والدين من حيث هما علم ودين ، وإنما نراها واقعة بين القديم والجديد من حيث هما قديم وجديد . ولو أن سواد الناس عنى بالمسائل اللغوية والأدبية عنايته بمسائل الدين ، لكان من المجددين في اللغة والأدب صرعى وشهداء كما كان من المجددين في العلم والدين والفلسفة . ونحن نرى في أول هذا العصر الحديث حركة تدعو الى حرية الرأي والى التجديد في كل شيء في العلم والأدب والفلسفة والدين . فأما المظهر الدينى لهذه الحركة فالبروتستانتية ، وأما المظهر العلمى فحياة « جيللى » و « كوبرنيك » ومن اليهما من العلماء وأما المظهر الفلسفى فحياة « ديكارت » و « باكون » و « ولبينز » و « سبينوزا » ومن اليهم ، وأما المظهر الأدبى والفنى فكل هذه الحركة القوية الخاصة التى نلاحظها فى إيطاليا ثم فى فرنسا ثم فى انجلترا والتى أخرجت من أخرجت من الشعراء والكتاب والمصورين والمثاليين . نرى هذا كله ولكننا لا نرى الحرب بين القديم والجديد

عنفية تنتهي إلى سفك الدماء إلا في المظهر الديني الخالص ، أو في ما يكون من الخصومة بين المظهر الديني والمظهر العلمي الفلسفي . فأنت تعلم ما سفك من الدماء بين الكاثوليك والبروتستانت . وأنت تعلم ما لقي العلماء والفلاسفة من أذى رجال الدين . وأنت تعلم أن ديكارت إنما أكثرت حياته في هولندا — كما يقول رينان — لأن الناس كانوا عنه في شغل بتجارتهم . واذن فلا بد من أمرين لتكون الخصومة بين العلم والدين أو بين الحرية والدين عنيفة منكرة : أحدهما أن يعنى السواد بهذه الخصومة . والثاني أن تستغل السياسة غاية هذا السواد . ولولا أن السواد عنى بالخصومة بين الكاثوليكية والبروتستانتية وبالخصومة بين العلم والدين ، ولولا أن السياسة اعتزت بهذا السواد لما سفك دم ولا حرق عالم ولا أودى فيلسوف . على أن البروتستانتية قاومت حتى كان لها النصر ، واستأثرت بجزء عظيم من أوروبا ، وعلى أن العلم والفلسفة قاوما حتى كان لهما النصر ، واستأثرا بالعقول في أوروبا أثناء القرن الثامن عشر . وليس هنا موضع البحث عن الأسباب التي أتاح للعلم والفلسفة الاستئثار بعقول كثير من سواد الناس أثناء هذا القرن الثامن عشر . ولكن هناك حقيقة واقعة لا تقبل الشك ، وهي أن العقل الأوروبي تطور في هذا العصر تطورا شديدا غريبا فنصب الحرب لهذين الحليفين اللذين

أذلاء حيناً وهما السياسة الملكية والكنيسة الكاثوليكية ، نصب
الحرب لهذين الحليفين واعتز في حربه هذه بالعلم والفلسفة . وظل
يجاهد حتى كالت الثورة الفرنسية . وهنا انعكست الآية وأثم
العلم والفلسفة أو قل أثم أصحاب العلم والفلسفة ، كما أثم أصحاب
الدين من قبل ، فاضطهد الدين اضطهاداً شديداً ولقى رجال الدين
ضروباً من المحن والفتن ، وكان الذين يعتنقون رجال الدين
ويمتحنونهم هم أولئك الذين كانوا متأثرين بفلسفة « فوالتير »
و « مونتسكيو » و « جان جاك روسو » و « ديدرو » وغيرهم .
وكان قوام هذه الفلسفة من الوجهة العملية والنظرية إنما هو
الدعوة الى حرية الرأي والى التسامح . فما بال هذه الفلسفة
التي كانت تدعو الى الحرية والتسامح قد استحالت عدواً للحرية
والتسامح . أما الفلسفة نفسها فلم تتغير ، ولم تنكر الحرية ولم
تنصب لها الحرب ، وإنما ذنبها وأثمها أنها ظفرت بعد الثورة
الفرنسية بالمكانة السياسية الرسمية فطغت أو طغى أصحابها
وأسرفوا في الطغيان ، أمرها من ذلك كأمر المسيحية ، كانت تعذب
وتضطهد وتدعو أثناء ذلك الى الحرية والتسامح حتى إذا أصبحت
فيين الدولة طغى أصحابها وأسرفوا في الطغيان . فالأثم في حقيقة
الأمر ليس أثم الدين ولا أثم العلم ولا أثم الفلسفة وإنما هو أثم

هذه الدخيلة التي تتوسط بين هذين العدوين فتسليح أحدهما على الآخر وتستغل هذا للضعف الخاصة .

وفي الحق أنى أحاول أن أفهم كيف يستطيع الدين أو العلم أن يعتدى على الحرية العلمية أو الدينية إذا لم تمدده السياسة بالذخائر والسلاح فلا أجد إلى هذا الفهم سبيلا . تصور بلدا وقفت السياسة فيه موقف الحيطة المطلقة بين العلم والدين فكفت أيدي الناس عن الناس ، وأقرت الأمن في نصابه ، وتركت للعلم حريته ، وللدين حريته فما الذي يمكن أن يقع من العنف بين العلماء ورجال الدين ؟ لا شيء إلا الخصومة الكلامية ، لا شيء إلا المناقشة والجدل ، ومن الذي يستطيع أن يرى شرا في المناقشة أو الجدل ؟

سنظن بعد أن نقرأ هذا كله أنا لا نرى الخصومة قوية بين العلم والدين في نفسيهما ، وإنما نرى أن السياسة تستغلها لمنفعتهما ولو تركتهما لتصافيا واثلتفا .. كلا ! نحن لا نرى هذا الرأي وإنما نرى ما قلناه في أول هذا البحث من أن الخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية لا سبيل إلى اتقائها ولا إلى التخلص منها . هي أساسية جوهرية لأن العلم والدين لا يتصلان بملكة واحدة من ملكات الإنسان ، وإنما يتصل أحدهما بالشعور ويتصل الآخر بالعقل ، يتأثر أحدهما بالخيال ويستأثر بالعواطف ، ولا يتأثر الآخر بالخيال إلا بمقدار ولا يعنى بالماطفة إلا من حيث هي موضوع لدرسه وتحليله . والخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية لأن الدين أسن من العلم ، ولأنه كان في العصور القديمة كل شيء : كان دينا وكان علما ، ولأن العلم جاء بعد ذلك فغير هذا القسم العلمي من الدين ، وأبى الدين أن يدع لهذا التغيير ، وأبى العلم أن ينزل عما ظفر به من الشررات . فلن يتفقا إلا إذا جحد أحدهما شخصيته كما قلت في غير هذا المكان .

والخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية لأن الدين يرى

لنفسه الثبات والاستقرار ، ولأن العلم يرى لنفسه التعبير
فلا يمكن أن يتفقا إلا أن ينزل أحدهما عن شخصيته .

والخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية لأن أحدهما
عظيم جليل واسع المدى بعيد الأمد لا حد له ولا انتهاء لموضوعه ،
ولأن الآخر متواضع ضئيل محدود المطامع بطيء الخطى يقدم ثم
لا يكره أن يصحبه ، ويمضى ثم لا يكره أن يزدد ، ويبنى ثم لا يتحرج
من الهدم ، فلا يمكن أن يتفقا إلا أن ينزل أحدهما عن شخصيته .
فالخصومة بينهما أمر لا بد منه . ولكن المسألة في حقيقة الأمر
ليست في أن الخصومة واقعة أو غير واقعة ، وانما هي في أن
الخصومة ضارة أو نافعة أو بمباراة أدق : المسألة هي أن تعرف
هل كتب على الإنسانية أن تشقى بالعلم والدين أم هل كتب على
الإنسانية أن تسعد بالعلم والدين ؟ أما نحن فنعتقد أن الإنسانية
تستطيع أن تسعد بالعلم والدين جميعا . وأنها ملزمة إذا لم تستطع
أن تسعد بهما أن تجتهد في ألا تشقى بهما . وسبيل ذلك عندنا
واضحة ، وهي أن ينزع السلاح كما يقولون من يد العلم والدين ،
أو قل سبيل ذلك أن ترغب السياسة على أن تقف موقف الحيدة
من هذين الخصمين . فالعلم في نفسه لا يريد ولا يستطيع الأذى ،
والدين في نفسه لا يريد ولا يستطيع الأذى ، ولكن السياسة تريد
وتستطيع الأذى غالبا . وهي كما قلت تتخذ العلم حيناً وسيلة إلى

هذا الأذى وتتخذ الدين حينا آخر وسيلة إليه . وهب السياسة لم تطع رجال الدين ولم تشتتر نفوسهم وضائرتهم ولم تهين لهم من أسباب الرغد والنعيم ما يصرفهم عن الله ويجعل الدين في أيديهم سلعا تباع وتشتري ، أو هب السياسة لم تفسد نفوس العلماء وضائرتهم وأخلاقهم ولم تشتترهم بالمناصب وأسباب السلطان ولم تمنحهم من أسباب الرغد والنعيم ما يحولهم عن البحث العلمي الهادى الى هذه الخصومة العنيفة العقيمة ، هب السياسة لم تشغل أولئك ولا هؤلاء ولم تمكن السواد من أن ينتصر لأولئك أو هؤلاء فماذا تكون النتيجة ؟ تكون أن يمضى رجال الدين في حياتهم الدينية ورجال العلم في حياتهم العلمية وأن ينصرف السواد الى حياته العملية المنتجة منتعنا بالدين فيما بينه وبين الله ، منتعنا بالعلم في تدبير شؤونه اليومية ، وأن تزول هذه الخصومات المنكرة التى تقسم الناس شيئا وأحزابا ، وتغرى بعضهم ببعض وتجعل بعضهم لبعض عبدا ، وتبث فيهم ألوان الرذيلة وحب الكيد والوقيعة وما إليها من الرذائل الفاحشة . وهل تظن أن وقف السياسة هذا الموقف شيء عسير حقا ؟ كلا ! قد كان عسيرا قبل هذا العصر الحديث حين لم يكن بد للحكومة من أن تستغل الدين أو من أن تستغل العلم . فاما هذا العصر الذى نحن فيه فقد استطاعت السياسة أن تستغل

وأن تمشي على قدميها دول أن تعتمد على عصا دينية أو علمية .
ذلك لأن فكرة الوطنية وما يتصل بها من المنافع الاقتصادية
والسياسية الضالصة قامت الآن في تكوين الدول وتدير سياستها
مقام فكرة الدين أو مقام هذه النظريات الفلسفية الميتافيزيقية التي
كانت تقوم عليها الحكومة من قبل . وأين هي الحكومة التي
تستطيع الآن أن تزعم أنها تقوم على الدين أو أنها تقوم لحماية
الدين ، أو أنها تقوم على أساس ما من هذه الأسس الفلسفية
المختلفة : حماية الواجب أو حماية الحق أو حماية العدل ؟ أين هي
الحكومة التي تستطيع أن تجهر بشيء من ذلك دون أن يضحك
منها الناس جميعا وأن يكون رعاياها أول الضاحكين ؟ أتستطيع
الحكومة المصرية مثلا أن تزعم أنها إنما تقوم على الاسلام
وبالاسلام وللاسلام ؟ كلا . كما أن الحكومة الفرنسية لا تستطيع
أن تزعم أنها إنما تقوم على المسيحية وبالمسيحية وللمسيحية . ومع
ذلك فقد كانت مصر موئل الاسلام في جميع عصورها الاسلامية ا
ومع ذلك فقد كان ملوك فرنسا يلقبون أنفسهم أصحاب الجلالة
المسيحية ا ومع ذلك فقد كان ملوك مصر وسلاطينها يماهدون ملوك
أوروبا باسم المسلمين ويزعمون لأنفسهم حماية بيت المقدس
والحرمين الشريفين ا ومع ذلك كان ملوك فرنسا يماهدون دول

الشرق الاسلامي باسم المسيحية ويزعمون لأنفسهم حماية المسيحية
في بلاد الاسلام ١

كان هذا كله ، ولكن هذا كله قد تغير ، فمصر لا تستطيع أن
تزعم أنها حامية بيت المقدس أو الحرمين الشريفين أو أنها الناطقة
بلسان المسلمين الذائدة عن حوض الاسلام . بل لست أدرى
أستطيع معبر الآن أن تزعم أنها تحمي الاسلام في أقطارها الخاصة
ولا تتجاوز حدوده عددا أو كرها . ولا تستطيع فرنسا أن تزعم
لنفسها حماية المسيحية في الأقطار الاسلامية ، بل لا تستطيع أن
تزعم لنفسها حماية المسيحية في أقطارها الخاصة . لا تقوم الحكومة
المصرية الحديثة ولا الحكومة الفرنسية الحديثة على أساس من
دين ولا من علم ولا من فلسفة ، وإنما تقوم الحكومة الحديثة في
أقطار الأرض المتحضرة الآن على أساس سياسي خالص من المنفعة
الاقتصادية والمدنية لا أكثر ولا أقل . وقد فرغ الناس من هذا
وأصبحوا لا يفكرون في أن الحكومة تقوم على الدين أو لا تقوم
عليه . فان فكروا في صلة بين الدين والحكومة وهذا قليل نادر ،
فإنما يفكرون في طبيعة الموقف الذي يجب أن تتخذه الحكومة الحرة
الصالحة من دين الكثيرة والقلّة . أتعترف بهذه الديانات أم تنكرها
أو تجعلها في غير اعتراف ولا افكار ؟

نعم ان دستورنا المصرى قد نص فى صراحة أن الاسلام دين الدولة . وكان هذا النص مصدر فرقة لا نقول بين المسلمين وغير المسلمين من أهل مصر ، فقد رضى القلة المسيحية وغير المسيحية هذا النص ولم تحاور فيه ، ولم تر فيه على نفسها مضادة أو خطرا . وانما نقول انه كان مصدر فرقة بين المسلمين أنفسهم ، فهم لم يفهموه على وجه واحد ولم يتفقوا فى تحقيق النتائج التى يجب أن تترتب عليه . فأما عامة الناس فلم تلتفت الى هذا النص ولم تحفل به ، وأكبر ظننا أنها ما كانت لتشعر بشئ لو لم يوجد هذا النص فى الدستور . فعامة الناس فى مصر منصرفون بطبيعتهم الى حياتهم العملية ، مستعدون أحسن الاستعداد وأقواء للاتصال بأزمئتهم وأمكنتهم وللملاءمة بين حياتهم وبين ضرورات التطور . وهم يعلمون أن الاسلام بخير ، وأن الصلوات ستقام ، وأن رمضان سيصام ، وأن الحج سيؤدى ، وهم يذهبون فى القيام بواجباتهم الدينية مذهب غيرهم من الناس المعتدلين ، لاهم بالمسرفين فى الدين ولا هم بالمسرفين فى العصيان والفسوق . فسواء عليهم أنص الدستور أم لم ينص ان الاسلام دين الدولة ، وسواء عليهم

أسيطرت الحكومة أم لم تسيطر على شعائر الدين ، ما دامت هذه
الشعائر قائمة محترمة . انما وقعت الفرة حول هذا النص بين
فريقين من المسلمين المصريين : أحدهما المستنيرون المدنيون ،
والآخر شيوخ الأزهر ورجال الدين . فأما المستنيرون فقد فهموا
أن الدستور حين ينص أن الإسلام دين الدولة لا يريد أن يعلن
احترامه لدين الكثرة وما توارثت من تقاليد ، ويكلف الحكومة
مقداراً قليلاً من الواجبات التي تتصل بهذه التقاليد . فلما أرادوا
تحليل هذا كله فهموا أن هذا النص لا يزيد على تقرير الواقع من
أن رئيس الدولة في مصر يجب أن يكون مسلماً ، ومن أن
شعائر الإسلام يجب أن تقام بعد صدور الدستور ،
كما كانت تقام قبل صدوره ، فلا تغلق المساجد ، ولا يعطل
الحج ، ولا تعمل الحكومة في أيام الأعياد الإسلامية
ولا ينقطع إطلاق المدافع في رمضان ، ولا يلغى الحفل
بالحمل ولا الحفل بالمولد النبوي ولا تنفق أموال الأوقاف
الإسلامية في غير ما رصدها له الواقفون . ولم يخطر لهُؤلاء
المستنيرين في يوم من الأيام أن هذا النص سيكلف الحكومة
واجبات جديدة دينية ، أو أنه سيحدث في الدولة نظاماً لم يكن
لها بها عهد من قبل . ذلك لأنهم كانوا وما يزالون يقدرون أن مصر
تمضي إلى الإمام وتتعلم في الاتصال بالمدنية الغربية وتريد أن تحقق

ما قال اسماعيل من أنها جزء من أوروبا . ولأنهم كانوا وما يزالون
يقدرون أن في الاسلام من اللين والمرونة ما يمكنه من التطور مع
الزمن وملاءمة الظروف المختلفة وبمضاه من الجمود والسكون ،
ويحول بينه وبين أن يكون عقبة في سبيل الرقي الاجتماعى
والاقتصادى . ولأنهم كانوا وما يزالون يقدرون أن حكومة مصر
قد اضطرت بحكم هذه الحياة الحديثة الى أن تأتى من الأمر ما لم
يكن يبيحه الاسلام من قبل ، فهي تعامل المصارف ، وتنظم الريا ،
وتبيح ألوانا من المعصية ، بل تستغلها أحيانا فإذا كان نص الدستور
أن الاسلام دين الدولة يدل على معناه حقا فلا أقل من تغيير كل
هذه المحدثات ولا أقل من أن يغير نصوصا تكفل حرية الرأى
وتبيح للناس أن يلحدوا ، وتبسط بين المسلم وغير المسلم فى
الحقوق والواجبات ، وما كان الاسلام ليبيح الالحاد ولا يسمح
للملحد أن يعلن الحاد وخروجه على الدين ، وأحكام المرتد
معروفة فى الاسلام وما كان الاسلام ليسوى بين المسلم وغير المسلم
فى بلد يكون هو فيها الدين الرسمى .

فهم المستنيرون هذا كله ، ولم يعارضوا فى هذا النص حين
أعلنت لجنة الدستور أنها ستضعه فى الدستور ، بل هم فريق منهم
أن يعارض لأنه خشى أن ينهم هذا النص على غير وجهه فما زالوا
به حتى كفوه عن المعارضة ، واضطروه الى السكوت ، وقالوا :

نص فيه ارضاء لعاطفة السواد وطمأنة للشيوخ فهو لا يضر ، وأكبر الظن أنه قد يفيد .

ولكن الشيوخ فهموا هذا النص فهما آخر ، أو قل انهم فهموه كما فهمه غيرهم ، ولكنهم تكلفوا أن يظهروا أنهم يفهمونه فهما آخر ، واتخذوه تكافؤ وتعلية يعتمدون عليها في تحقيق ضروب من المطامع والأغراض السياسية وغير السياسية . فهموا أن الاسلام دين الدولة أى أن الدولة يجب أن تكون دولة اسلامية بالمعنى القديم حقاً ، أى أن الدولة يجب أن تتكلف واجبات ما كانت لتتكلنها من قبل . وعلى ذلك أخذوا يطالبون بأمور ما كانوا يطالبون بها قبل الدستور . وذهب فريق منهم على رأسه نفر من هيئة كبار العلماء الى أبعد حد ممكن ، فكتبوا يطلبون ألا يصدر الدستور لأن المسلمين ليسوا في حاجة الى دستور وضعي ومعهم كتاب الله وسنة رسول الله . وذهب بعضهم الى أن طلب الى لجنة الدستور أن تنص أن المسلم لا يكلف القيام بالواجبات الوطنية اذا كانت هذه الواجبات معارضة للاسلام ، وفسروا ذلك بأن المسلم يجب أن يكون في حل من رفض الخدمة العسكرية عين يكلف الوقوف في وجه أمة مسلمة كالإمة التركية مثلاً . ولكن هذه المطالب كلها أهملت اهمالا ومضت لجنة الدستور في عملها حتى أتمته والشيوخ فيها مثلون . وليس هنا موضع التعريض أو

التصريح بما كان للشيوخ من سعى إثناء أعداد الدستور وقبل صدوره . ولكننا نكتفى بأن نلاحظ أنهم أو بأن كثيرتهم لم تكن تبسم للدستور حقاً . وصدر الدستور وابتهج به الناس جميعاً واطمأن اليه الناس جميعاً الا الشيوخ فانهم لم يكتفوا بقبول الدستور والرضا بما فيه من المساواة والحريات المكفولة بل استغلوه استغلالاً منكراً في حوادث مختلفة أهمها حادثة « الاسلام وأصول الحكم » وحادثة كتاب « في الشعر الجاهلي » . واليك نظرية الشيوخ في استغلال هذا النص الذي ما كان يفكر واحد من أعضاء لجنة الدستور في أنه سيستغل وسيخلق في مصر حزباً خطراً على الحرية ، بل خطراً على الحياة السياسية المصرية كلها . يقول الشيوخ ان الدستور قد نص أن الاسلام دين الدولة ومعنى ذلك أن الدولة مكلفة بحكم الدستور حماية الاسلام من كل ما يمس أو يعرضه للخطر ومعنى ذلك أن الدولة مكلفة أن تضرب على أيدي الملحدين وتحول بينهم وبين الالحاد أو تحول بينهم وبين اعلان الالحاد على أقل تقدير . ومعنى ذلك أن الدولة مكلفة أن تسجوا حرية الرأي محوفاً في كل ما من شأنه أن يمس الاسلام من قريب أو بعيد سواء أصدر ذلك عن مسلم أو عن غير مسلم . ومعنى ذلك أن الدولة مكلفة بحكم الدستور أن تسمح ما يقوله الشيوخ في هذا الباب . فاذا أعلن أحد رأياً أو ألف كتاباً ، أو نشر فصلاً ،

أو اتخذ زيا ، ورأى الشيوخ في هذا كله مخالفة للدين ونهبوا
الحكومة الى ذلك ، فعلى الحكومة بحكم الدستور أن تسمع
لهم وتعاقب من يخالف الدين أو يمس بالطرد أولا ان كان مؤظفا ،
ثم بتقديمه الى القضاء بعد ذلك ، ثم « بإعدام جسم الجريمة »
كما يقول رجال القانون على كل حال . ومما زاد الأمر تعقيدا
والموقف حرجا بين المستنيرين ورجال الدين بازاء هذا الوجه من
وجوه الحرية الدستورية أمران : أحدهما أن النظام السياسى
القديم كان قد أنشأ فى مصر شيئا يسمى هيئة كبار العلماء وجعل
لهذا الشئ حقوقا وألوانا من السلطان على طائفة من الناس ،
وجعل لهذا الشئ ضربا من السيطرة المنوية على أمور الدين فى
مصر . وكان المعقول أن صدور الدستور يجب أن يمحو من هذا
النظام القديم كل ما لا يتفق مع نصوص الدستور نفسه ؛ ولكن
هيئة كبار العلماء ظلت قائمة مستتعة بحقوقها محتفظة بسلطانها
وسيطرتها لا تعتر بها ولا تستغلها لأنها لم تكن تلتفت من هذا
كله الا الى ما يمنحها من المرتبات ومنازل الشرف حتى صدر كتاب
« الاسلام وأصول الحكم » . فأحست هيئة كبار العلماء أو أريد
منها أن تحصن أن لها حقوقا وسلطانا ، واستغلت هيئة كبار
العلماء أو أريد منها أن تستغل تلك الحقوق وهذا السلطان .
الثانى أن الدستور لم يكذب صدر حتى عطل أو كاد يعطل فقد
صدر الدستور فى أوائل سنة ١٩٢٣ ولكن البرلمان لم يأتلف الا

في أوائل سنة ١٩٢٤ ، وكانت الحكومة القائمة بين صدور الدستور وانعقاد البرلمان لأول مرة حكومة ضعف وتفريط في كل شيء ، كانت حكومة لا تعتمد على نفسها ولا تستطيع أن تثبت على قدميها إلا أن يسندها مسند من اليمين ان مالت الى اليمين ، أو مسند من الشمال ان مالت الى الشمال ، ولم يكن يسندها مسند اليمين أو مسند الشمال عقوا ولا ابتغاء مرضاة الله ، وإنما كان يسندها هذا المسند أو ذاك لمنافع ومطامع . فقوى في ظل هذه الحكومة الضعيفة أمر الرجعية وكثر الريش في أجنحة الشيوخ ، وطلب الأزهر أمورا فما أزرع ما أجيب اليها وكان أظهر هذه الأمور إلغاء مدرسة القضاء أو مسخها وإنشاء أقسام التخصص في الأزهر . ثم انعقد البرلمان فالصرف بطبيعة الحال الى ما كان ينبغي أن ينصرف اليه من المسألة السياسية الخارجية ، وبينا هو منصرف الى هذه المسألة السياسية الخارجية تحرك الشيوخ أو قل تحرك الأزهر كله أو قل حركة الأزهر تحريكا فظهرت له مطالب غريبة ضخمة فيها اعتات وإحراج وتعطل ، ورفعت هذه المطالب الى الحكومة البرلمانية الشعبية يومئذ مع شيء من الإلحاح ومع شيء من الضجيج والمجيج والمظاهرات الغريبة داخل الأزهر وفي شوارع المدينة وميادينها وعند القصر . وهمت الحكومة البرلمانية أن تأخذ بالحزم أمام هذه الحركة الغريبة التي لم يكن يعرف أيها أعظم فيها أنرا أحظ الدين أم حظ

السياسة والمنفعة . ولكن الحوادث المنكرة التى حدثت آخر تلك
الليلة ذهبت بالبرلمان وبالحكومة البرلمانية . وقامت فى مصر يومئذ
حكومة أخرى أشبه شئ بتلك الحكومة التى كانت قائمة بين
هندور . الدستور وائتلاف البرلمان ، حكومة ضعف وتردد
واضطراب ، حكومة تميل الى اليمين حيناً فتكاد تهوى . لولا أن
يسندها مسند ويتقاضى على هذا ثمناً ، وتميل الى الشمال حيناً
فتكاد تهوى لولا أن يسندها مسند ويتقاضى على هذا ثمناً أيضاً .
وكان من الأثمان التى دفعتها هذه الحكومة الاستماع للأزهريين
والنزول عندما كانوا يريدون واستغلال هذا فى الخصومة السياسية
الحزبية ، فما أسرع ما ألقت لجنة وزارية درست مطالب الأزهريين
وقبلتها وأخذت فى تنفيذها . وبهذا تقدم الأزهر خطوة أخرى فى
سبيل السيطرة والسلطان وأحس الأزهريون أنهم يستطيعون أن
يخيفوا الحكومات ويكرهوها على أن تدفع لهم وتنزل عند
ما يريدون . وكانت نتيجة هذا كله أن ألغيت أو مسخت « دار
العلوم » كما ألغيت أو مسخت مدرسة القضاء من قبل وأن احتكر
الشيوخ أو كادوا يحتكرون التعليم الأولى وإن زادت مخصصات
الأزهر المالية ، وأن قوى فى وزارة المعارف الميل الى نشر التعليم
الدينى فى مدارس الحكومة كلها من طريق الأزهريين وكانت الفكرة
الاساسية الخفية أن يكلف الأزهر نشر هذا التعليم الدينى وأن
يتبث شيوخ الأزهر فى مدارس الحكومة كلها . وكانت النتيجة

السياسية الخطرة لهذا كله أن تكون في مصر أو أخذ يتكون فيها حزب رجعي يناهض الحرية والرقى ، ويتخذ الدين ورجال الدين تكأة يعتمد عليها في الوصول الى هذه الغاية . وفي أثناء ذلك ظهر كتاب « الاسلام وأصول الحكم » فاستغل في سبيله كل ما تقدم وظهر أن في مصر حزبا سلسيا يتخذ الدين وسيلة لمناهضة حرية الرأي بنفس الوسائل التي كانت تناهض بها أثناء القرون الوسطى في أوروبا . أنكر الكتاب وحوكم صاحبه وأخرج من صف العلماء وفصل من منصبه وانتهى هذا كله بأزمة سياسية حادة ظهر في أول الأمر أن هذا الحزب السياسى الدينى هو الذى انتفع بها واستفاد منها فقد أخرج وزير من الوزارة واستقال معه طائفة من أصحابه ، فقبلت استقالاتهم في سرور وانتهاج ، واعتز رئيس الوزراء بالثيابة يومئذ بأنه نصير الدين وحاميه والدائد عن حوضه . وكان كل هذا يشد أزر الشيوخ ويقوم ايمانهم بأن النص الذى يشتمل عليه الدستور يكلف الحكومة واجبات ما كانت تتكلفها من قبل . فلم يعرف تاريخ مصر الحديث شيئا من اضطهاد حرية الرأى باسم السياسة والدين قبل صدور الدستور وحين كانت مصر خاضعة لسلطان الخلافة التركية يشبه ما كان من ذلك بعد صدور الدستور وبعد انقطاع الأسباب بين مضر وسلطان الخلافة بل بعد انهيار الخلافة نفسها .

وبهما يكن من شيء فقد استيقن رجال الدين أنهم مؤيدون
وأن لهم عضدا يستندهم فطمعوا وأسرفوا في الطمع ، ومما يظهر
هذا الطمع حادثتان : احدهما حادثة الأزياء في دار العلوم ؛ هذه
الحادثة التي وقعت فيها الحكومة موقف الخادم المطيع لصاحب
الفضيلة مولانا الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، والتي انتهت كما يعلم
الناس جميعا بشيء من الأذعان فيه افساد للأخلاق واكمراه للشباب
على النفاق . فقد أخذ طلاب دار العلوم يذهبون الى مدرستهم
في زى الشيوخ ، وقد اتخذوا من تحت هذا الزى زيا آخر يظهرونه
متى خرجوا من المدرسة . والحادثة الثانية أن بعض الممثلين هم
بالسفر الى أوروبا ليلب قصة تمثيلية فيها شخص النبي
صلى الله عليه وسلم ففضب الشيوخ لذلك وطلبوا الى وزارة
الداخلية أن تمنع هذا الممثل مما كان يريد ، وأن تتخذ لذلك
ما ترى من الوسائل حتى الوسيلة السياسية فتخاطب الحكومة
الفرنسية في أن تمنع تمثيل هذه القصة في بلادها ، وكان هذا
الممثل طيعا هينا فأذعن لأمر الداخلية ومضى الشيوخ .

واتخذت مشيخة الأزهر لنفسها منذ ذلك الوقت اسم الرياسة
الدينية العليا ، وهو اسم مبتدع لا يعرفه الاسلام ، ولا يؤمن به
مسلم يعرف واجباته الدينية حقا ، وكثرت فتاوى « الرياسة الدينية
العليا » ولم ينس أحد بعد فتواها في تحريم القلائس على المسلمين

وفي أثناء هذا كله ظهر كتاب « في الشعر الجاهلي » وهنا اصطدمت السلطة الدينية بالحرية العلمية اصطداما عنيفا ، فلم يكن صاحب هذا الكتاب من علماء الأزهر ولا خاضعا لهيئة كبار العلماء ، ولم يكن فردا مطلقا من الناس ، وإنما كان أستاذا في معهد علمي يرى لنفسه الحرية المطلقة كلها في الرأي ، ويرى لنفسه السيادة فيما يدرس ، وما ينشر لا يحده في ذلك إلا القانون ، وهنا ظهر الفرق بين الأزهريين وغيرهم من المستيرين في فهم هذا النص الذي يثبت أن الاسلام دين الدولة . فأما الشيوخ فقد زعموا أن الحكومة مكلفة لا حماية الاسلام وحده بل حماية الدستور ، لأن هذا الأستاذ قد خالف الاسلام وهو موظف يعلم أبناء المسلمين ، ويتقاضى أجره من أموال المسلمين ، وما كان لحكومة ينص دستورها أن الاسلام دينها الرسمي أن تسمح لأحد موظفيها بمخالفة الاسلام . وعلى ذلك طلبت الرئاسة الدينية العليا إلى الحكومة أن تفصل هذا الموظف من منصبه وتقفه أمام القضاء وتصادر كتبه . والناس جميعا يعلمون ماذا كان من أمر الخلاف بين الجامعة والأزهر في هذا الموضوع .

وبخلاصة هذا القصص الطويل أن هذا النص الذي أثبت في الدستور قد فرق بين المسلمين المصريين وأنشأ في مصر قوة سياسية دينية منظمة أو كالمُنظمة تؤيد الرجعية وتجر مصر جرا عنيفا إلى

الوراء ، وأنشأ في مصر خاصة وفي الشرق الاسلامي عامة هذه المسألة التي لم تكن معروفة في الشرق الاسلامي من قبل ، أثناء العصر الحديث وهي مسألة الخصومة الدينية السياسية بين العلم والدين . ولنا في حاجة الى أن نسأل أخير هذا أم شر ؟ ولنا في حاجة أيضا الى أن نسأل عن طبيعة هذه الخصومة وما ستنتهي اليه غدا أو بعد غد ، لما يكفي أن نلاحظ أن هذه الخصومة حقيقة واقعة ، وأن في مصر فريقا من الناس يمشون مع الزمن ويسايرون التطور ويريدون أن يستمتعوا وأن يستمتع غيرهم بما كفل الدستور من حرية الرأي ، وأن في مصر فريقا آخر من الناس ينكر هذه الحرية أو لا يبيحها الا بمقدار واذن فلا بد من اتخاذ موقف منتج حاسم بازاء هذه الخصومة بين أولئك وهؤلاء فما هذا الموقف وما عسى أن تكون نتائجه ؟ أما ان كان المصريون يريدون أن ينتفعوا بتجارب الأمم من قبلهم وأن يختصروا الطريق الى الرقي وأن يصلوا الى حياتهم السياسية والاجتماعية الصالحة في غير عنف ولا مشقة ولا اضطراب فسيبيلهم الى ذلك يسيرة واضحة يمكن أن تختصر في كلمة واحدة وهي أن تقف السياسة من رجال العلم ورجال الدين موقف الحيطة التامة ، وأما ان كان المصريون يريدون أن يجربوا كما جربت الأمم من قبلهم وأن يسلكوا الى حياتهم السياسية والاجتماعية الصالحة تلك

الطريق الطويلة المعوجة المتتوية التي تنبت فيها العقاب وتأخذها
الأخطار من جوانبها فسييلهم الى ذلك واضحة يسيرة يمكن أن
تختصر في كلمة واحدة ، وهي أن تستغل السياسة هذه الخصومة
بين العلم والدين فتعزز رجال العلم حيناً ، وحينئذ تضطهد رجال
الدين ، وتعزز رجال الدين حيناً آخر ، ويومئذ تضطهد رجال
العلم ، وتحتمل في سبيل ذلك من التبعات مثل ما احتملته السياسة
المسيحية حين كانت تحرق العلماء وتذيقهم ألوان العذاب لترضى
رجال الدين وحين كانت تشرد القسيسين وتهدر دماءهم لترضى
رجال العلم .

ولكن كل شيء في مصر يدل على أننا لا نريد الطرق الطوال المعوجة ، ولا نعب اضاعة الوقت ، وانما نكتفى بما جرت الأمم من قبل ، ونجنى ما ظفرت به من ثمرات الرقي : دستورنا المصرى أوضح دليل على ذلك فهو دستور حديث كحدث النظم الدستورية المعروفة وهو دستور برىء من الرجعية ومن هذا اللون من الاعتدال البطيء ، وحسبك أنا كنا نرى في نظامنا السياسى الانتخاب ذا الدرجتين ، فما كادت الأمة تتمتع بسلطانها حتى أسرع الى الانتخاب ذى الدرجة الواحدة ، وحسبك أن وزارتنا مسئولة أمام برلمانا بنفس الطريقة التى تسأل بها الوزارات أمام البرلمان فى فرنسا وانجلترا وغيرهما من بلاد أوروبا . كل هذا يدل على أننا معزومون حقا أن نختصر الطريق . واذا كانت هذه خطتنا بازاء حياتنا السياسية والاجتماعية فيجب أن تكون ، وما أشك فى أنها ستكون ، خطتنا بازاء حياتنا العلمية والدينية . على أننا مضطرون الى ذلك اضطرارا فنحن لا نحيا لأنفسنا وحدنا ، وانما نحيا لأنفسنا ولغيرنا من الأمم ، ونحن متصلون بغيرنا أم كرهنا بأهم الغرب المتحضرة ، ونحن حريصون على أن نظهر لا أقول بعطف هذه

الأمم بل أقول باكبارها لنا واحترامها لمنزلتنا السياسية والاجتماعية،
واذن فنحن مضطرون أن نساير هذه الأمم ونعيش كما تعيش
ونحن لا نستطيع أن نعيش في القرن العشرين كما كانت تعيش
فرنسا في القرن الرابع والخامس عشر بحجة أننا حديثو عهد بهذه
النظم الحديثة . نحن نريد أن نظفر من الاستقلال بما يقفنا من
انجلترا وفرنسا لتطمئن إنجلترا وفرنسا الى ما نطلب من الاستقلال
ونحن مضطرون الى أن نحاول التخلص من الامتيازات الأجنبية ،
فيجب أن نعيش في بلادنا كما يعيش الأجانب في بلادهم ، وأن
نستمتع من الحرية بمثل ما يستمتعون به ليطن الأجانب الى إلغاء
الامتيازات ، ثم نحن مضطرون الى أن نعيش ولن نستطيع أن
نعيش الا اذا اتخذنا أسباب الحياة الحديثة ، فنحن محتاجون أن
نتفح بالبخار والكهرباء ونستغل الطبيعة كلها لحياتنا ومنافعنا ،
والعلم وحده سبيلنا الى ذلك وهو سبيلنا الى ذلك على أن ندرسه
كما يدرسه الأوروبيون لا كما كان يدرسه أبائنا منذ قرون وويل
لنا يوم نعدل عن ملب باستور وكلود برنار الى ملب ابن سينا ودأود
الانطاكي . وهذا العلم الحديث الذي لا نستطيع أن نستغنى عنه
لا يمكنه أن يعيش ولا أن يثمر الا في جو كله حرية وتسامح فنحن
بين اثنتين : اما أن نؤثر الحياة واذا فلا مندوحة عن الحرية واما أن
نؤثر الموت ، واذا فلنا أن نختار الجبود .

١ الأدب والأدباء

لم أكن في مصر حين سأل « أحد الأزهرين » كتابا من كتاب السياسة اليومية عن الأدب والأدباء ، وحين تفضل هذا الكاتب الأديب من « كتاب السياسة » فأحال سائله على « أساتذة الأدب في جامعه والمدارس العالية » ولو كنت في مصر حين ألقى هذا السؤال وكانت هذه الاحالة لما أجبت ولا فكرت في الاجابة ، لأنى أعرف هذا الكاتب الأديب من كتاب « السياسة » وأعرف مكره الظريف ، وأعرف أنه يحب دائما أن يظهر ويلهى الناس بالخصومة بين الكتاب ولا سيما أنصار القديم والجديد منهم . وأذكر أنه تكلف هذه الحيلة في السنة الماضية فأنخذعت له طائفة من الكتاب والأدباء ، واختصموا في القديم والجديد ، وضحك منهم ماكرنا الظريف ، كما ضحك منهم ماكرون آخرون ليسوا أقل من صاحبنا مكرا وظرفا . ومع أنى لا أكره لماكرنا الظريف هذا أن يظهر ويضحك فقد أبيت في السنة الماضية أن أليه وأضحكه . ولو كنت في مصر حين سئل وأحال هذه السنة لتركت الهاء واضحاكه

للأستاذ الجليل الشيخ علام سلامه ومن اليه من هؤلاء الذين يرون
الجد حيث لا يكون الا الهزل والدعابة فيجدون ويتكلفون ويضحك
من يريد أن يضحك ويلهو من يريد أن يلهو ، ويستريح كتاب
« السياسة » من بعض الجهد لأنهم يجدون من يملأ لهم أنهارا ،
ويضيئون أحيانا لأنهم يضطرون الى نشر ما يكرهون والى ارجاء
ما يؤثرون نشره . ولكننى عدت الى مصر وكان أول ما استقبلته
من الحياة الأدبية هذا الفصل المتع الذى نشرته « السياسة
الأسبوعية » الماضية للأستاذ الجليل الشيخ علام سلامة المدرس
بمدرسة دار العلوم . ولست أدري لم أحسست ميلا شديدا جدا
الى الكتابة بعد أن فرغت من قراءة هذا الفصل . ولست أدري لم
رضيت أن ألهى ما كرنا الظريف وأضحكه هذه المرة وقد كنت أكره
ذلك وآباء من قبل ...

فقد قرأت كلاما كثيرا متعا يشبه هذا الكلام المتع الذى
نشره الأستاذ الشيخ علام ، وأنا أنفق حياتى فى قراءة كلام كثير
يشبه هذا الكلام فلا أحس ميلا الى الكتابة ولا أجد من نفسى
رغبة فيها ولعل مصدر هذا الميل أن الأستاذ الشيخ علام قليل
الكتابة فى الصحف ، أو أنه قليل الكتابة المضافة فى الصحف ،
فلا أقل من أن تتلقى فضله المتع بشئ من التخية وتنسى أن يطلق
الله قلعه فيسطر لنا فى كل أسبوع فصلا يذهب فيه هذا النحو بين
مذاهب البحث اللذيذة الممتعة .

ولعل مصدر هذا الميل أيضا أن الأستاذ الشيخ علام قد وعد في آخر فصله المتع بأن يتورط فيما تورط الكتاب فيه من أمر القديم والجديد وأن لم تكن هناك صلة بين فصله المتع وبين القديم والجديد . مهما يكن من شيء فأنا أريد أن أكتب في هذا الموضوع ، وأن أبدأ بتحية الأستاذ الشيخ علام وتهنئة الصحف بفصوله الأدبية القيية التي بدأت بدءا حسنا والتي ستتصل اتصالا حسنا إن شاء الله ولو أن لي أن آخذ الأستاذ الجليل بشيء في هذا الفصل لوقفت معه وقلقات قصيرة عند مسائل يسيرة يحسن أن نلم بها المأما ، لأن الأمانة العلمية تريد هذا الامام .

فصل الأستاذ الشيخ علام يذكرني بطائفة من الكتاب والعلماء مات بعضهم منذ قرون وتوفي بعضهم منذ سنين ولا يزال بعضهم حيا يتنفس من هواء مصر ويشرب من ماء النيل . وكنت أحب للأستاذ الشيخ علام أن يسمى هؤلاء العلماء والكتاب أو يومىء اليهم ليعرف الناس ما لهم وماله ، ففى ذلك وفاء لهؤلاء العلماء والكتاب ، وفى ذلك المصاف للأستاذ الشيخ علام نفسه .

فمن يدرى لعل الأستاذ قد أضاف من عنده الى ما قال أولئك الكتاب والعلماء أشياء قيمة عظيمة الخطر لا ينبغي أن تضاف الى غيره ، واذا أذن لي الأستاذ أن أنصفه وأنصف أصحابه فاني أسس منهم ثلاثة أو أربعة من غير اطالة ولا املال .

فأما أولهم فصاحب « لسان العرب » ، فقد يظهر أن الأستاذ عندما أراد أن يبين المعنى اللغوي لكلمة الأدب نقل ما جاء في اللسان نقلا في غير تحفظ ولا فقه ولا نقد ولا احتياط . نقل ما جاء في « اللسان » حتى الشواهد نظما ونثرا وحتى وصف البعير بأنه أديب . وربما كان هذا النقل مفيدا . وهو على كل حال حق للأستاذ . ولكن من حق صاحب اللسان أو من حق أصحاب المعاجم أن يشار إليهم إذا نقل عنهم .. ومن حق القراء أن يعرفوا أن ما يكتبه الأستاذ قد نقل نقلا أو استنبط استنباطا .

وأما الثاني فالمرحوم اليازجي صاحب « مجلة الضياء » . فأنا أذكر أني كنت أقرأ في هذه المجلة أيام الصبا ، وكنت أحب هذه المباحث اللغوية التي كان يعرض لها صاحب هذه المجلة ، والتي كان يبين لنا فيها كيف تختلف الكلمات في حرف واحد يقع أول الكلمة أو آخرها أو في وسطها فلا يكون هذا الاختلاف دليلا على بعد ما بينها في المعنى وإنما يكون دليلا على تقاربها في المعنى كما تقاربت في اللفظ كوكز ولكز ونكز ووهز ولهز ونهز ، وعمز ولمز وهمز ، ولطم ولكم ولدم ولتم ، ولنت أدري لم نسي اللثم ، قرب لثة أشبهت لطمه ! وأظن أن من حق اليازجي أن يذكر كصاحب « اللسان » ويخيل إلى أن للأستاذ الشيخ علام زميلا في دار العلوم هو الأستاذ الشيخ أحمد عمر الاسكندر يذهب هذا

المذهب فيما يسميه فقه اللغة ويدرسه درسا مفصلا لتلاميذه ،
وأحسب أنه قد أمعن في هذا البحث امعانا قيبا فكان من حقه أن
يذكر أيضا .

ثم أذكر رجلا آخر كان من الحق أن يذكر ويشئ عليه وهو
مصطفى صادق الرافعي ، فقد بحث مصطفى صادق الرافعي في
كتابه عن كلمة الأدب وألوارها ومعانيها ، ومن الغريب أن الشبه
شديد جدا بين بحث الأستاذ الشيخ علام وبحث الأستاذ الرافعي
وكل ما بينهما أن الرافعي قرأ اللسان وفهمه ولم يأخذ منه
إلا ما احتاج إليه ، وأن الشيخ علام نقل اللسان نقلا في غير نقد
ولا فقه كما قلت ، وأن الرافعي رأى نصوصا تضاف إلى القدماء
شك في صحتها فنفي بعضها وأعرض عن بعضها الآخر . وأن الشيخ
علام أخذ هذه النصوص على علاتها في غير نقد ولا فقه أيضا ،
وأن الرافعي رأى نصا أضافه صاحب « العقد الفريد » إلى ابن
عباس ، وأضافه الجاحظ إلى حفيد ابن عباس فدرس وآثر رواية
الجاحظ عن نقد وفقه ، وأن الشيخ علام لم ينقد ولم يحاول الفقه
وإن ردد الرواية بين الرجلين ترديدا دون أن يشعر بالأثر العظيم
الذي ينشأ عن صحة إحدى الروايتين لا أقول في صحة كلمة
الأدب ، بل أقول في تاريخ العلم نفسه ، فلو صحت رواية العقد
الفريد لكان عبد الله بن عباس عالما بأصول النحو ملما بأصطلاحاته
قبل أن تتم نشأة النحو .

فأنت ترى أن الأستاذ الشيخ علام ظلم نفسه وظلم طائفة من
الذين سبقوه وعاهدوه حين أرسل فصله ارسالا دون أن يسمى من
أخذ عنهم أو سار سيرتهم في البحث ، وقد علم الله ما أعطى على
الرافعى ولا أميل الى فنه ، ولكنى أحب أن أنصف الرجل وأشهد
أن فصله أمتن وأقوم وأدل على الفقه من فصل الأستاذ الشيخ علام.



وأنا بعد أخائف الرجلين جميعا في أصل هذه الكلمة . أخافيهما
لأن مذهبهما لا يقنعنى ، فأنا لا أفهم هذه الصلة التى يتكلفانها
ويتكلفها من قبلهما أصحاب المعاجم بين لفظ الأدب وبين هذا
الفعل المعروف « أدب الناس اذا دعاهم الى الطعام » ولست أريد
أن آخذ في مناقشة لغوية تثقل على قراء « السياسة » وتمل هذا
المآكر الذى اضطررتى واضطر الشيخ علام الى الكتابة فى هذا
الموضوع ، وإنما أقول فى إيجاز الى أذهب فى أصل هذه الكلمة
مذهب الأستاذ نالينو وآخذها من الدأب بتقديم الدال على الهمزة
المفتوحة ومعناه العادة والشأن والحال . ولست أرى شيئا من
الغرابة فى أن تكون كلمة الدأب قد استحالت الى كلمة الأدب
فقدمت العين فيها على الفاء قللا ، ولا سيما اذا لوحظ أن هذا
النقل مألوف فى الجمع فقد جمعت الكلمة على أَدَآب ثم وضعت
عينا موضع الفاء فقليل آداب كما قيل آرام وآبار ثم خيل الى

الناس أن كلمة الآداب هذه جمع أدب لا جمع دأب فنشأ هذا التمهيد واشتق منه التأديب وأصله فيما يظهر تعليم الناس ما ورث من العادات والسنن ، أى تعليمهم ما ورث من الآداب بتقديم الدال ، وأكبر الظن أن كلمة الأدب وما اشتق منها محدثة . أريد أنها نشأت بعد الاسلام لا قبله . وقد لاحظ الرافعى أن هذه الكلمة على خفتها وطرफها لم تستعمل قافية فى الشعر القديم . وأراد الأستاذ الشيخ علام — فيما يظهر — أن يرد على الرافعى من طرف خفى فروى البيت الذى يضاف الى أم ثواب والذى رواه صاحب الحماسة :

أنشأ يمزق أثوابى ويضربنى

أبعد شيبى يبعى عندى الأدبا

وفى البيت رواية أخرى . « أنشأ يمزق أثوابى يؤدبنى » ، وفيه رواية أخرى : « أبعاد شيبى عندى يبتغى الأدبا » وحسبى أن تختلف الروايات فى البيت الى هذا الحد لأشك فيه ولا أتخذها أساسا للغة .

ولست أدري أوفق الرافعى أم لم يوفق حين قال ان هذه الكلمة لم ترد قافية فى الشعر القديم . ولكن هذا لا يعنينى ، فأرى فى الشعر الذى سبق الاسلام معروف ، فهو عندى لا يثبت شيئا ولا يصلح دليلا على شيء . فاذا ثبت استعمال الكلمة فى الشعر

الذى نظم بعد الاسلام فذلك لا ينقض ما اذهب اليه من أن هذه الكلمة حديثة عرفت بعد القرآن . وما يرجع هذا أن الأستاذ الشيخ علام نفسه يقول فى شىء من الحزن والرتاء ، أن هذه الكلمة قد أدركتها حرفة الأدب فلم تذكر فى القرآن والحق أنها لم تذكر فى القرآن ، وإنما ذكر فى القرآن الدأب بنسكون الهمزة ومعناه العادة كالدأب بتحريكها . والأمر لا يقف عند هذا الحد ، بل إن هذه الكلمة لا توجد فى اللغات السامية المعروفة . واذن فهى كلمة عربية خالصة للعرب دون غيرهم من الشعوب السامية . وتظن أنها من هذه الكلمات التى نشأت عندما تطورت لغة قريش واتسعت هذا الاتساع العظيم بعد ظهور الاسلام .

أنا اذن لا أوافق الرافعى ولا الشيخ علام فى اشتقاق الأدب من الأدب بمعنى الدعاء ، ولكنى لا أرى بأسا بما كتب الرافعى فى كتابه عن معانى هذه الكلمة وأطوارها وإن كان قد أوجز هذا البحث ابجازا شديدا .

وسواء أكانت كلمة الأدب مشتقة من الأدب أو من الدأب فإن الخلاف بين الشيخ علام وبينى لا يقف عند اللفظ وإنما يتجاوزه الى المعنى أيضا . ولست أريد أن أناقش الأستاذ فى المعانى القديمة لهذه الكلمة ولا أن أقف عند هذا الكلام الذى يضيفه الى النبى

وعمر وعلى معاوية في غير نقد ولا احتياط ، وانما أقف عند جملة واحدة أرى أنها تشخص الأستاذ الشيخ علام وأصحابه من أنصار القديم تشخيصا مضحكا . وهذه الجملة هي قول الأستاذ :

« وكل علم من العلوم له غاية ينتهى عندها فتكمل مباحثه الا هذا العلم وعلم التاريخ فانهما يزيدان كل يوم ولن يزالا في نمو مطرد » وما كنت أعرف قبل اليوم أن « لكل علم غاية ينتهى عندها فتكمل مباحثه الا علم الأدب والتاريخ » حتى جاء الأستاذ فأناهى بهذا النبأ الغريب الذى هو فصل ما بين أنصار القديم وأنصار الجديد . فنحن نعلم أن الحركة العلمية لن تنتهى من فرع من فروع العلوم الا يوم يفنى العقل الانسانى ويحال بينه وبين البحث والتفكير ، ولا أعرف علما من العلوم انتهى عند غايته وكملت مباحثه وقيلت فيه الكلمة الأخيرة ، وانما أعرف أن كل علم قابل لأن يتغير ويتجدد ويحذف جعودا . وقد كان أهل القرون الوسطى يعتقدون أن علم الفلك قد انتهى عند غايته ، وكملت مباحثه ، وقيلت فيه الكلمة الأخيرة ، ثم جاء من أنبأ ثم بأن العلم لم يبدأ وانما هي كرة منتقلة متحركة ، وأن أفلاك السماء لم يستكشف منها الا أقلها وأضالها . وكانوا يعتقدون أن فلسفة أرسطاطليس هي خاتمة الفلسفة وخالاصتها ، وكلمتها الأخيرة ، فجاء ديكارت

وأنبأهم أن فلسفة أرسطو ليس هي بدء الفلسفة لا آخرها
ولا وسطها . وكان الناس منذ سنين يرون أنهم قد وصلوا في
الطبيعة والرياضة الى نتائج علمية بعيد أن تنقض ، فجاء هنري
بوانكاريه ، واينشتاين ، وأظهروا أن نقض هذه النتائج ليس بالشئ
المستحيل .

ولعل الأستاذ الشيخ علام يمتدح أن الأمر في العلم كالأمر في
النحو عند صاحب الورقة الصفراء الذي كتبت له قواعد فحفظها ،
وخيل اليه أنه قد حفظ النحو كله . نعم هذه الجملة تشخص الغلاة
من أنصار القديم تشخيصا لذيذا ، فهم يرون أنه يكفي أن يحفظ
أحدهم جملا من العلم ليكون قد ألم بالعلم كله . ولعلمهم يمتازون
بأنهم يؤمنون بأن كل شئ قد انتهى وأقفل بابه ، فلا يمكن أن
يضاف اليه ولا أن يزداد فيه . ولقد جاء الأستاذ الشيخ علام
بمعجزة حين استطاع أن يعلن أن الأدب لا ينتهي عند غاية ،
ولا تكمل مباحثه كما تكمل مباحث العلوم الأخرى . وما رأى
الأستاذ اذا قلت له ان النحو لم تكمل مباحثه بعد ، رغم ما كتبه
سيبويه وابن خروف وابن عصفور وابن هشام وابن مالك ومن
اليهم من أعلام الشرق والغرب الاسلاميين ؟ بل ما رأى الأستاذ
ان قلت له ان كل علوم اللغة العربية لم تنته عند غايتها ولم تكمل
مباحثها ، بل هي في حاجة الى التجديد واستئناف الدرس ، ولا سيما

النحو والصرف وعلوم البلاغة ؟ وما رأى الأستاذ ان قلبت له ان
الأدب العربى كله محتاج الى التجديد واستئناف الدرس ؟

هنا يظهر الفرق بين الأستاذ وبينى . ولاظهار هذا الفرق فى
الفهم والفقه والمنهج كتبت هذا الفصل الطويل . يرى الأستاذ
وأصحابه أن لكل علم غاية يقف عندها ، وتكمل مباحثه الا الأدب ،
فهو لا ينتهى عند غاية ، وانما يزداد فى كل يوم . ونرى نحن أن
ليس لعلم من العلوم غاية ينتهى عندها ، وأن لا أمل فى أن تكمل
مباحث علم من العلوم ، وانما كل شئ فى العلم قابل للتغير ،
وامتشاف البحث عنه ، والأدب أشد أنواع العلم قبولاً للتغير
والتجديد .

وهنا نقف عند تعريف الأستاذ الشيخ علام للأدب وقفة
قصيرة ، فهو تعريف قديم يحتاج أيضا الى التجديد . وأنا أهمل لك
هذا التعريف الذى يقول عنه الأستاذ انه موجز وانه منطقى ،
فسترى أنه ليس من الإيجاز ولا المنطق فى شئ . قال الأستاذ :

« هو علم مأثور الكلام منشوره ومنظومه قديمه وحديثه
وما يتصل بذلك من أخبار بارعة ونوادر رائعة وملح مستعذبة
وطرف مستغربة مع الإلمام من كل علم بأهميات مباحثه » .

ولست أحفل بهذه السجعات الرائعة البارعة ، فأنا أراها أقرب
الى اللغو منها الى أى شئ آخر . ولكنى أبحث عن الإيجاز فى

هذا التعريف فلا أظفر به . أما المنطق فلنبحث عنه معا . أيهما أديب :
من حفظ مآثور الكلام نظما ونثرا ولقنه الطلاب أم من أنشأ هذا
الكلام المأثور ؟ وأيهما الأدب : حفظ مآثور الكلام أم انبثاؤه ؟
واذن فما رأى الأستاذ الشيخ علام في نفسه ، أديب هو لأنه يحفظ
مآثور الكلام نثرا ونظما ، ويلقنه للطلاب ، ولكنه ليس شاعرا
ولا نائرا ؟ وإذا لم يكن شاعرا ولا نائرا وكان أديبا فما رأى في
شوقي أديب هو أم غير أديب ؟ وإذا لم يكن هو أديبا وكان
الأديب هو الشاعر النائر ليس غير ، فما رأى في نفسه وأمثاله من
الذين يدرسون الأدب ويفرغون له ، وفي أى طبقة من طبقات العلماء
ينسبهم ؟ وفي أى مكانة يتزاهم ؟ ألا يرى الأستاذ أن تعريفه ليس
منطقيا لأنه لا يمنع ولا يجمع ؟ وما معنى قوله علم مآثور الكلام ؟
وهنا أحب أن أكون أزهريا ، أريد العلم بمآثور الكلام فلا يكون
هو أديبا لأنه ليس من الذين ينتشون هذا المآثور ؟ ونحن نستطيع
أن ندور مع الأستاذ في هذه الدائرة الى غير حد ، ولكننا نقف
ونلاحظ أن تعريف الأستاذ لم يفن شيئا .

وفي الحق أنى أميل أن أقسم الأدب الى قسمين : أدب المنشئين
وأدب الناقلين الدارسين ، أو قل أدب الكتاب والشعراء وأدب
العلماء من المؤرخين والناقلين ، فشوقي أديب ، وهو الأديب

حقاً ، لأنه ينتج الأدب اقتاجاً ، وهو أديب منشيء ، ولكنه ليس عالماً بالأدب لا يستطيع درسه ولا تصويره ولا تعليمه ولا تأريخه ، والشيخ علام أديب ولكنه ليس أديباً منشئاً لأنه ليس شاعراً ولا فائراً ولا صاحب فن وإنما هو حافظ لآثار الكتاب والشعراء يرويها ويلقنها وينقدها ، يوفق في ذلك حيناً ويخطئه التفريق حيناً . والأدباء المنشئون يختلفون : فمنهم النابغة الغد ، ومنهم المتوسط ، ومنهم المسف . والأدباء والعلماء يختلفون : فمنهم المجود ذو الرأي ، ومنهم الآلة الحاكية أو البهاء .

وأولئك وهؤلاء تختلف مذاهبهم في انشاء الأدب ودرسه : فمنهم المقلد ، ومنهم المجتهد المبكر ، ومنهم من يذهب مذهب الحرية ومنهم من يؤثر مذهب الرق ، ومنهم من ينحو نحو الفلسفة ، ومنهم من ينحو نحو النقل والرواية ، وأين هذا كله من التعريف الذي جاء به الشيخ علام من إيجاز ومنطق كما يقول ! ولكنني قلت لك منذ حين إن الأستاذ الشيخ علام يمثل أنصار القديم حقاً ، فتعريفه قديم ، ألم يعتمد فيه على ابن خلدون ؟ وأسلوبه في هذا التعريف قديم ، ألم يسجع كأهل القرن الرابع ؟ ألم يهطنع فيه ألفاظ هؤلاء الناس ؟

الأستاذ وأمثاله -- كما قلت في الشعر الجاهلي -- كتيب قديمة متحركة أو قطع من كتب وصل بعضها ببعض .

ولنفرض من مناقشة الأستاذ ، ولنحب ماكرنا الظريف وسأله -
الذى اضطرنا الى هذا العناء كله . فالأدب عندنا أديان : أدب
إنشاء ، هو هذا الذى ينتجه الكتاب والشعراء من أصحاب الفن .
وأدب علم ودرس ، هو هذا الذى ينتجه النقاد ومؤرخو الآداب .
والأدب الأول فن كله ، والأدب الثانى مزاج من الفن والعلم .
وقوام الأديبين شخصية الأديب التى يجب أن تظهر فى كل ما يصدر
عنه ظهورا واضحا .

وقوام الأديبين أيضا اتصال الأديب بعصره اتصالا يمكن من
تمثيل ذوقه الفنى ان كان منشئا ، وحياته العقلية ان كان ناقدا
أو مؤرخا . ليس أديبا منشئا هذا الذى ينظم الشعر فلا يتجاوز
ما قال القدماء فى اللفظ والمعنى والأسلوب . وليس أديبا ناقدا هذا
الذى يدرس الأدب فلا يتجاوز ما قال المبرد والجاحظ وأبو الفرج
وصاحب العقد الفريد ، وإنما الأديب المنشئ من يقرأ معاصروه
أدبه فيرون فيه أنفسهم وإنما الأديب الناقد من يقرأ معاصروه نقده
فلا يشعرون بأن بينهم وبينه بعد ما بينهم وبين القدماء .

وهنا تسألنى : ماذا تصنع بالقدماء ؟ والجواب يسير : أصنع
بالقدماء ما صنعوا هم بأنفسهم ، فأنا ألتبس عصورهم فى هذه
المرأة ، ولا ألتبس منهم العصر الذى أعيش فيه . ولقد كنت
أضرب منذ أيام مثلا للأدباء من أهل مصر : ما رأى أنصار القديم
لو طلبنا اليهم أن يهمل ما وصل اليه العلم الحديث فى الطبيعة
والطب ، وأن يعتمد فى كليتى العلوم والطب على إشارات ابن سينا

وقانونه ، أيرضون أم يصيحون ويستغيثون ؟ لا أشك في أن
الأستاذ الشيخ علام يستغيث بالله والناس يوم يعرف أن طب
« باستور » و « كلود برنار » قد أهمل ، وأن طبيبه سيعالجه منذ
اليوم كما كان يعالج ابن سينا أو الحارث ابن كلفة أو داود
الأنطاكي .

ومع ذلك فالأمر في الأدب كالأمر في الطبيعة والطب ، لا ينبغي
أن يهمل طب ابن سينا وطبيعته لأنهما يمثلان عصرا من عصور
الحياة العلمية ، فهما يدرسان على أنهما فصل من تاريخ الطب
والطبيعة ولا يهمل أدب المبرد والجاحظ ، لأنهما يمثلان مظهرا من
مظاهر الحياة الأدبية ، فهما يدرسان على أنهما فصل من تاريخ
الأدب ؛ ولكننا نجد الأدب درسا وإنشاء كما يجدد الطبيعيون
والأطباء طبيعتهم وطبهم عملا ونظرا .

فما رأى الأستاذ الشيخ علام وأصحابه في هذا الكلام ؟ أما
أنا فوائق أنهم ينكرون الإنكار كله ولا يطمثون إليه . وهم
مكرهون على هذا الإنكار ، فلو قد قبلوا ما ندعو إليه لما استطاعوا
أن يعيشوا . ذلك أنهم غير قادرين على التجديد ، هم يؤثرون
القديم ، ومن القديم يعيشون . أما نحن فلا تؤثر القديم ، ولا تؤثر
الجديد ، لأننا لسنا في حاجة إلى أحدهما لنعيش ، وإنما تؤثرهما
معا وندرسهما معا لأننا لا نبقى إلا العلم ، والا العلم خالصا من
كل شيء .

٢ خطرات نفس للركتور منصور دهمي

كنت أتعهد منذ أشهر الى عالم كبير من علماء الفرنسيين في مصر ، وكان يشكو الى أن أعماله الادارية تستغرق أكثر وقته وتصرفه عن الدرس ، بل عن متابعة الصحف والمجلات العلمية التي تعنيه ، لأنها تتصل بالمادة التي يدرسها . قال : فإذا كان الشتاء شغل العلماء في مصر عن علمهم بهذه الحياة الاجتماعية العتيقة المنقصة بالزيارة والاستقبال ، والتي تلتهم آخر النهار وشطرا من الليل في أكثر أيام الأسبوع . فالعالم في مصر مضيق للوقت والجهد ، يصرف وجه النهار في حياة يومية عادية هي قوام عيشه ، وينفق آخر النهار في حياة اجتماعية خاملة هي قوام مركزه في الدائرة الاجتماعية التي يدور فيها ، وهو ان فرط في تلك الحياة الادارية مقصر يتعرض للوم واحتمال التبعات الثقيلة . وان قصر في هذه الحياة الاجتماعية أنكرته بيئته ، وأعرض عنه نظراؤه ، واتهم بالكبرياء والفتور والخفوة والاهمال . وكل هذه خصائل لا يجب أن يتصف بها الرجل الذي يريد أن يعيش في مصر هادئا مطمئنا .

فاذا فرغ العالم من حياته الادارية والاجتماعية فقد اقضى النهار وتقدم الليل ، وينظر فاذا هو أمام حقوق لأهله لم يؤد منها شيئا وأمام حقوق لنفسه لم يفكر فيها ، ثم يقهره ضعف الجسم قياوى الى مضجعه يقضى فيه بقية الليل بين أرق مضن ونوم ثقيل ثم يستقبل غده بمثل ما أنفق فيه أمسه . وعلى هذا النحو تمر الأيام والأسابيع والشهور ، والعالم منصرف عن علمه منهمك فيما لا يجد فيه لذة ولا غناء .

قال صاحبى ، وأستطيع أن أؤكد لك أنى اذا خلوت الى نفسى — وقلما أدخلوا اليها — وفكرت فى ذلك ضاقت بى الحياة ، وضقت بها ، واستيقنت أن حياة العلماء فى مصر تضحية مؤلمة مستمرة . فالتاس فى بلادنا لا يتقلون العلماء بأعباء الزيارة والاستقبال ، ولا يشقون عليهم بالدعوة الى الشاى والمشاء ، والسيدات لا يتخذن زينة يظهرنها فى غرفات الاستقبال كلما خطر لهن أن يستقبلن أو فى الحفلات الساهرة كلما خطر لهن أن يحتفلن .

ولو أن رجال السربون والكوليج دى فرانس اختلفوا الى غرفات الاستقبال وشهدوا ما يقام فى باريس من حفلات فى الليل وأخرى فى النهار لما كانت السربون والكوليج دى فرانس عقل فرنسا المفكر وقلبها النابض الحساس .

قلت : ومع ذلك فقلما تدخلوا غرف الاستقبال الباريسية من عام أو أديب يلتف حوله السيدات ، فيلقين عليه أسئلة حلوة مريحة؛

ويسمعن منه أجوبة عذبة مرضية ، فيها فكاهة لا تخلو من مرارة ، وفيها جد لا يخلو من سخرية . وأحسب أن الفرق بين فرنسا ومصر انما هو كثرة العلماء والأدباء في الأولى وقلتهم في الثانية . فعندكم من العلماء والأدباء من يفرغون للجامعة ، ويعكفون في المعامل وهور الكتب . وعندكم من العلماء والأدباء من يشهدون المحافل ، ويزينون المجالس ، ويرضون حاجة السيدات الى المفاخرة بمن يحضر يوم استقبالهم من رجال العلم والأدب والحرب والسياسة والقضاء . أما نحن فالمستثيرون عندنا قليل فضلا عن العلماء والأدباء التميزين . فليس عجيبا أن تشق الحياة على الظاهرين من علمائنا وأدبائنا ، وأن تتخطفهم المجالس وتتنافس غرف الاستقبال أيها يزدان بأكبر عدد ممكن منهم .

قال صاحبي : ليكن مصدر ذلك ما تحب أن يكون ، ولكن الشيء الذي لاشك فيه هو أن نتيجة ذلك ثقيلة مؤلمة . فلو قد رأيت ما يجتمع في مكتبي من الصحف والمجلات والرسائل والكتب التي تنتظر أن أقرأها لراغك الأمر . وجاءت سيدة ففرقت بين صاحبي وبينى بابتسامة عذبة ومزاح ظريف .

كنت أفكر في هذا الحديث منذ أيام حين كنت أستعد للسفر وحين كان صاحبي يسألني عما أريد أن أسطع من كتب ، فتأخذني حيرة لا أكاد أصفها ولا أصورها .

فقد انقضى العام ولم أقرأ شيئا . هذه كتب قديمة طبعت

واستخرجت من دور الكتب في الشرق والغرب ، ومن الحق على
لنفسى أن أقرأها أو أنظر فيها ، وقد كنت أتحرق شوقا إليها قبل
أن تقدمها الى المطبعة وتجعلها يسيرة قريبة المنال : وهذه مقالات
نشرها العلماء المستشرقون في مجلاتهم المختلفة ، ومن الحق على
أن أقرأها أو ألم بها لأعرف ما يقول الزملاء فيما أفرغ لدرسه من
العلم . وهذه مقالات نشرها الأدباء المعاصرون في مصر ، وحفظها
صاحبى لأقرأها متى أتيج لى الوقت ، فمن الحق على أن أعرف
ما يقول المعاصرون من المصريين والشرقيين لأعيش على بصيرة
وفهم للعصر الذى أحيأ فيه . وهذه كتب ألفها فلان وفلان من
الأصدقاء أو من الأدباء المشيزين ، ومن الحق على لنفسى واهؤلاء
الأدباء أن أقرأ ما يكتبون لأحيأ على أقل تقدير حياة الرجل المثقف
الذى يلم بما يظهر حوله من فكرة أو رأى أو مذهب . كل هذا
مجمع فى مكتبى وصاحبى يسألنى عما أحب أن أحمل منه الى
أوربا . ومهما تكن رغبتى فى القراءة شديدة أثناء هذه الرحلة فأنا
أحب أن أقرأ ما سأجده فى أوربا من كتب وصحف . وأنا لا أذهب
لأوروبا للقراءة وحدها وانما أريد أن أستريح وأن أرفه على النفس ،
أطوف فى الأرض وأشهد الملاعب وأسمع للموسيقى والغناء ،
فالطاقة محدودة ، والوقت محدود ، وهذه زوجى تلفتنى الى أن
الحقائب محدودة أيضا ، والى أنها لم تصنع لتفعم بالكتب ، وانما

صنعت لتوضع فيها الثياب ، وما يحتاج اليه المسافر من أدوات
ليس الى الاستغناء عنها من سبيل ، وهى تحدد ما أستطيع حمله
من كتب على أن يوضع بعضه فى هذه وبعضه فى تلك ويحمل
صاحبى بعضه الآخر فيضعه فى حقيته . وأنا أضيق بهذا كله
فأكره الإقامة والسفر وأمقت الجهد والكسل ، ثم أخرج عن طورى
فأفرض كتباً لابد من حملها مهما يكن من شئ ، وأترك لزوجتى
وصاحبى أن يتخيروا بعد ذلك ما يشاءان وما تتسع له حقائبهما من
هذه الكتب المقدسة .

وقد وصلت الآن الى فينا ، واستقر بى المقام فيها أنتظر مؤتمر
المستشرقين ، وأنا أسأل صاحبى : ماذا حملت من كتب المعاصرين ؟
فيجيب مبتسماً : لقد حملت ما تحب أن تقرأ : حملت كتاب
التراجم لهيكل ، وحملت كتاب البهاء زهير لمصطفى عبد الرازق ،
وحملت كتاب خطرات نفس المنصور فهمى . لقد وقفت الى حسن
الاختيار ولكن ألم تحمل مصرع كليوباترة لشوقي ؟ قال صاحبى
دهشاً : ولم أحمله وقد قرأته فى الصيف الماضى ؟ وأنكرت من
صاحبى اهمال هذا الكتاب ، فقد كنت أحب أن أعيد النظر فيه
فأنكرت جوابه ، فقد كنت أحب أن أتحدث عن هذا الكتاب الى
الناس ، ولكن لابد مما ليس منه بد . فالأقرأ ما بين يدي ، ولابدأ
بآخر هذه الكتب ظهوراً وهو خطرات نفس . ولست حديث عهد
بهذا الكتاب فقد تبعته منذ نشأته الأولى وسائرته نحو خمس عشرة

سنة حين كانت فصوله المختلفة تنشر في الصحف شيئا فشيئا ،
فأرى بعضها قبل أن يظهر ، وأرى بعضها مع غيرى من القراء .
وكنت من الذين طلبوا الى منصور أن يجمع هذه الفصول في
سفر مستقل كما تفعل جميعا حين تؤولف من فصولنا التي تنشرها
الصحف أسفارا تجمع متفرقاتها ، وتسهل على الناس قراءتها
والرجوع اليها . وإذا كان صديقنا منصور حريصا على أن
يجمع خطرات نفسه لأنها تمثل صباه وشبابه ، وهو يحب
أن يرجع الى ماضى حياته ليحب ما فيه من ذكرى ، فان أصدقاءه
يحرصون على مثل ما يحرص عليه لأنهم يحبون أن تجتمع
لديهم حياة صديقهم في صباه وشبابه وكهولته . فيقفوا عند
هذه الحياة وقفات فيها حب ومودة ووفاء ، وربما كان فيها
عتب وخصومة واختلاف في الرأي فيها يكن الكاتب مستقلا
قوى النفس عظيم الشخصية ، فهو متصل ببيئته ، متصل بمباصره
بلائهم أحيانا فيرضون وينافرون أحيانا أخرى فيتكرون . وكذلك
حياة الأديب في كل بيئة وفي كل جيل : هو مخدوع ، يحسب أنه
يكتب لنفسه لأنه يحس من العواطف والأهواء ما لا يجد بدا من
اعلانه ، فهو يرفه على نفسه حين يكتب أو ينظم الشعر ، ولكنه
في حقيقة الأمر يكتب للناس ، ذلك بأنه كائن اجتماعي محتاج الى
أن يعطى الناس ، ويأخذ منهم فهو لا يستطيع أن يكتفى بما يحس
في نفسه ، بل لابد له من أن يشرك الناس فيما يحس .

وقد يوفق الى ما يريد فيشاركه الناس فيما يحسن ويرى ،
وقد لا يوفق فلا يشاركه منهم أحد أو لا يشاركه منهم الا القليل .
ويخدع الأديب نفسه من ناحية أخرى حين يآلف الاذاعة
والنشر ويحسن من الناس ميلا اليه ، ورغبة في آثاره ، فيمضى في
الاذاعة والنشر معتقدا أنه يكتب للناس ، وهو في حقيقة الأمر
يكتب لنفسه لأنه أحب رضا الناس عنه ، وميلهم اليه وكلفهم به ،
فهو يستزيد حين يكتب من هذا الرضا والميل والكلف . فاذا زعم
الأديب أنه يكتب لنفسه وحدها فهو مخطيء . وانما الحق أنه حين
يكتب يؤدي عملا اجتماعيا فيه له وللناس لذة ومتعة . ومهما يكن
الحاح الملحين على أخذنا في جمع ما تفرق من آثارنا ، ومهما يكن
ترددنا في الاستجابة لهذا الالحاح ، فان الأسباب التي دعتنا الى
نشر فصولنا في الصحف هي بنفسها التي تدعونا الى أن نؤلف من
هذه الفصول أسفاراً تذاع مرة أخرى في المكتبات بعد أن أذيعت
في الصحف اليومية أو الأسبوعية أو الشهرية .

وبينما كنت أقرأ هذه المقدمة الطريفة التي قدمها منصور بين
يدى هذه الخطرات في طورها الجديد لفتتني حاشية قرأتها مرة
ومرة فأنكرتها بمض الشيء ، ذلك أن صديقنا يزعم فيها أنه لم يغير
من فصوله شيئا الا ما كان من اعراب لفظ أو تصحيح آخر ، وأنه
قد عهد في ذلك الى الأستاذ صادق غير فتولاه عنه ، وهو يشكر
للأستاذ هذا الفضل شكرا جميلا .

واشتد البكارى لهذه الحاشية حين أظهرنى صاحبى على فصل
لصديقنا هيكل لم يكذب يتجاوز فيه هذه الأسطر من كتاب منصور .
فقد وقف عندها وقفة طويلة يسجل على نفسه وعلى منصور وعلى
الكتاب المعاصرين ضعفا ظاهرا فى اللغة العربية وقصورا عن احسان
الانتفاع بها واعترافا بهذه القصور . وأنا أعترف بأنى لم أفهم هذه
الحاشية ، فلو قد كان صديقنا منصور معترقا بضعفه فى العربية
مكبرا لها لعرض فصوله على الأستاذ صادق عنبر أو على غيره
ليعرب ألفاظها ، ويصححها قبل أن يدفعها الى الصحف ولكنه لم
يفعل ، فهل أحسن هذا الضعف واعترف به حين أراد أن يجمع هذه
الفصول فى كتاب ؟ وأغرب من هذا أن تقرأ الفصول مجبوعة
فلا نجد فرقا لغويا بينها فى هذا السفر وبينها فى الأهرام والسفور :
ففيها ما فيها من صواب لغوى كبير وخطأ لغوى قليل يغفر لمنصور
لأنه لم يزعم لنفسه فى يوم من الأيام تفوقا فى اللغة أو عصمة من
الخطأ فيها ، وانما عرفته دائما يأسف لأنه لم ينظر من اللغة بما
كان يريد .

فى هذه الفصول مجبوعة أغلاط لغوية كانت فيها متفرقة ،
ولم يصححها الأستاذ صادق عنبر ولم يعربها لأنه لم يكلف تصحيح
اللغة ولا اعرابها ، وانما كلف تصحيح التجارب المطبعية طبقا
للأصل الذى دفعه اليه المؤلف : فأحسن الأستاذ صادق عنبر هذا

التصحيح ، والا فكيف ترك الأستاذ صادق عنبر الذراع مذكرة
تذكيرا لا يحتمل الشك في صفحة ٣٣٢ وكيف ترك الأستاذ صادق
عنبر في صفحة ٨٣ هذا الاستعمال العددي الذي لا يخلو من غرابة
وهو « من ئيف وعشر سنين » وأنا لا أذكر هذين المثلين الا لأن ثبت
أن الأستاذ صادق عنبر لم يعرب ألفاظا ولم يصحح أخرى ولم
يطلب اليه منصور ذلك ، وانما صحح تجارب المطبعة ، فأراد
منصور أن يشكر له هذا الجهد ، فأسرف في التعبير كما أسرف
صديقنا هيكمل في استنباط ما استنبط من هذه الحاشية .

وبعد ، فمن الحق أن نقف عندهما يمكن أن يوجد في كتاب
منصور من انحراف قليل عن طريق العرب في التعبير ، فليس
منصور صاحب ألفاظ ولا هو يزعم لنفسه ذلك ، وانما هو
صاحب معان غزيرة غنية ، وخطرات قيمة خصبة . وأنا أريد في هذا
الفصل أن أقف عند هذه الخطوات وقفة قصيرة ، لأحقق الى
حد ما ، هذه الشخصية الأدبية التي تمثلها وهي شخصية صديقنا
منصور .

ليست هذه الشخصية قوية الى حد الطغيان ، وليست ضعيفة
الى حد الفتور ، وليست هائلة الى حد الاطمان ، ولكنها
شخصية ثائرة جامحة ، دون أن يكون في ثورتها أو جموحها هذا
العنف الذي لا يذر شيئا أتى عليه الا دمره تدميرا . فصديقنا

منصور تأثر ولكنه لا يحطم شيئا ، جامع ولكنه لا يلبث أن يعود
ويطمئن الى ما يطمئن اليه الناس . هو تأثر ماهر يستطيع أن
يعتري الزجاج وينفذ منه الى ما وراءه دون أن يحطم أو يحدث
فيه صدعا . ذلك لأنه ينفذ منه ببصره لا بجسمه ، وإذا شئت التعبير
الدقيق فقل أنه يرى الشجيد ويحبه دون أن يقدم عليه ، لأنه يؤثر
العافية ويفضل الانتظار ، وليس في ذلك شيء من الغرابة . فصدقنا
منصور شديد التأثير بفريقين من الفلاسفة : أحدهما فلاسفة القرن
الثامن عشر في فرنسا ، والآخر فلاسفة الاجتماع في آخر القرن
الماضي وأول هذا القرن الذي نحن فيه . فأما الفريق الأول فانت
تعلم أنهم أعدوا الثورة الفرنسية ولم يشهدوها ، ولو شهدوها
لنفروا منها نفورا شديدا . وأنت تعلم مقدار ما كان من الفرق بين
الحياة العقلية والشعورية والحياة العملية لروسو وفولتير . وأما
الفريق الثاني فأصحاب علم وملاحظة ، لا يمتنون إلا بأن يلاحظوا
ويستنبطوا ويتركوا للحوادث طريقها الى انشاء التاريخ .

والغريب من أمر صدقنا منصور أنه تأثر بفيلسوفين مختلفين
اختلافا شديدا : أحدهما روسو وهو صاحب الشعور الدقيق
والعواطف الحادة والمزاج المضطرب والخيال الخصب ، والآخر
دوركيم وهو صاحب العقل المستقيم والمنهج العلمي الدقيق وأبعد
الناس عن التأثر بالعاطفة والخضوع للشعور ، فهو يدرس الجماعة
كما يدرس صاحب الحيوان والنبات في معمله .

وأثر روسو فى الخطرات أشد وأظهر من أثر دوركيم .
فالخطرات حديث العواطف ، وهو حديث وجه الى الكثرة من
الناس ، فلا ينبغى أن يكون حديثا علميا يخاطب العقل الخالص ،
لأن هذا العقل الخالص لا يوجد فى الشوارع ، وإنما يوجد فى
المكاتب المغلقة ، ولم يتحدث منصور الى أهل المكاتب المغلقة .
وإنما يتحدث الى الناس الذين يفسدون ويروحون ويمشون فى
الأسواق ويختلفون الى الأندية والملاهى .

ولو ألى أردت أن أحدد تأثير روسو فى خطرات منصور لأشرت
الى هذا الطرح الظاهر الى مثل أعلى من الخير يلتسمه منصور
كما كان يلتسمه روسو فى الطبيعة الحرة الساذجة التى لم تفسدها
الحضارة ، ولم يمسحها التكلف ، والتى يجدها فى الزيف ، وفى
بعض الطبقات من الناس . ثم لأشرت الى العاطفة الدينية فى خطرات
منصور ، فهى قوية جدا تبلغ التصوف أحيانا ، ولكنها غريبة جدا
لا تكاد توفق الى تحديدها : فيها من الاسلام وفيها من الروح
البولائى ، وفيها من الروح المصرى القديم ، وفيها من مذهب
وحدة الوجود .

وأنت تستطيع أن تجد هذا كله فى الفصول التى كتبها منصور

حين رحل الى بلاد اليونان سنة ١٩٢٣ ووقف على الأكروبوليس متأثرا بوقفة رينان^(١) .

على أن هناك فرقا عظيما جدا بين رينان ومنصور حين وقف في الأكروبوليس ، فقد كان رينان أدبيا وفيلسوبا ومؤرخا . أما منصور فكان أدبيا وفيلسوبا ليس غير . وكم كنت أحب أن يقرأ شيئا من تاريخ اليونان قبل أن يذهب الى أثينا . فهناك فصل أسفت له أشد الأسف ، ولو استشارني منصور لأشرت عليه بحذفه ، لا لضعف في معناه أو لفظه فهو قوى المعنى جيد اللفظ^(٢) ، ولكن لبعده عن الحق ولأنه أراد أن ينصف آلهة المصريين القدماء فظلم آلهة اليونان ظلما شديدا . عنوان هذا الفصل هو « وقفة بالحصن المقدس — المرق دساس » أراد منصور أن يتقرب الى الهة الحسن في أثينا ، وما أشك في أنه أراد الالهة أثينا نفسها ، وإن كانت عنايتها بالحسن أقل مما ظن منصور بكثير . إنما أفروذيت هي التي كانت تعنى بالحسن ، ومع ذلك فالصورة التي

(١) قبلته وصلاته الى الالهة اليونانية أثينا . والواقع أن العاطفة الدينية في هذه الفصول متأثرة بهذا التدوين الغريب الذي كان يظهره رينان . والذي لم يكن رينان نفسه يستطيع تحديده .

(٢) وقد اختاره الأستاذان كمغير وطه الخيمى نموذجاً لكتابه منصور في سفر يمدانه باللغة الانكليزية عن الكتاب المعاصرين .

تخيلها منصور من الحسن ليرضى الالهة اليونانية بميدة كل البعد
عما يرضى الهة اليونان ، قريبة كل القرب الى ما يرضى الغايات في
القاهرة أو باريس . فقد أراد منصور أن يتجمل بأحسن ثيابه ،
ويرجل شعره ويصلح من شاربيه ، ويتعطر بأحسن الطيب ، ويضع
في صدره زهرة غضة ويرسل عليه سلسلة ذهبية ، ويضع
في أصبعه خاتما يتألق ، ثم ذهب يشتري عصا ، وبينما التاجر
يعرض عليه أطرف ما عنده من العصى رأى عصا تتأزر بالمتانة
والصلابة والشدة فأثرها ، لأنه ذكر المصريين وآلهتهم وأنهم
كانوا يمتازون بالقوة والمتانة فانصرف اليهم وانعرف عن الالهة
اليونانية معتذرا اليها لأنه من قوم كانوا يؤثرون القوة ولم ينس
منصور الا شيئا واحدا ولكنه عظيم الخطر جدا ، وهو أن الهة
أمتنا كانت الهة الحكمة من ناحية والهة الحرب من ناحية أخرى ،
وأنها خرجت من رأس أبيها كأقوى ما تكون سلاحا واستعدادا
للحرب ، وأفلن أن الهة الحكمة والحرب لا تنقصها المتانة والقوة ،
ذلك الى أن الهة الحسن نفسها وهى أفروديت كانت عند اليونان
قوية شديدة البأس ، دافعت عن طروادة فأحسنت الدفاع وكادت
تنتصر . فأنت ترى أن جمال هذا الفصل قد ذهب لأن كاتبه لم
يكن مؤرخا حين كتبه .

ولأعد الى ما كنت فيه من وصف العاطفة الدينية فى خطرات
منصور ، فقد قلت انها قوية حادة وان فيها من الديانات المختلفة

والمذاهب الفلسفية ما يذكر برينان . ويكفى أن تنظر الى هذا الفصل الذى يشبه فيه الجمال بالله وبالقوة الخفية لأنه يعرف بأثاره دون أن تدرك حقيقته ، لتحس من قوة هذه العاطفة وسعتها ما يثبت صحة ما أقول .

ولروسو تأثير آخر فى خطرات منصور كاد يجعله كاتباً بارعاً من الوجهة اللفظية لولا أنه لم يدرس اللغة العربية درسا عميقا . ذلك أن روسو قد بث فى نفس منصور قوة غريبة تكرهه على أن يظهر ما يشعر به قويا كما يشعر به ، أى فى قوة وعنف ، فيجمله ذلك على أن يخترع صورا من التعبير ليست مألوفا ، وكانت خليقة أن تبقى وتؤرخ عصرا من عصور اللغة لو استقامت لصاحبها طرق التعبير ، ولو أنه تأنى وتمهل ولم يخرجها عجلان مسرعا . وأنت تجد صورة قوية من هذا فى الفصل الذى كتبه يودع به العام ، فأخذ يفكر ويستعرض الحوادث ويتنظر آخر لحظة فى السنة ، حتى اذا أخذت الساعة تدق خيل اليه أن كل دقة من دقائقها تحصى أثرا من آثار العام ، فأعلن بهذه الصورة الغريبة الطريفة التى كادت تكون بديعة لولا أنه تعجل ولم تستقم له اللغة فأصبحت صورة مضحكة ، أو داعية الى الابتسام . وأنا أنقلها لك لترى صحة ما أقول :

لا تن ... سخرت من الغافلين حتى صحوا من الشدة والمحن ..

تن ... أغريت الانسان بالذهب الوهاج فتهاقت على ناره
كما يتهاقت على النور الفراش ...

تن ... جعلت في الناس والأمم من يعملون لقتل الضعيف ولو
كان بريئا ...

تن ... آويت اللص وسرت الخديعة ، وكثيرا ما أعليت الباطل
على الحق ...

تن ... نفرت بين قلوب ، وأشعلت ضغائن ، وأثرت فتنا ...
تن ... صرفت الناس عن وجهك يا الله ليعمدوا الى الأثرة
والشهوات ...

تن ... تمخضت بآراء وقدمت عظام وعبرا ، ولكن الناس
لا يفقهون ...

تن ... أحرقت أفئدة وأجريت دموعا وشربت دماء ...

تن ... كم من صحيح أضعنت ... وكم من عزيز أذلت ...
وكم من عليل داويت ...

تن ... جردت أشجارا من ورقها الأصفر الجاف ... وأبدلتها
منه ورقا جديدا ... وجعلت عليها زهرا نضيرا ...

تن ... صرفت العاشقين وهم في سكرات القبل عن مرارة

العيش . ثم أخذتهم أخذ الجبار فبدلت هناءهم تمسا . وبدلت
معادتهم شقوة وجحيما ...

تن ... لييك اللهم لييك .. » :

هذه الآثار القوية المختلفة التي تركها روسو في نفس منصور
جعلت منه كاتباً ، ليس كغيره من الكتاب المعاصرين ، ازغنته
الفلسفية في جوهرها غريبة بعض الشيء لأنها لا تلائم العصر الذي
نحن فيه ، ولكنها في شكلها وظاهرها مألوفة يحبها الناس لأنها
سهلة تدعو في سر ولين وقوة إلى الخير ، وإلى الفضائل التي أحبها
الناس وألفوا حبها ، تدعو إلى الرحمة والاشفاق والبر والعنان
والوفاء وما إلى ذلك من الفضائل الاجتماعية والفردية . ولا بد
هنا من الإشارة إلى ناحية أخرى لا تتم بدونها شخصية منصور
وهي شوقيته ، فمنصور مؤمن بالرابطة الشرقية إيمانا قويا قديما ،
لعله يعتمد على الوراثة والمزاج الفطري أكثر مما يعتمد على الروية
والتفكير العقلي . والذين يعرفون صديقنا منصورا يشكون في أن
أشد الأوتار التي تتألف منها نفسه حسا واضطرابا وترديدا لأصداه
الحياة إنما هو حبه للشرق وفناؤه فيه .

كان شرقيا حين كان طالبا للعلم في باريس ، كان يألف الشرقيين
أكثر مما يألف الغربيين ، كان يألف الشرقيين على اختلافهم ، كان
يألف أبناء الشرق القريب من العرب والترك ، وكان يألف أبناء

الشرق الأوسط من الفرس . وكان يحس من نفسه ميلا لا يخلو من حنان الى أبناء الشرق الأوروبي من الروسين والبولوين . ثم عاد الى مصر ، فلما ضاقت به واضطر الى الرحيل عنها تقي نفسه الى الشرق ، فهاجر الى قسطنطينية وأقام فيها حتى ردتته الحرب الى وطنه : فعاد اليه شرقيا كما تركه شرقيا . ولم يكد يشترك في الحياة الاجتماعية الظاهرة حتى كان نشاطه قويا غنيا يكاد يبلغ التعمص في انتماء الرابطة الشرقية وتأبيدها ، وهو الآن من أقطابها الظاهرين . وهو في هذا كله يصدر عن العاطفة والوراثة أكثر مما يصدر عن الروية والتفكير . وقد أثرت شرقيته هذه في خطرات نفسه كما أثرت في حياته العملية وصلاته الاجتماعية فهو في الخطرات شرقى ، لولا الحياء وخشية أن يوصف بالرجمية لآثر القديم الشرقي على الجديد الغربي في غير تحفظ ولا احتياط . وأحسب أنه سينتهى على مر الزمن الى هذا الموقف فيصبح محافظا مسرفا في المحافظة . وهو في صلاته الاجتماعية قريب من بيئة المحافظين المعتدلين الذين لا يكرهون التجديد ، ولكنهم لا يقدمون عليه الا في استحياء . وهو يعد بين الأزهرين أصدقاء يحبهم ويحبونه ويميل اليهم ويكلفون به . وقد لاحظ الأستاذ حبيب هذه الخصلة في صديقنا منصور ومصطفى عبد الرزاق ، فأشار في بحثه الأخير عن المعاصرين من أدباء مصر الى أنها يستمتعان برضى البيئات المحافظة .

أما أثر علماء الاجتماع المعاصرين في منصور فلا يكاد يظهر في الخطرات الا حين يتحدث منصور عن الجماعة ، فتراه يفهمها ويصفها على نحو ما كان يفهمها ويصفها دوركيم . ولكنى قلت آنفا ان صديقنا لم يتحدث في الخطرات الى العلماء ، وانما تحدث الى الكثرة من الناس فلم يكن من اليسير أن تصور الخطرات حياته العلمية وهو بخيل الى الآن باظهار هذه الحياة العلمية في كتاب ينشره على الناس ، وهو يزعم في تواضع فلسفى أنه لا يجب أن يظهر هذا الكتاب حتى يتم نضجه العقلى ، كأنه يريد أن يخيل الى الناس أن عقله لم ينضج بعد ، ولكن أصدقاءه وطلابه في الجامعة لا يطمئنون الى هذا التواضع ، ولا يسحرهم هذا الخيال ، فهم يتمنون على الأستاذ أن يفرغ لهم قليلا وأن يبيع لهم شيئا من آثار عقله الذى تم نضجه منذ دهر طويل .

أثارت الخطرات في نفسى هذه المعانى ، ولما أقرأ منها الا نصها أو ما دون النصف . ولست أدري متى أقف لو انتظرت بكتابة هذا الفصل أن أقرأ الكتاب كله . وأنت ترى معى أنى قد أطلت وأسرفت في الاطالة . فلأتم وحدى قراءة هذا الكتاب القيم .

فينا (يونيو سنة ١٩٣٠) .

٣ ديكارت

شيخان من أنصار القديم قرءا كتاب « الشعر الجاهلي » الذي أذعته منذ أسابيع . وكانا قد سمعنا به قبل أن يظهر ، وكانا قد أزمعنا الرد عليه بعد ظهوره . فلما ظهر الكتاب قرءناه كله أو بعضه ، فاعترضهما فيه اسم ديكارت ومنهجه الفلسفي . والله يصرف الكون كما يريد ، ويجري الأقدار فيه كما يحب ، وقد أراد الله أن يظهر اسم ديكارت وفلسفته منذ ثلاثة قرون وأن يطبع العصر الحديث كله بطابع ديكارت ، وأن يتغلغل تأثير ديكارت كاسم أرسططاليس عنوانا لطور من أطوار الحياة الانسانية العامة التي تلزم الأجيال مهما تختلف بها الأزمنة والأمكنة . أراد الله هذا كله ، وأراد معه شيئا آخر هو أن يظل ديكارت مجهولا عند طائفة من شيوخ الأدب في مصر ، لا يعرفون اسمه ولا مذهبه ، ولا يدركون كيف يؤكل ، وإن دروا كيف تؤكل الكتف ، ولا يعرفون كيف يشرب ، وإن عرفوا كيف تشرب القهوة والشاي ، وكيف يشرب الخروب والعرقسوس . وإذا أراد الله أمرا غلاما مرد له . وليس لنا أن ندعن

للقضاء ونصبر لجهل شيوخ الأدب العربى اسم ديكارت وفلسفة ديكارت فى العصر الذى يحرص الاسان فيه على أن يعلم كلما استطاع أن يعلم .

ومن غريب الأمر أن شيوخ الأدب القديم يرون ويكتبون كما كان يرى الأدباء القدماء ويكتبون : أن الأديب « هو من يأخذ من كل شىء بطرف » كذلك قال شيخ الأدب فى دار العلوم ، وانما أريد الأستاذ الشيخ علام ، قال ذلك فى « السياسة » منذ أسبوعين ، ولم يكن فى ذلك مجددا ، وانما كان يحكى القدماء ويردهم . وقد كان المبرد حريصا كل الحرص على أن يأخذ الأديب من كل شىء بطرف ، وظهر ذلك فى كتاب الكامل ظهورا واضحا حتى انك لترى فيه بابا قال المبرد فى عنوانه : « باب نذكر فيه من كل شىء شيئا » وكتب الأدب العربى القديمة كلها قائمة على هذا النحو من تصور الأدب والأديب ، والأستاذ الشيخ علام وأصحابه يرون رأى القدماء ، ويكتبون أن الأديب يجب أن يلم من كل شىء بطرف ، ولكنهم لا يلمون من كل شىء بطرف ، بل يجهلون ديكارت وفلسفته وأثره البعيد فى حياة العقل والشعور كما قلنا . وهم يجهلون ناسا آخرين غير ديكارت ، وأشياء أخرى غير فلسفة ديكارت ، ولكنهم مع ذلك يرون أنهم أدباء ، وأنهم قد ألوا من كل شىء بطرف . ومعذرتهم فى هذا قائمة : فديكارت ليس

شيئا وفلسفته ليست شيئا ، والحق عليهم أن يلوموا من كل «شيء»
بطرف . فأما ما ليس « شيئا » فلا ينبغي أن يلوموا منه بقليل
ولأكثر . فإذا أردت أن تعرف لم لا يكون ديكرت شيئا من
الاشياء ، ففى جواب ذلك قولان : أحدهما أن الشيء الذى ينبغي
أن يلم الأدباء بطرف منه هو الشيء الرسمى الذى اشتمل عليه
برنامج التعليم الرسمى فى وزارة المعارف . فعلى الأديب أن يلم
بعلوم العربية وأن يلم بالرياضيات والطبيعات . وليس فى البرنامج
الرسمى لوزارة المعارف ذكر ديكرت ولا فلسفة ديكرت . واذن
فهما ليسا فى الورقة الصفراء ... واذن فليس الأديب مكلفا أن
يلم منهما بطرف لأنهما ليسا شيئا .

هذا أحد القولين : وهناك قول آخر وهو أن الشيء الذى
ينبغى أن يلم الأديب منه بطرف هو الشرقى القديم ... أستغفر الله
العظيم وأتوب اليه ، بل هو العربى القديم . مصر القراعنة ليست
شيئا ، ومصر اليونان والرومان ليست شيئا . وليس الأديب مكلفا
أن يلم منها بطرف ، وأقسم ما يعرف الأستاذ الشيخ علام وأصحابه
لها طعنا .. أستغفر الله العظيم وأتوب اليه ، بل الشيء هو العربى
القديم الذى لا يتجاوز بلاد العرب والشام والعراق فى العصور
العربية الأولى والأندلس فى بعض عصورها الاسلامية . فأما مصر
الفاطمين والمماليك ، فأما أفريقيا الشمالية فليست شيئا وللادباء

أن يجهلوا ، وهم يجهلونها باذن الله . واذن فأوروبا ليست شيئا .
واذن فديكارت ليس شيئا وفلسفته ليست شيئا . وجهل أوروبا
وديكارت وفلسفته ليس من الأمور التي تعاب على الأديب . ورحم
الله شيخا من شيوخنا في الأزهر أراد أن يرفع في يوم من الأيام
ظلامه الى المحافظة فلم يستطع أن يكتب ما كان يريد . فاستعان
بأحد « أبناء المدارس » معذرا أو مفاخرا بأنه لا يحسن مثل
هذا السخف الجديد . فلشيوخ الأدب أن يعتذروا أو أن يفاخروا
بأنهم يجهلون ديكارت وفلسفته لأنهما ليسا شيئا ، ولأن من
السخف أن يضيق الأديب وقته في درسهما ، وخير من ذلك
وأجدى أن يكتب الأديب على فقرة من فقرات الحريري ، أو مقامة
من مقامات البديع ، أو بيت من شعر امرئ القيس .

ولكن حظ الأديب سيء أبدا ، وانت لم تنس بعد حرفة الأدب
التي قتلت ابن المعتز ، وتفتت لحية الحريري ، وحالت بين لفظ
الأدب وبين الورود في القرآن ، فالأدب لذيد ولكنه شؤم على
أهله . ومن شؤم الأدب على الأدباء أن كتابا ظهر في هذه الأيام
يقال له « الشعر الجاهلي » ويجب على الأدباء أن ينقدوه وينقضوه
ويهدمونه ويهدموا كاتبه ، ويتقربوا بهذا النقد والنقض والهدم الى
الله أو الى الشيطان . وقد أقسموا ليفعلن . وقد بدءوا يفعلون
فما هي الا أن اغترضهم هذا الشجى وهو اسم ديكارت وفلسفة
ديكارت .

والحق نقول ان موقفهم بازاء هذا الاسم والفلسفة كان بديعا

لا يخلو من فكاكة وظرف . فأما أحد هذين الشيخين اللذين ذكرتهما في أول هذا الفصل واللذين أهدي إليهما هذا البحث فقد كتب في تواضع يشبه الكبرياء أنه لا يعرف ديكارت ولا مذهبه ، وأنه يظن أو يرجح أن مذهب ديكارت قريب من المذاهب الإسلامية ، وأن صاحب « الشعر الجاهلي » قد حرف هذا المذهب لحاجة في نفسه أو كما قال الشيخ ، وأما الآخر فمميز عليه أن يتكبر أو يتواضع على هذا النحو . وهو قد تعود أن يستغل الرافعي واليازجي والسكندري وابن مكرم دون أن يذكرهم أو يشير إليهم ، فلم لا يستغل في أمر ديكارت حيا أو ميتا يشبه هؤلاء ؟ وقد بحث بين الأموات فلم يجد وبحث بين الأحياء فلم يجد من كتب عن ديكارت أو أشار إليه ، وهو لا يعرف لغة ديكارت ولا لغة أجنبية أخرى . واذن فليجأ الى أحد الذين يعرفون لغة من هذه اللغات ليقص عليه أمر ديكارت ، ويلخص له فلسفته ، حتى إذا استقام له ذلك في صفحات أو أسطر تكلم عن ديكارت وفلسفته كلام العالم المحقق ، وأثبت لصاحب « الشعر الجاهلي » أنه لا يفهم ديكارت ولا يخسن تخريج مذهبه الفلسفي . وكان قد تفوق على زميله الذي يكتب في « الأهرام » فعرف من أمر ديكارت وفلسفته ما لم يعرف هذا الشيخ المسكين .

وأنا أحد الذين يعرفون لغة أجنبية وأحد الذين يحنون لغة ديكارت ، وأحد الذين قرءوا كتب ديكارت ، وأحد الذين قرءوا ما كتب عن ديكارت . وأنا أريد أن أهدي الى الشيخين بحثا عن

حياة ديكارت وفلسفته ليما به أدبهما ويستعينا به على هدم كتاب
الشعر الجاهلي ، والتهام صاحب هذا الكتاب التهاما . وأنا مخلص
فيما أكتب ، فأنا أحب أن يلتمنى الشيخان لأنى أعرف أن حلقتهما
أن استطاعا ازدرادى فستعجز معدتاها عن هضمي .

أنا أهدي الى الشيخين بحثى عن حياة ديكارت ، ولكنى أهديه
اليهما على أن يقرأه ويفقهاه فقها « حسنا » لا يشبه فقههما « للشعر
الجاهلي » ولا للسان العرب ولا لما كتب الراقى أو أملى
السكندرى وأنا أهدي هذا البحث الى الذين يعرفون ديكارت
من المثترنجة والمتعلمين على اختلافهم ذلك أنى أعلم من أمر
ديكارت ما لا يعلم الناس فى مصر ، فقد كنت أريد أن أضع فيه
كتابا واضطرنى ذلك الى كثير من البحث والتحقيق والى ألوان
من الاستقصاء والاستقراء . ولكنى لا آسف على ما لقيت من
عناء ، فقد وصلت الى نتائج غريبة قيمة لو أعلنتها فى فرنسا لاندكت
لها السوربون ولاضطريت لها الكوليج دى فرانس ولأعلن لها
المجمع العلمى الفرنسى افلاسه .. لا تضحك ولا تعجب فلست
أحدثك الا بالحق الذى لا شك فيه ولا غبار عليه . ويكفى أن تعلم
أنى استكشفت طائفة من الكتب المخطوطة التى كتبت فى النصف
الثانى للقرن السابع عشر بعد أن مات ديكارت بسنين قليلة ،
والتي كانت محفوظة فى مكتبة الملك الخاصة ، حتى اذا كانت
الثورة الفرنسية ، وتبدد ما فى القصر ضاعت هذه الكتب ، ولم
يستطيع أن يظهر بها الذين أنشأوا المكتبة الأهلية فى باريس بعد

الثورة ، وأخذت اسرة من الأسر الشريفة توارث هذه الكتب ، حتى انتهت الى صديق لى فرنسى ، كان يدرس معى ، وهو يقيم فى ريف بورجونيا ، فدعاني فى بعض فصول الصيف أن أقضى عنده أياما ففعلت ، وأظهرنى على مكتبة آباءه ، فإذا فيها هذه الكتب المخطوطة ، فدرسناها معا ، ولم نستوف درسنا بعد ، وستقدمه الى السوربون يوم نستوفيه ، وستنشر هذه الكتب على الناس ، وستودع أصولها المخطوطة المكتبة الأهلية بباريس ، وسيعلم الناس يومئذ أنهم لم يؤتوا من العلم عن ديكارت الا قليلا ، وستعلم الحكومة الفرنسية يومئذ أن هذه الطبعة الرسمية التى نشرت فى اثنى عشر مجلدا ضخما لا تشتمل الا على ما كان يكتبه ديكارت ليلهو ويعبث ويلهى الناس عن فلسفته الصحيحة .

فديكارت كأرسطاليس يذهب فى الفلسفة مذهبين مختلفين أحدهما يعلنه الى الناس ، فانهم يستطيعون أن يفهموه وأن يسميروه ، والآخر يحتفظ به لنفسه ، ولالأصفياء من تلاميذه ولا يذيعه فى الجماهير لأنه أعسر وأدسم من أن تحتمله عقولهم . وقد ظفرت الحكومة الفرنسية بالقسم الأول من آثار ديكارت ، فعهدت الى عالمن من أكبر علماء فرنسا بتحقيقه ونشره فعلا ، ووقع هذا القسم فى اثنى عشر مجلدا ضخما كما قلت لك . ولكن من يقرأ هذه الطبعة الرسمية أو هذه المطبوعة الرسمية — على رأى وحيد — ويقارن بينها وبين ما سنشره قريبا سيرى أن ديكارت كان غريبا حقا . فقد كان يأنف من شخصين يختلفان

فيما بينهما كل الاختلاف : أحدهما فيلسوف معتدل معقول يكتب بالفرنسية حيناً ، وباللاتينية حيناً آخر ، ويتناول فيما يكتب كل ما تناوله الفلاسفة من قبله ، ويذهب فيما يكتب مذهب التجديد ، فيخيل اليك أنه سيؤسس فلسفة جديدة تهدم ما أقامه أرسططاليس وتلاميذه . ذلك لأنه يتخذ لفلسفته هذه قاعدة لم يألفها الناس ، هي نسيان القديم والبراءة منه كله ، وافترض أنه لم يكن ، حتى إذا قرأت هذه الفلسفة وتعمقت فيها لم تجد جديداً ، ولا شيئاً يشبه الجديد ، وإنما هو كلام ككلام الفلاسفة فيه كثير من الحدود والقضايا والأقيسة ، ومع ذلك فقد فتن الناس بهذا الشخص واعتبروه أباً الفلسفة الحديثة ، ومؤسس العلم الجديد . ولكن الشخص الثاني هو الذي لفتنا وبهرنا ، لما فيه من غرابة كتبنا نتنظر كل شيء إلا إياها . ذلك أن ديكارت لم يكن مسيحياً ولا فيلسوفاً ولا من أصحاب التجديد ولا من أنصار هذه الحقائق الثابتة التي ألفتها الناس ، وإنما كان مسلماً دياناً متصوفاً مغرقاً في التصوف شطاحاً مسرفاً في الشطح . انتهى به هذا كله إلى شيء لا أستطيع أن أسيه إلا « اظهار الكرامات » . ولعل أحسن طريق لشرح هذه الناحية الخفية من حياة ديكارت أن ألخص لك في شيء من الإيجاز بعض ما كتبه ديكارت عن نفسه ، وما وجدناه في هذه الكتب (المخطوطة) التي حدثك عنها آنفاً .

ولد ديكارت في القرن السادس عشر للمسيح ، وكانت أسرته فقيرة ، شديدة المحافظة على العادات القديمة والسنن الموروثة ، فلما شب أرسلته أسرته الى مدرسة اليسوعيين ، فتعلم فيها على نحو ما كان اليسوعيون يعلمون . أتقن اللاهوت وفلسفة المصور الموسطى واللغتين اللاتينية واليونانية . ولكنه كان ذكيا حاد الذهن مستعدا للنقد والشك ، فاضطربت نفسه اضطرابا شديدا حين أحس تناقضا بين قواعد اللاهوت وفلسفة أرسططاليس . ولكنه لم يظهر من هذا الشك شيئا لأنه كان محافظا كأبيه وأساتذته اليسوعيين . على أنه لم يكذب يدع المدرسة حتى سئم الحياة التي وجهه اليها أبواه ، وهى حياة الحرب ، فانصرف الى السياحة ولقى في هولندا رجلا شيخا من اليهود يقال له دروكلكسيس بن كرابالك . قال ديكارت : كان لهذا الشيخ تأثير غريب فى نفسى ، لا أدري أكان مصدره ذكاهه وفطنته أم غرابته شكله ، واختلاف أطواره العجيبة . كان قصيرا ضخما عريض ما بين الكتفين ، صغير العينين غائريهما ، ولكن عينيه كانتا شديدتى التوقد كأنهما شعلتان تضطربان ، عريض الأذنين ، دقيق الأنف ، غليظ الشفتين ، مرسل اللحية ، فأما صوته فلا أعرف أنى سمعت صوتا يشبهه . أما فى حديثه العادى فكان غليظا متهدجا أشبه شئ بالرعد ، فإذا ناقش أو ناظر فى العلم كان لحيف الصوت حاده خلاب الحديث . ولا أعرف أنى رأيت عالما يحيط ببثل ما كان يحيط به هذا الرجل مما كتب الأولون والآخرون ، كن يهودى الجنس والمولد ، ولكنه

لم يكن يهودى الدين . وأحسب أنه قد ورث شيئا من آباءه الذين خالطوا المسلمين مخالطة شديدة فى اسبانيا . كان غنيا ولكنه شديد الزهد فيما كان يملك من ثروة ، الا أنه كان يحب الاستمتاع بالطيب من لذات الحياة ، وكان يعجبني فى بيته شيان : مائدته ومكتبته . تحدثت اليه فى الفلسفة وفى اللاهوت فسمع منى ، وتحدثت اليه ، وما هى الا أن فتنت به وشغف بى ، وأصبحت لا أستطيع عن لقائه صبرا . وقد كان فى حديثه الى ما هرا لبقا يلقي الى أغرب الآراء ، وكأنه يحدثني عن الجو والمطر ، حتى اذا آسن منى اطمئنا اليه ، وثقة بكل ما يقول ، كشف لى عن دخيلة نفسه ، فاذا هو لا يؤمن بالمسيحية ولا اليهودية ، ولا يحب الالهاد ولا الملحدين ، وانما اتخذ لنفسه دينا كنت أسمع به ، ولا أعرف من حقيقته شيئا . فلما رغبت اليه فى أن يظهرني على دقائق هذا الدين أطال الصمت ، ثم قال فى هدوء : بما أحب أن أظهر لك هذا الدين ، وانما أحب أن يظهر لك الدين نفسه فاتمنى ، ثم مضى بى الى مكتبته واستخرج سفرا ضخما دفعه الي ، وقال أقرأ هذا ، فاذا فرغت منه فلتحدث ، ثم تركنى ومضى . ونظرت فى الكتاب فاذا هو باللاتينية واذا هو ترجمة لكتاب كتبه أحد المسلمين فى القرن العاشر للمسيح يقال له الطواسين ويقال لصاحبه الحلاج^(١) ولم أكد أمضى فى هذا الكتاب حتى أحسست كأن بينى وبين

(١) ألفه الأستاذ لويس ماسينيون الى هذه الترجمة اللاتينية لكتاب الطواسين . فانا أعلم أنه يعنى بهذا الكتاب وصاحبه وأنه قدم الى السوربون فيهما رسالة كان لها خطر عظيم

الحقائق سترا صفيقا ، وكان هذا المستر أخذ يرتفع شيئا فشيئا
ويظهر لى من وراءه عالم بديع غريب خلّاب ، وأخذت نفسى تمتلىء
نسوقا الى هذا العالم وهياما به . انفق فى قراءة هذا الكتاب أياما
ثلاثة ، فلما فرغت منها أنكرت نفسى وأنكرت ما حولى من الأشياء
ومن حولى من الناس . واقينى دروكلكسيس فلم يظهر عجا
ولا انكارا ...

وإذا كنت لا أزال حيا الى الآن ، وإذا كنت قد استطعت أن
أنشر فى الناس كتباً أعجبهم ، وأكتب لنفسى كتباً قرأوها ، وإذا
كان صوتى قد وصل الى أقصى أطراف الأرض ، وتنافس الملوك
فى عثرتى والاستئثار بى ، فأنا مدين بهذا كله لدروكلكسيس
ابن كراباك . ذلك أنى خرجت من قراءة ذلك الكتاب مفتوقا ،
أريد أن أعلن الى الناس إيمانى بهذا الدين الجديد ، وأناضل بغيره
بما أملك من قوة ، ولكنه حال بينى وبين ذلك ، وكان يقول لى
فى هدوء : احذر أن يصيبك ما أصاب الحلاج فلا تنتفع بحياتك ،
ولا تنفع بها الناس ، والحياة أعلى وأنفس من أن تبذل فى غير نفع ،
فاكتم ما أنت فيه وأنفق حياتك فى التسبيح والتقديس ، وانفع
الناس ما استطعت الى نفعهم سيلا .

من ذلك الوقت أثرت الغزلة ، وعشت هذه الميشة التى كان
الناس يعجبون من أمرها .

وفى الحق أن حياة ديكرارت كانت غريبة ، فقد كان ينفقها فى
موقد له لا يخرج منه الا مضطرا . وكان يقسم وقته أربعة أقسام :

أحدهما لما يحتاج اليه جسمه من العناية المادية ، وكان يقتصد في هذه العناية اقتصادا شديدا ، لا يأخذ من الأكل والشرب والنوم الا بما يسك عليه الحياة ، والثاني ينفقه في الكتابة والتأليف فيما ينفع الناس في هذه الحياة العاجلة ، والثالث في التفكير الفلسفي الاشراقي ، والرابع في التسييح والتقديس وتلاوة صيغة معينة أخذها عن شيخه دروكلكسيس بن كراباك . وكان لترديده إياها تأثير عظيم في حياته العملية والعقلية . قال ديكرت :

« بينا أنا في موقدي ذات يوم أردد ما تعودت ترديده من صيغ التسييح والتقديس اذ أخذتني غفوة ، فرأيت فيما يرى النائم كأن سقف البيت قد انشق وكان طائرا قد هوى الى الموقد ، له شكل الهدد ، ولكنه أكبر منه حجبا وأعرض منه جناحا ، وكان هذا الطائر قد وقف قبالة الموقد محذقا في منصتا لما أقول ، وكأنه قد أنكر صمتي ونومي فقال في لغة لاتينية تبيتها في وضوح وجلاء : عجا لهذا الصامت النائم والفلك يدور ، وشيخه في خطر ، فاستيقظت لهذا الصوت في شيء من الانزعاج ، ونظرت فلم أر شيئا ، ولكني أشفقت على دروكلكسيس وأردت أن أراه فسمعت اليه من فوري ولم أكد أسأل عنه حتى حدثت أنه مريض ، وأن الطبيب يخشى عليه . فأدخلت عليه ، فاذا هو في سريريه شاحب ضعيف يتردد نفسه قويا في صدر فارغ ، فجثوت عند سريريه ، وأخذت أدعوه في رفق ، وكأنه كان نائما فاتبسه وقال : لها تنذا قد أقبلت ، لقد أرسلت أدعوك وكنت أخشى أن أفارق هذه الحياة

قبل أن أراك ، فهل جاءك رسولى ؟ قلت من رسولك ؟ قال :
بريش ، قلت : هذا اسم لم أسمع من قبل ، قال : ولكنك رأيت
مسماه منذ حين ، هو طائر يشبه الهدد ويتكلم لاتينية سيرون
فاحفظ اسمه فسينفعك ، وادعه كلما احتجت الى شيء شاق ومره
بما شئت فستجد منه ملاعة واخلصا ونصحا ، وأعلم أنه موكل
بزعماء المتصوفة منذ كانوا ، يخدمهم ويقضى حاجاتهم ، لا يجد فى
ذلك مشقة ولا عسرا ، وهو فوق العلة ، وفوق الموت حتى تنقرض
طائفة المتصوفة ويموت بعد آخرهم بقليل . خدم متصوفة الهند
قبل المسيح بالآلاف من السنين ، وأشرف على بناء الأهرام ، وأملى
ما كتب فيها من طلاس ، وأعان فيثاغورس ، ورافق أفلاطون فى
سياحته ، ولزم الخلاج وابن الفارض ومحبى الدين بن العرى ،
وسيلزمك منذ غد ، وسيعينك على سياحات لا بد من أن تسبحها
فى الأرض ، فأنت مضطر الى زيارة البيئات الصوفية فى بغداد
والقاهرة وتلمسان وفارس ، على أنى مؤد اليك أمانة يتناقلها زعماء
الصوفية ويتوارثونها وهى لهم نافعة فخذها فأنت زعيم الصوفية
بمضى .

ثم أخرج من تحت وسادته علبة صغيرة من الذهب أشبه نىء
بعلب النشوق التى يصطنعها الشيوخ فى مصر وقال : احتفظ بها
ولا تفتحها الا حين يطلب ذلك اليك صديقنا بريش ، واحفظ عنى
هاتين الصيغتين لتستقبل بأولاهما النهار وبآخرهما المساء ما يحين
ثم همس بالصيغتين فى أذنى على أنها سر لا يباح الا لزعم . وما

هى بعد ذلك الا أن اضطرب جسمه اضطرابا شديدا ثم هذا وقد
فارقت الحياة ، واذا برييش قد ظهر فى الغرفة ، وقال فى هدوء :
انصرف فقد مضى صاحبك ، ودع هذا الجسم لأهله فليس لك به
شأن فخرجت .

وهنا يصف ديكرت جزئه على صاحبه فى عبارات مؤثرة حقا ،
ولكن صحف « السياسة » محدودة ، فلادع حزن ديكرت ولانهم
ما أنا فيه من ذكر حياته الغريبة .

أصبح ديكرت بعد انصرافه من عند صاحبه ، فاستقبل النهار
بالصيغة التى أداها اليه دروكلكسيس . وما كاد يستقر فى موقفه
حتى جاءه برييش فقال : ما أنت وهذا الموقف ، وما أنت والكتابة
والتفكير ؟ هلم الى سياحتك . قال ديكرت لبرييش : ولكنى لم
أعد لهذه السياحة شيئا . فدعنى أدير أمري . قال برييش : ومتى
دبر الصوفية لأنفسهم أمرا ! قم فانطلق معي ، ومضى فى الجو قريبا
من الأرض يسايره فيلسوفنا حتى خرجا من المدينة ، واذا جرة
ضخمة من الفخار قد نقشت عليها نقوش وتصاوير لم ير مثلها
ديكرت . قال برييش . امط هذه الجرة وردد صيغة المساء مرات .
ففعل ، واذا الجرة تصعد به فى الجو حتى أشفق على نفسه ، ولكن
الجرة ماضية ، ماضية فى الجو لا تلوى على شيء ، والطائر مواز
لها يمضى فى رفق ويثلو فى اعجاب خطبة من خطب سبيرون التى
ألقاها فى مجلس الشيوخ الرومانى يعنف بها كاتيلينا . وهو يحل
هذه الخطبة ويظهر للفيلسوف ما فيها من آيات البلاغة . ومضى

علي هذا النحو ساعات ، واذا برييش يقول لصاحبه : انظر الى الأرض ، فينظر فلا يرى الا أمواجا تلتطم وتصطبغ ، فيسأل صاحبه أين نحن ؟ فيجيب : نحن نعب البحر الى الاسكندرية . وانتصف النهار ، أحسن فيلسوفنا الجوع والظما ، فيسأل الطائر : من لنا بطعام وشراب ؟ قال برييش : والعلبة التى أهدها اليك أمس دروكلكتيس أين هي ؟ هى معى . اذن فأخرجها وافتحها . فيخرج العلبة ويفتحها فلا يروعه الا فتاة ظريفة قد خرجت منها مبتسمة محيية مصفقة ، واذا فتان وفتيات قد أقبلوا اليها من الجو ضرعين ، واذا هى تأمرهم بلغة لا يفهمها ديكارت فيسأل صاحبه ما هذه اللغة ؟ فيجيب : هى اللغة السريانية التى لا بد لك من أن تتعلمها بعد حين . وما هى الا لحظات حتى وقفت البجرة فى الجو لا تتقدم ولا تتأخر ، ونصبت أمامها فى الجو مائدة فضة سفت عليها الصحف والأكواب من الذهب والفضة ، وقدمت عليها ألوان من الطعام لاعهد لديكارت بلذتها وحسن مذاقها فى الغم وموقعها فى المعدة ، فأكل الفيلسوف وشرب ، ومن حوله الطير تصدح بأنعام لذيذة حلوة ، حتى اذا تم له من ذلك ما اشتهى رفعت المائدة ، واستخفى كل شئ ، وأقبلت الفتاة السريانية مبتسمة قائلة فى طرف وخفة : والآن فأدخلنى علبتى ، فيفتح لها الفيلسوف العلبة فتستخفى فيها ، وتستأنف البجرة سيرها فى الجو . وبأخذ برييش فى قراءة لخطبة التاج التى ألقاها ديموستين على الإثينيين محللا مستنبها أسرار البلاغة اليونانية . فاذا سأله ديكارت عن حبه

اللاتينية واليونانية قال : أنا موكل بالأدب أحبه وأتفق فيه حياتي ،
ولست أؤثر أدبا على أدب ، وإنما أحيط بالأدب كلها . وأنت تعلم
أن الأديب يجب أن يلم من كل شيء بطرف ، قال ذلك أدباء العرب
وسيقوله في آخر الزمان منهم رجل يقال له الشيخ علام . وإذا
كنت قد تلويت عليك خطبة سيسرون وخطبة ديموستين ، فذلك
لأنك تعرف اللغة اللاتينية واليونانية . وسأتلو عليك غدا قصيدة
عربية وضعها رجل يقال له خلف الأحمر ، ونسبها إلى شاعر يقال له
الناطقة البذيالي ، وهي قصيدة جيدة لا يشك سامعها في أنها قديمة ،
وقد استشهد النحاة بشيء كثير منها على قواعد النحو العربي .
قال ديكارت : وأي فائدة في تلاوة هذه القصيدة أو غيرها من
الشعر العربي ، وأنا أجهل لغة العلاج ، ولا أستطيع أن أقرأ هذا
الكتابات القيم كتاب الطواسين إلا في هذه الترجمة اللاتينية التي
نشرت في القرن الثالث عشر والتي أرجح أنها لا تخلو من خطأ .
قال برييش : ستعرف اللغة العربية وتتقنها إذا أمسيت ، فليس
يباح لك أن تدخل بلدا دون أن تعرف لغة أهله ، وإذا كنت ستزور
أطراف الأرض كلها فستعرف لغات الناس جميعا ، قال ديكارت :
ومن لي بذلك ؟ قال برييش : أنا لك به ، انظر إلى هذه العلبة !
الصغيرة ، إنها تحتوي اللغات جميعا ، فيها أقراص تشبه أقراص
التنماع كل واحد منها يمثل لغة من اللغات ، فإذا أشرفتنا على
البلاد العربية فسادفع اليك قرص اللغة العربية تزدوده ، فإذا أنت
أقصد الناس على أن تشد وتفهم وتنقد ما يسب إلى امرئ

القيس من شعر ، وما يضاف الى تأبط شرا من سخر ، وما يحكى
عن قس بن ساعدة من وعظ وارشاد ، واذا أنت من أقدر الناس
على مناقشة سيبويه والخليل والمبرد فيما تركوا من قواعد النحو
والعروض والقافية والصرف ، فانتظر . وانتظر ديكارت حتى اذا
مالت الشمس الى الغروب نظر فاذا من تحت مدينة يروج الناس
فيها موجا . قال لصاحبه : ما هذه المدينة ؟ قال : هي مدينة طنطا
يحتفل الناس فيها بمولد السيد أحمد البدوي ، فازدرد هذا
القرص ففعل . وقال برييش كلمات هوت لها الجرة الى الأرض ،
ونظر ديكارت فاذا هو واقف على قدميه . قال له برييش ضع
هذه القلنسوة على رأسك لتستخفى عن أعين الناس ، ففعل ،
ومضى مع صاحبه يزور المولد ويجلس في كل خيمة لحظة ثم دخلا
المنسجد واختلطا بالشيوخ والطلاب والزائرين والذاكرين .

وعلى هذا النحو الذى يفصله ديكارت تفصيلا متما قفى
صاحبنا سنتين كاملتين مطوفا في أقطار الشرق الاسلامى كله متقنا
لغاتها وعاداتها ، ذاكرا مع الذاكرين ، متيما مع المتيمين ، ذاكرا
مع الدائرين ، يلتهم النار حيناً ويبتلع الزجاج آخراً ، ويتنطق
بالحيات والأفاعى ، ويشئ على الماء ويطيير في السماء ويזור الجن
في الأرض السابعة ، والملائكة في السماء الرابعة ، حتى اذا قضى
من هذا كله وطرا وعلم من أسرار الكون ما يضره الشرق وحده ،
عاد الى هولاندا فسكن في موقده أشهراً يكتب ويفكر ويقدر
ويأتيه برييش كل مساء فينضي عنده ساعة ثم ينصرف . حتى جاءه

ذات يوم فقال : أحسب أنك قد أحببت الراحة وكرهت مشقة السفر ، ومع ذلك فلا بد لك من رحلة أخرى ليست أقل مشقة ولا نفعا من رحلتك الأولى فقم على اسم الله - قال ديكارت : ألا تنتظر اشراق النهار ؟ قال : كلا ، وما أنت والنهار والليل ؟ الخيرة تنتظر وعلبتك كفيلة بحاجات السفر وعلبتى كفيلة بتعلم اللغات ، وسأتلو عليك في هذه الرحلة آيات ألمائية وروسية ثم تظهر بعد ، لأن أصحابها لم يخلقوا ولكنهم سيخلقون وسيحدثون هذه الآيات فيمجب بها الناس ، سأتلو عليك ما سيحدثه جوت وهنرى هين وتلستوى وغيرهم من أعلام الشعر والنثر والفلسفة في القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين ، ثم سأتلو عليك كتابا يكتبه بعد سنين يهودى يثأر بمذهبك اسمه سينيوزا سيكتب في الأخلاق والفلسفة متأثرا بهذا الكلام الفارغ الذى تكتبه للناس في أوقات الفراغ . وسيظن أنه وصل الى الحق وسيلقى من الناس اكبارا واحتقارا . وقد استصحت كتابا شرقيا عربيا سيظهر في الربع الأول من القرن العشرين في مدينة القاهرة ، وهو كلام فارغ ككلامك هذا الذى تنشره على الناس ، واسمه يدل على أنه فارغ وهو كتاب « في أوقات الفراغ » الذى سينشره على الناس كاتب ظريف مفكر يجد حيناً ويعبث أحيانا ، أديب ولكنه يحب السياسة ويرشح نفسه للانتخاب في مجلس النواب ، واسمه محمد حسين هيكمل . فأنت ترى أن رحلتنا ستكون قيمة سهلة ، ولا سيما حين أتلو عليك كتابا باللغة العربية سيضعه مصرى

في القرن التاسع عشر يقال له الشيخ محمد عبده وترجمه في القرن العشرين عالمان يقال لأحدهما مصطفى عبد الرازق وللآخر برنارد ميشيل ، وحسرتي أن هذا الشيخ المصري المسلم متأثر تأثرا تاما بفلسفتك هذه الفارغة التي تفسد بها عقول الناس ، وتشتيهم بها علما جديدا ، سيمكنهم من استبعاد البخار والكهرباء والماء والهواء والصعود إلى السماء . قم بنا :

فقاما وامتنطي فيلسوفنا جرته ومضيا نحو الشمال . واستمرا في رحلتكما أياما وليالي متقلبين من أدب إلى أدب ، ومن فن إلى فن حتى استقبلكما في صباح يوم مشرق جبل شاهق لا يصل الطرف إلى قمته قال ديكارت : أين نحن ؟ قال برييش نحن في أقصى الأرض من ناحيتها الشمالية ، وهذا الجبل الذي تراه هو سورها الذي يأخذها من جميع أطرافها . قال ديكارت مصفقا : هذا جبل قاف ؟ قال برييش نعم هو جبل قاف . قال ديكارت . ليس وراءه إلا الماء الذي لا حد له طولا ولا عرضا ولا عمقا ، والذي لا يحيا فيه شيء ، قال برييش أخطأت فستري أن في هذا الماء حياة وأحياء . قال ديكارت : ماذا تقول ؟ ستقتحم هذا الجبل ؟ قال برييش : وما جئت بك إلا لنقتحمه . أن من وراءه قوما ينتظرونك لتنتشر فيهم الدعوة إلى الحق ، وتخرجهم من الظلمات إلى النور ، دع هذه الجرة فهي لا تعني عنك شيئا . قال ديكارت . وكيف تصعد في هذا الجبل ؟ قال برييش : أترى إلى هذا السحاب المتراكم ستبهط منه سحابة تحملنا إلى حيث نريد . وهبطت سحابة فاذا

شيء أشبه بغريبة من الذهب الخالص ، فيه وسائل من الحرير
والاستبرق ، وأكواب ملىء بعضها من الشاي وبعضها من القهوة ،
وبعضها من اللبن ، وعلبة نشوق وسجائر مختلفة منها الطويل
والقصير ، والضحيم والنفيف ، ولكنها كلها عطرة أرجة يتضوع
منها نشر يشبه العنبر ، وفيها شيشة وجوزة ، وفيها نرد وشطرنج
وردومينو وما الى ذلك من أدوات اللعب . جلس الفيلسوف ومنه
برييش وأخذ في تدخين الشيشة لأنه كان قد جرب ذلك في دمشق
فأحبه . أما برييش فأخذ يدخن الجوزة لأنه كان كثير الاختلاف
الى حق من أحياء القاهرة في باب الشعرية ، وهناك تعلم هذا النوع
من التدخين . وصعدت بهما السحابة في السماء حتى انتهت بهما
الى قمة الجبل ، فهم ديكارت بالخروج فأمسكه برييش قائلا :
لا تخرج حتى تشرب قدحا من اللبن وكأسا من اللبن وكأسا من
القهوة وحتى تشفق ، فكل هذه الأشياء من ثمرات الأرض التي
تركها ، ولا بد من أن نذوقها الآن لنضمن لأنفسنا العودة الى هذه
الأرض أحياء أو أمواتا ، فإن نحن لم نفعل فسيقوم جبل قاف
حائلا بيننا وبين الأرض آخر الدهر . شربا ودخنا وخرجا . فإذا
طائر عظيم لا يستطيع الطرف أن يحيط به قد حلق كأنه ينتظر أمرا
قال ديكارت : ماذا أرى ؟ قال : هذا الطائر الذي تراه هو
بلاجوست ، وهو السفينة التي يتخذها الأحياء فينا وراء جبل قاف
لمواصلاتهم فامتط هذا الطائر فساكون معك وسترى أنه يقطع في
لحظات ما تقطعه سفنكم في أيام ، واستقر على جناح الطائر وما

هي الا لحظات قصار حتى هوى بها الى جزيرة عظيمة فيها غابات
كثيفة ومروج خضر ، ولكن أهلها قصار لا يتجاوز ارتفاع أحدهم
شبرا ، عراض يتجاوز عرض أحدهم مترا ، وهم يضحكون أبدا ،
والهم فينا بينهم حديث كقصف الرعد ، وهم يدخنون ولكن
بآذانهم ، يدخل الدخان في احدى الأذنين فيخرج من الأخرى ،
وليس لكل واحد منهم الا عين واحدة قد استقرت في وسط جبهته ،
ولكنها ضخمة متوقدة يتطاير منها شرر مخيف . قال ديكارت :
ولكني لا أفهم شيئا مما يقولون . قال برييش : هذا قرصهم
فازدردته تفهم لغتهم . وأخذ ديكارت يسمع لغتهم ويفهمها ، فقال
لصاحبه : ألسنت ترى معنى أن هذه اللغة تشبه اللغة البلغارية شيئا
شديدا ، قال برييش : هي أصل اللغة البلغارية وهؤلاء الناس هم
آباء البلغار ، كانت فيهم ثورة منذ آلاف السنين انتصرت فيها
الديموقراطية على الأشراف فأجلبتهم عن بلادهم ، فعبروا جبل
قاف ، وهناك في أرضكم أثر فيهم الجور ، فأخذ من عرضهم ، وزاد
في طولهم ، فاستقامت لهم هيئات وقامات كهينات الناس وقاماتهم ،
ومضوا في طريقهم حتى انتهوا الى الأرض التي تسمى الآن بلغاريا .
فاحتلوها واستعبروها . وهم الذين تحدثوا الى فقهاء المسلمين عن
أرض تشرق فيها الشمس ستة أشهر فليس فيها ليل ، وتغيب عنها
ستة أشهر فليس فيها نهار . وقد وضع فقهاء المسلمين أحكاما فقهية
لأهل هذه البلاد تسمى أوقات الصلاة بنوع خاص وقد جئت لنشر
الاسلام في هذه الأرض ، فعام الناس كيف يؤقتون الصلاة حين

تشرق الشمس ، وحين تغيب ، وامض بنا . فان « قاطرينا » تنتظرك في قصرها . قال ديكارت : من قاطرينا ؟ قال : برييش هي ملكة هذه الجزيرة حدثها عنك وأبانتها بنبئك ، فهي تنتظرك وقد زارها من قبلك دروكلكسيس وزارها العلاج وزارها فيثاغورس قال ديكارت : هي اذن خالدة لا تموت قال برييش : ان الخلود لم يكتب لاحد ، كل شيء هالك الا وجه الله ، ولكن ملوك هذه البلاد كتب لهم طول الأعمار . فأعمارهم لا تعد بالسنين ولا بالقرون وانما تعد بالآلاف . وقد ولدت قاطرينا سنة ٣٥٠٥ قبل المسيح وملوك هذه البلاد اذا بلغوا من العمر ثلاثة آلاف سنة جاءهم النبا بالعام الذي سيوتون فيه . وقاطرينا تعلم أنها تسموت سنة ١٩١٧ حين يقرب الألمان من مدينة باريس في الحرب العالمية الكبرى التي ستكون في ذلك الزمان ، وهي مشوقة الى أن تراك لتأخذ عنك العلم والحق والدين ، وتنفق ما بقى لها من الدهر في عبادة وتقرب الى الله تاركة أمر الملك لولي العهد الذي يبلغ من العمر الآن ألفى سنة ، واسمه ساباتييه بن أرايشا . ومضيا حتى انتهى الى القصر ، فاذا فخامة وضخامة وترف لا عهد لفيلسوفنا بها ، واذا الملكة القصيرة العريضة تنتظره مبتسمة ، واذا هو لم يكذب يجلس اليها حتى أخذت تتحدث اليه وتسأله ، واتصل مجلسهما ساعات فتنت فيها الملكة بفلسفة ديكارت فتنة لا حد لها ، ولم تأذن له بالانصراف ليستريح الا كارها ، وأخذ فيلسوفنا يتردد على الملكة يعلمها ويفقهها في الدين والتصوف ، وهي به مشغوفة ، ولكن جو هذه

الجزيرة لا يلائم طبيعة أهل هذه الأرض فقد أخذ ديكارت يلاحظ أن قامته تقصر وتعرض ، وشكا ذلك الى برييش فقال له : ألم ألبئك أن أهل هذه البلاد حين هاجروا الى أرضكم ضاقوا وطالوا حتى أصبحوا أمثالكم ؟ فأهل أرضكم اذا جاءوا الى هذه البلاد قصروا وعرضوا حتى أصبحوا كغيرهم من سكانها ، ولكن النسن كانت تقدمت بديكارت فلم يستطع أن يقاوم امتداد جسمه من ناحية وانكماشه من ناحية أخرى فتوفي عام ١٦٥٠ .

وقد وصف برييش في كتاب أرسله الى الحكومة الفرنسية مع جثة ديكارت مقدار ما أصاب الملكة من جزع وحزن لفقد هذا الفيلسوف قبل أن تنتشر مذاهبه القيمة في رعيتهما . قال برييش في آخر كتابه : والرأى عندي ألا يسافر الزعماء الذين سيخلفون ديكارت الى ما وراء جبل قاف الا في منتصف الألف الثالث بعد المسيح ، ففي ذلك الوقت قد يشابه ويتقارب ما دون الجبل وما وراءه بحيث يصبح طول الناس جميعا أربعة أشرار وعرضهم أربعة أمتار ، وفي ذلك اليوم قد يكون فن الطيران قد تقدم ويستطيع الناس أن يقتحموا جبل قاف ، ويمبروا بحر كاف ، ويصلوا الى جزيرة نون في سهولة ويسر . قال برييش على أنى الموكل بهؤلاء الزعماء فلا أسمح لأحد منهم بزيارة قاطرينا أو ابنها ساباتييه بن اراييشما الا حين يئين الأوان لهذه الزيارات .



هذا ما أحببت أن أهديه الى الشيخين الجليلين من حياة

ديكارت ، وأنا أعتد على ذكائهما في فهم فلسفته من هذا الفصل
فللرجل نوعان من الفلسفة : أحدها سخي فضعيف هو الذي
اعتسدت عليه في كتاب الشعر الجاهلي ، لأنني لست من أهل
التصوف ولا القادرين على الشطح والنطح ، والآخر قيم متم
خصب لذيذ يلتمس في كتب العلاج ومحيي الدين بن العربي ،
وفي كتاب الدياربي وشمس المعارف الكبرى وفي رسالة صغيرة
توجد في مكتبة الأستاذ الجليل أحمد زكي باشا بقسم المخطوطات
يقال لها « دومة في نومة » .



أما بعد فإني أقسم لصاحب المعالي وزير المعارف ، ولوكيلها
وسكرتيرها العام ، وأعضاء مكتبها الفني ، ولناظر دار العلوم
وأساتذتها وطلابها لو سئل تلميذ أوروبي عن ديكارت في امتحان
الشهادة الثانوية وجهله كما يجهله أساتذة هذه المدرسة العالية
لحيل بينه وبين الشهادة التي يطلبها ، واذن فأنا أقترح عليهم أحد
أمرين : أما أن يكلفوا أحد العلماء بالقضاء محاضرات في تاريخ
الفلسفة للأساتذة وللشيوخ منهم بنوع خاص ليستطيعوا أن
يكونوا أدباء وأن يلموا « من كل شيء بطرف » وأما أن يأخذوا
هذا الفصل الذي أكتبه ملخصاً فينشروه ويأخذوا الأساتذة
والطلاب بقراءته وفهمه فليس ينبغي أن يكون في مدارسنا العالية
أستاذ أو طالب يجهل اسم ديكارت أو فلسفته أو أثره في هذا
العصر الحديث .

